

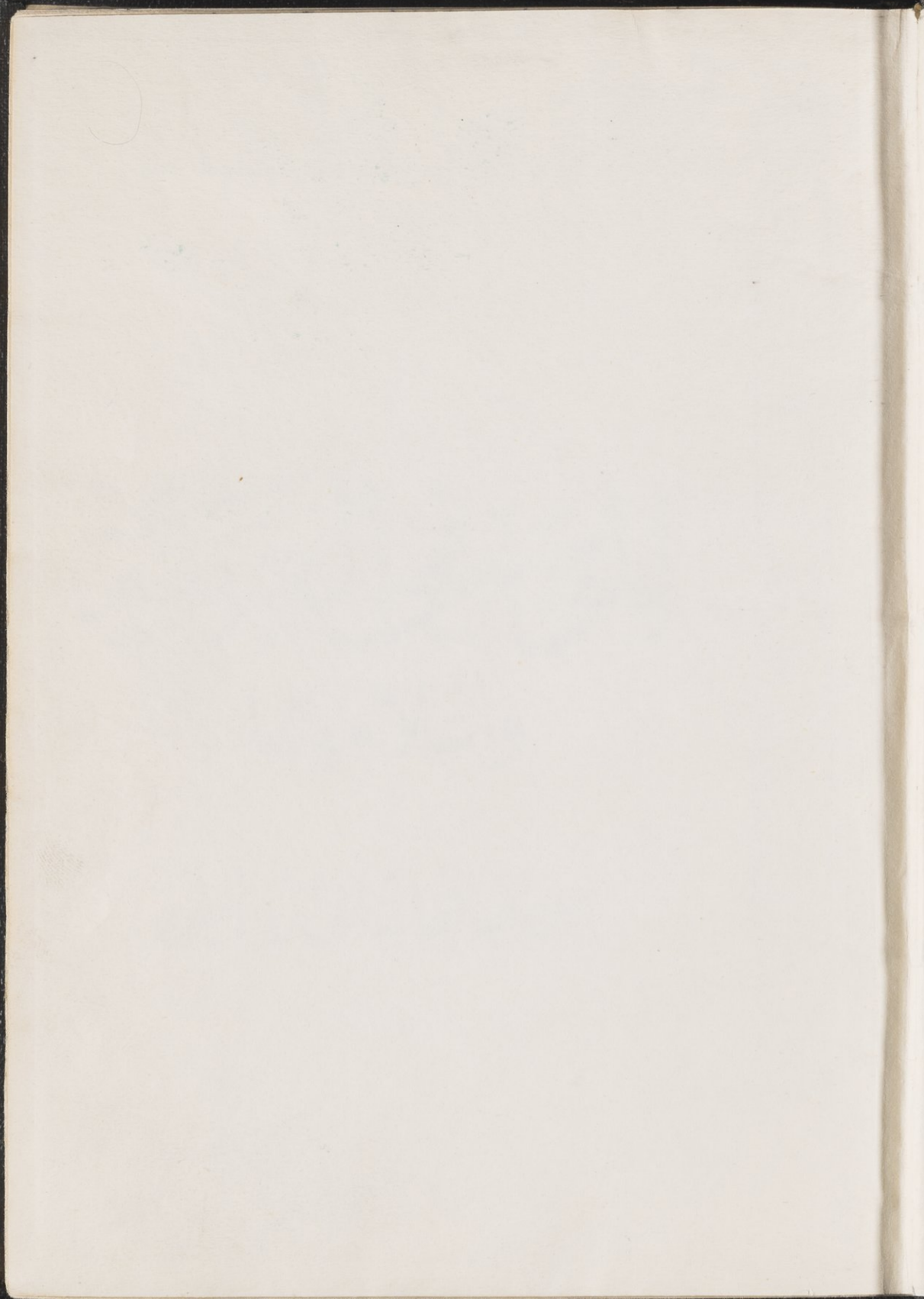
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY  
  
3 8534 01050 3096

1143



FROM THE  
LIBRARY OF  
THE  
AMERICAN UNIVERSITY  
IN  
CAIRO

من مكتبة  
الجامعة الامريكية بالقاهرة



04-B 1870 Pt

al-Hifnī, Mahmūd Ahmad.  
al-Mūsīqā al-ʿArabīyah wa-ʿĀlāmihā.

ML

332

H43

1951

سلسلة التاريخ الموسيقي

# الموسيقى العربية وأعلامها

من الجاهلية إلى الاندلس

تأليف

دكتور محمود أحمد الحفني

۷۸۰؛ ۹۵۳  
Z. J. م

۶۶۳۷۰

# فهرس

صفحة

٧

مقدمة

## القسم الأول

٤٨-١٧ ، المامة إجمالية ،

١٩ . . . . . العصر الجاهلي

٢٥ . . . . . عصر صدر الإسلام وبنى أمية

✓ ٣٥ . . . . . عصر الدولة العباسية

٤١ . . . . . عصر الأندلس

## القسم الثاني

٣٤١-٤٩ ، الأعلام ،

١٥٤-٥١ : أعلام عصر صدر الإسلام وبنى أمية :

٥٣ . . . . . سائب خاثر

٥٨ . . . . . ابن مسجح

٦٤ . . . . . عزة الميلاد

٧٣ . . . . . جميلة

٨٣	.....	ابن محرز
٨٧	.....	ابن سريج
٩٨	.....	الغريض
١٠٤	.....	معبد
١٢٠	.....	حنين الحيرى
١٣١	.....	ابن عائشة
١٤١	.....	سلامة القس
١٤٨	.....	مالك بن أبي السمح
٣١٩-١٥٥	.....	<u>أعلام الدولة العباسية :</u>
١٥٧	.....	- ابراهيم الموصلى
١٧٠	.....	زلزل
١٧٥	.....	يحيى المكي
١٨٢	.....	ذات الخال
١٨٩	.....	بذل
١٩٥	.....	علية بنت المهدي
٢٠٩	.....	دنانير
٢١٤	.....	متيم الهشامية
٢٢٢	.....	فريدتان
٢٣١	.....	شارية



٢٣٧	.....	- ابراهيم بن المهدي
٢٥٠	.....	- ابن جامع
٢٥٨	.....	- بخارق
٢٦٤	.....	- اسحق الموصلي
٢٨٦	.....	- عريب
٢٩٧	.....	- الكندي
٣٠٦	.....	- الفارابي
٣١١	.....	- ابن سينا

٣٢١-٣٤١

أعلام عصر الأندلس:

٣٢٣	.....	زرياب
٣٣٣	.....	ولادة بنت المستكفي
٣٣٨	.....	عبد الوهاب بن الحاجب
٣٤٣	.....	عهد الخلفاء

تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲

تذکره اعیان ۱۱۲-۱۱۳

تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲
تذکره اعیان	۷۱۲

## مقدمة

إن المصنفات التي نطالع بها القراء في « سلسلة التاريخ الموسيقي » ما تزال متتابعة الحلقات ، متواصلة الصفحات . وهذا الكتاب « تاريخ الموسيقى العربية وأعلامها » حلقة جديدة من تلك السلسلة ذات الشعب والمناحي والفروع والأطراف .

ومع أن ما سبقه من مصنفاتنا كان يمتاز في كثير من نواحيه وموضوعاته بألوان متفردة وتفصيل مبتكرة وتحقيقات تاريخية كان لنا شرف التنقيب عنها والكشف عن مكوناتها ، فإن الأهمية في هذا الكتاب أوضح هدفاً وأوصل قرباً . فإننا نسجل فيه بداية موسيقانا العربية ، وانبثاق أنوارها ، ومدى تطورها مع ارتقاء المدنية الإسلامية وتأثيرها في الشعوب وتأثرها بها ، وتنقلها بين العواصم والحواضر ، وتناول عهود الخلفاء لها بلاطاً بعد بلاط وعصر بعد عصر .

كل ذلك نجده في هذا الكتاب ، وهو باعتبار آخر يعد سجلاً فنياً لمجموعة قيمة من أعلام العروبة التي تحفزت الآن في كل ناحية لجمع كلتها ، واكتشاف معادن ثروتها ، وكنوز ثرائها ، وبعث عوامل القوة والحياة واليقظة بين مختلف شعوبها ، جاعلة أول

أهدافها التاريخ تستنبيء صحفه وتحاسب عصوره وتناقش معامه حتى  
يفضى إليها بما لها قبله من مآثر وأجاد .

ولعل هذه العروبة قد وفقت إلى تعرف أعلامها وعلومها  
ووضعت يدها على النجوم اللامعة في أكثر أبواب الحياة . لقد  
بعثت أعلام الشعر والنثر والأدب والبيان ، وأيقظت عباقرة اللغة  
والدين والفنون المختلفة ، في مؤلفات فردية على سبيل البحث  
المستفيض حول شخصية كبيرة ، أو في مصنفات تضم مجموعات  
من هؤلاء الأعلام في إطار من المذهب أو العصر أو الوطن .

وبقيت الموسيقى العربية وأعلامها لا تلتسبها العروبة إلا في  
شئنا المصادر إن عثر الباحث على بعضها ، وقلما يصيبه ذلك غناء  
أو جدوى . فالموضوع لم يقتل دراسة وبجثاً كما يقول العلماء ، ولم  
تنضجه المناقشات كما أنضجت غيره في بحث الأفاذ والأعلام  
كالمتنبي وأبي العلاء وأبي تمام والبحتري مثلاً ، ممن يستطيع الباحث  
أن يجد العشرات من التأليف التي صفت حسابهم بيتاً بعد بيت  
وقصيداً بعد قصيد ، ولم تدع من حياتهم خطرة ولا من أعمالهم  
خطوة إلا وضعها بين عدستي الباحث المدقق ، ويسرت على الناس  
أمر مطالعتهم والتعرف إليهم والتعمق في نتاج أفكارهم . ولم يكن  
للموسيقى العربية وأعلامها من كل ذلك حظ ولا نصيب .  
وما كان أشد ظماً العروبة إلى بحث أعلام موسيقاها لتستكمل

بهم قائمة النجوم في تاريخها ، على أن يكون ما يقدم من تلك  
التأليف في حلة العصر ومظهره وفي أسلوب واضح الجدة وتاريخ  
كامل التصفية والتنقية . ولئن طرقت المصادر القديمة بعض أخبار  
هؤلاء الأعلام في شيء من الإيجاز تارة ومن الإيضاح البغيض  
تارة أخرى في لون من الأدب السافر المكشوف ، فلعمري إنه  
خير للمرء أن يظل بعيداً عن معرفة أولئك الأعلام من أن يدنو  
منهم في تلك المصادر أو بعضها ، حيث يرى من مجون التصوير  
أحياناً ومن سوء الأحداث وكذب النقل أحياناً أخرى ما يبغض  
إلى المرء الاطلاع ويرده خجلاً أسفاً .

وإن التمحيص الذي أفاد منه الأدب والعلم على تتابع القرون  
في الممالك العربية لم يتناول الموسيقى وأعلامها ، فإن هذا اللون من  
الدراسة التاريخية العلمية ، المبنية على الوثائق المؤكدة ، والقائمة على  
الأسانيد والحجج المقطوع بسلامتها ، لم يكن معروفاً في الشرق  
ولا في العالم إلا منذ عهد قريب ، وهذا هو الذي أفسح المجال  
للظنون والشبهات . ووجد المتصدرون للكتابة عن الموسيقى  
والموسيقيين أنفسهم أحراراً طلقاء لا يجدون من يناقشهم الحساب ،  
فأطلقوا لأنفسهم العنان ، وركبوا رموسهم في كل مذهب من  
الخيال ، لأنها رحلة مريحة لا تشق على النفس كثيراً . وراح بعضهم  
يتحدث عن أبناء الموسيقى وأعلامها فيسلك طريقة الإخباريين

ويتبع وسائل أهل الأحاديث في رواية الخبر مسنداً معنعناً متصلاً  
يرويه فلان عن فلان عن فلان . ولم يكن ذلك إلا محاكاة وتقليداً  
ومحاولة لحمل السامع والقارىء على التصديق .

وأعجب من هؤلاء أصحاب التعللات اللغوية فقد قرأت يا حدى  
المخطوطات العربية القديمة المحفوظة بدار الكتب العامة ببرلين  
أن طالباً سأل أستاذه عن معنى كلمة « موسيقى » فلم يجشم الأستاذ  
نفسه بالبحث عن أصولها عند قدماء الإغريق بل زعم أن اشتقاقها  
اشتقاق سماوى يرجع أصله إلى أن بنى إسرائيل كانوا مع موسى  
الكليم وأصابهم الظمأ فاستسقى موسى لقومه وضرب بعصاه الحجر  
فانفجرت العيون ، وقيل له من الوحي السماوى « موسى اسق »  
فصارت هذه اللفظة « موسيقى » . وهذا مثال من التضليل والتهاافت  
والخذلان فى التعليل العلمى لا يدانيه إلا من فسر اسم الفارابى بأن  
أصلها « الفأر أبى » وذلك حين زعموا أن أبا نصر صنع العود  
لما مات أبوه فكان مخترعه الأول ولم يثقب له وجهاً فإذا به عند  
العزف عليه أخرس خال من كل طنين ثم حدث أن قرض الفأر  
وجه العود فأحدث فيه فتحة أكسبت صوته ضخامة ورنيناً ، فسر  
أبو نصر واعتز بصنع الفأر ، الذى أصبح دليلاً على الاكتشاف  
الجديد فمنحه شرف الأبوة وقال « الفأر أبى » فلقب منذ ذلك  
الوقت بالفارابى !! وجهل أصحاب هذه الأسطورة أن فتحة العود

قد سبقت أبا نصر وجرذانه بألاف السنين عند قدماء المصريين  
وبقية الممالك القديمة كما جهلوا أن الفارابي من قرية فاراب فيما وراء  
نهر سيحون (١).

ولم يكن التخبط في التأليف الموسيقي مقصوراً على مؤرخي  
العرب ، وإنما كان ذلك أثراً لحالة عقلية عامة عند المؤرخين في  
الشرق وفي الغرب ، ممن لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث وجهد  
التنقيب عن الحقائق وإثباتها ومقارنة الأشخاص بالأشخاص ،  
والموازنة بين العصور والأهم وإجراء الأقيسة المنطقية السليمة بين  
الآزمنة والامكنة للوصول إلى معرفة صحيحة ونتائج علمية مقبولة .  
ما أكثر ما يشتهر عالم أو باحث عظيم في ناحية ما حتى يحاط  
بهالة من نسج الخيال في التحدث عنه ونسبة أشياء وحوادث إليه .  
وما أكثر ما تنقل الشائعات على هذا الوجه وتأخذ طريقها من  
مصنف إلى مصنف ، بل من لغة إلى لغة حتى تصبح في مركز  
الحقائق الثابتة غير القابلة للنقد أو المعارضة ، إلى أن يأتي التاريخ  
بوثائقه الحاسمة التي تمزق أستار الأوهام ، وتكشف لثام الأباطيل  
عن وجه الحقيقة فتبدو سافرة بعد ما طال بها الأمد وهي في  
غمار الظلام .

ولدينا على ذلك شواهد كثيرة نكتفي منها بالإشارة إلى

---

(١) أنظر ترجمة الفارابي في هذا الكتاب .

« جيدو الأريزي » ، وقد عاش بأوربا في نهاية القرن العاشر الميلادي .  
كان نابغة فذاً وعبقرياً متفرداً رفع الأمية الموسيقية بتلك الوثبة  
التي وثبها بالتدوين الموسيقي بما جعله أبا التدوين الحديث ، وكان  
له الفضل في تسمية درجات السلم الموسيقي بمصطلحاتها الجارية الآن  
والمأخوذ بها في الغناء الصولفائي ، كما كان له من التجارب العملية  
ما يشبه السحر . فكان من أثر ذلك أن كاد « جيدو » يصبح من  
الشخصيات الخرافية في عالم التاريخ . لقد توسع المؤرخون في  
تفسير وجوده وموهبته وآثاره فما من عمل يؤدي ولا اختراع  
يبتكر من مجهول إلا ويكون « جيدو » هو ذلك المجهول ، حتى  
لقد نسبوا إليه اختراع آلة البيان وسواها . وأخذ الكتاب ينقل  
بعضهم عن بعض ويتزايدون في الرواية عنه والإشادة بعبقريته  
والتحدث عن معجزاته كأنه سليمان سخرت له الأرض إنساً وجناً  
وطيراً .. حتى ارتقت البحوث في مناحي التفكير المختلفة ، وأصبح  
التاريخ الموسيقي مادة مستقلة لها شعبتها العلمية الجامعية في الدراسة  
والتخصص . ومن ثم لم يعد « جيدو » مخترع كل شيء على نحو  
ما صوروه ، إنما بقي في حدود الحقيقة ، له فضله ولكن فضله هو  
دون زيادة ولا نقص .

ولكن الجهود الحديثة التي ألحقت هذه الدراسات الموسيقية  
بالحياة الجامعية بدأت في ممالك الغرب ، وما برحت شجرتها في نمو



حتى كانت لها ثمار وثمار . وبقيت الموسيقى في الشرق كما كانت  
ينقلها فنان عن فنان وراوية عن راوية وكاتب عن كاتب فلا يقال  
للأول ما فنك ، وما علمك ، وما مبلغ دراستك ومدى ثقافتك ..؟  
ولا للثاني ما هي حدود روايتك ووسائل درايتك ..؟

وكان هذا مصدر ما لقيت من العناء حين حاولت مناقشة  
المصادر لإخراج هذا الكتاب للناس على نحو دراسي علمي يجمع  
بين الإيجاز والإيضاح ، وبين الترتيب والتنقيب واستخلاص  
الحقائق من بين أوهام الأساطير وأكداس الأضابير . وذلك بما  
جعل هذا الكتاب غير قريب العهد بالميلاد ، فلقد صحبتني هؤلاء  
الأعلام واحداً بعد واحد ، وطالعتني بوجوههم وفنونهم  
عبر الحقب والعصور ، من ثنايا المصادر العربية وغير العربية ،  
والمخطوطات القديمة والمطبوعات الحديثة ، في مصر تارة وفي  
مكتبات أوروبا تارة أخرى . وربما اشتبكوا في صراع عنيف  
ليسبق بعضهم بعضاً إلى الظهور . وكانت نفسى موضع هذا  
الصراع ، حتى استجبت إلى بعضهم وأظهرته وحده في مؤلفه  
الخاص كالكندي وابن سينا اللذين ظهرا تباعاً بالعربية والألمانية .  
كما بعثت ذكريات ومآثر لغير هذين فيما نشرت من موضوعات  
ومقالات في أكثر من مجلة أو كتاب . ولكنهم ظلوا وأضراهم  
يطالبون بالظهور في مشرق نور العروبة ونهضة مصر ، على أن

تجمعهم باقة واحدة يبعث أريجها ما كان للبلدنية العربية من القيمة الفنية العليا . فرأيت بعد طول المدة أن أضيف بهم حلقة جديدة إلى سلسلة مصنفاتي في التاريخ الموسيقى ، تلك المصنفات التي أعنى فيها عناية خاصة بكل ما يتصل بالشرق قديمه وحديثه ، وقد بدأت بواكيرها الأولى في هذه الناحية بكتاب « موسيقى قدماء المصريين » الذي طبع بالقاهرة في عام ١٩٣٦ م .

وقد أردنا بهذا المصنف الجديد أن نتناول تاريخ الموسيقى العربية وأعلامها منذ العصر الجاهلي إلى الأندلس . على أنه ما تزال لتلك السلسلة حلقات ستبعب بعضها بعضاً . وقد يكون من أجلها شأناً تلك الحلقة التي سنخصصها إن شاء الله لمصر وحدها منذ الفتح الإسلامي حتى الآن في مصنف خاص .

على أن هذا المصنف الذي نطالعك به الآن ليس محصور الثمرة والجدوى في دائرة الأسرة الموسيقية ، بل هو باب من أبواب المساهمة في الثقافة العامة ، فخرى بمن يعنى بشأن الأدب العربي والمجتمع العربي ألا يفوته التعرف إلى أولئك العباقرة الذين يكشفون بسيرهم عن ألوان الحياة العربية ، ومظاهر مدينتها ، وتنوع الجمال في صورها ، وراثتها من ناحية الفن وغزارة المادة ، واهتمام الخلفاء ببواعث التشجيع التي رفعت أقدار أهل الفناء وبواتهم المكانة الرفيعة وسجلت لهم صحائف الخلود . فما أحوج

دارس الأدب والاجتماع والتاريخ وغير ذلك أن يلتبس في هؤلاء  
معادن وكنوزاً وماثر ومواهب ما كان له أن يعثر عليها في يسر  
وإمكان لو لا هذا الجهد المتواضع الذي حاولنا فيه أن نسلك طريقة  
تجمع بين التبسيط والتحليل وأن نقدم أكبر عدد ممكن في أصغر  
حجم مستطاع . فهو جديد في المصنفات الأدبية الفنية يضاف إلى  
مكتباتنا العربية .

وقد جعلنا هذا المصنف قسامين ، ففي أولها نظرة إجمالية  
وإلمامة تاريخية طفناً بها حول تلك العصور العربية والأجيال  
الإسلامية ، وقد حاولنا في هذا القسم أن نضع أمام القارى صورة  
سريعة بجملة يستطيع أن يشرف من نافذتها على الموضوع بصفته  
العامه وأن يستعرض المناظر في إيجاز . أما القسم الثانى من هذا  
الكتاب فهو مدرسة الأعلام حيث يحدد القارىء بعد استيفائه القسم  
الأول كل علم فى موضعه وفى إطاره ويتبين على ضوء ما سبق  
عصره وبيئته ومنزلته من محيطه ومن التاريخ بجملته . فقد رأينا  
من الخير قبل دراسة التفاصيل من سير أولئك النجوم أن نسبق  
تلك الدراسة بهذه الإحاطة الإجمالية التى تتناول بمالك ومدنيات  
سايرت حياة العرب فى تنقلهم من عصر إلى عصر ومن أرض إلى  
أرض . فإذا تم الوقوف هذه على المراحل بأزمئتها وبأمكنها فى

المشرق والمغرب من تاريخ الموسيقى العربية ، أخذنا سبيلنا إلى  
دراسة هؤلاء الأعلام .

وإننا لانزعم أننا أتينا في هذا المصنف على جميع المعنيين في  
تلك العصور ، أو على جميع ما كان لهم من خصائص ومواهب ،  
وإنما هي محاولة لعل فيها كفاية لما لا غنية عنه لقارىء أو دارس .

وأرجو أن أكون قد أدت به واجباً وطنياً ، وأرضيت  
ضميري بما كتبت عن هؤلاء الأعلام الذين لبثت في الحديث  
معهم وإليهم أكثر من ربع قرن .

لقد كانوا بالأمس نجوماً متألثة في قصور الخلافة  
وسماء العروبة ، واليوم يعودون نجوماً متألقة في سماء  
التاريخ وفي أجماد الخلود .

التاريخ  
والشعر  
والفنون  
والفنون  
والفنون

القسم الأول

الامتعة عايلة



# العصر الجاهلي

مدته نصف قرن ينتهي بظهور الإسلام

كل شيء في الصحراء من صنع الله ، سماء صافية ، وشمس ساطعة ونجوم تتألق ، وطبيعة تبوح بأسرارها في انسجام شامل ولحن هادئ متناسق ، تجعل ساكنها شاعراً بفطرته موسيقياً بطبعه وسليقته . وكذلك كان العربي في بداوته الجاهلية شاعراً موسيقياً . وإن في قدرته على ارتجال القصيد ، وفي تناسق أوزان الشعر العربي وانسجام تفاعيله في عدد حر وفها المتحركة والساكنة وتوافق تعاقبها ، بل في تناسب أجزاء الشعر ورنين قوافيه لدليلاً على تلك الموسيقية الفطرية .

إن الحياة في الصحراء ، وما فيها من وحشة وانفراد ، كانت تدعو العربي إلى تلهس أسباب الأناج ومنها الغناء . وإن الإبل وهي مجهدة في أسفارها الطويلة كانت تحتاج إلى ما يبعث فيها النشاط وينسيها ما هي فيه من ألم الجوع والظما ، فكان الحداء من خير الوسائل لإنعاشها ، على أن في حركة مشيها إيقاعاً موسيقياً علم ~~في~~ في البادية كيف يتابعه بصوته وترنيمه .

ولقد كان الترنم بالشعر أول أنواع الغناء الجاهلي ، ولم ينتحل  
العرب فيه يومئذ علماً ولا عرفوا صناعة ، فتغنى الحداة منهم  
في حداء إبلهم والفتيان في أوقات فراغهم ولهوهم . وكانوا يسمون  
الترنم بالشعر غناء وبالتهليل أو بالترتيل تغييراً وهو التذكير بالغابر .  
وكان الغالب على طبيعتهم الموسيقية التغنى بالرجز يرسلونه  
ارتجالاً لبساطة تفاعيله ويسر تناوله . وربما ناسبوا في غنائهم بين  
النغمتين بعض المناسبة ، وكانوا يسمون ذلك السناد . وأكثر  
ما يكون شيوعاً فيما هو من بحر الخفيف الذي يجري إنشاده بمصاحبة  
الدف والمزمار فتطرب له نفس العربي وتسكن إليه مشاعره .

وهذا الساذج مما سبق ذكره من ألوان الغناء لا يبعد أن تتفطن  
له الطباع من غير تعليم ، شأن كل ساذج من الصنائع ، فإنك تجد  
ذلك في المطبوعين على الموازين الشعرية ، وتوقيع الرقص ،  
وأمثال ذلك .

لذا كان الشاعر في الجاهلية موسيقياً بفطرته ، فإن اتخذ  
له أحياناً مغنياً يقوم بإنشاد شعره ، فما ذلك إلا كما يتخذ له  
راوية لإلقائه .

وللصحراء موسيقى ذات نغمة واحدة متكررة ، فلا عجب  
أن يتغنى أهلها بنوع واحد من القول ، ولون واحد من النغم .



والشعر الجاهلي لا يدل على خيال واسع ولا على غزارة في وصف المشاعر والوجدان ، إنما هو قصائد كثيراً ما تتكرر فيها التشابيه والاستعارات في قلة من الابتكار وفي غير تنوع ... موضوعات محدودة ضيقة ، هي ظل لحياة الصحراء ، وصورة صادقة لعيشة البداوة ... وهكذا كانت موسيقى ذلك العصر ، نغمة متكررة وألحان ساذجة فطرية .

وكان العربي حريصاً على التمتع بمسرات الحياة ، متعلقاً بالحب كلفا بالشراب والميسر والصيد ، مشغولاً بالغناء وسماع المزهر (١) وكان للمرأة حظ من الموسيقى في ناحيتها ، فقد اشتهرت نساء العرب بما كان لهن فيها من ألحان « المراثي » و « النواح » . ولئن كانت غالبية سكان جزيرة العرب تعيش في البوادي ، منذ الفطرة الأولى ، والمعيشة البدوية هي السائدة في تلك الجزيرة فقد تقدمت بهم الحياة الإنسانية نحو الحضارة والمدنية حتى صار من العرب طائفة عرفت « بالحضر » . وهؤلاء أرقى من البدو بكثير يسكنون المدن ، ويقرون فيها ، ويعيشون على الزراعة والتجارة . وقد أسسوا قبل الإسلام بمالك ذات مدينة كالمن ، بلغت قبل الميلاد بألفي سنة درجة من الحضارة تدل عليها أطلال المباني الفخمة والنقوش الكثيرة ، وكالغساسنة في الشام ، واللخمين في

(١) نوع من العود ذو وجه من الرق .

العراق . وكان لهؤلاء سيما الأشراف منهم موسيقى تسمى على  
موسيقى البدو ، تأثرت إلى حد ما بالمدينيات المجاورة .  
وقد يعتقد البعض أن العربي في الجاهلية حبسته الصحراء وأزمته  
طبيعة بلاده المعيشة بمعزل عن العالم ، وهذه فكرة خاطئة تنكرها  
الحقيقة ويدحضها التاريخ فقد كان العرب منذ جاهليتهم الأولى على  
اتصال مستمر بالمدينيات المجاورة لهم ، وذلك لعدة أسباب أهمها  
التجارة والبعثات الدينية من اليهود والنصارى تدعو إلى دينها  
ونشر تعاليمها .

وقد ازدهرت الموسيقى في بلاد الفرس قبل بلاد العرب ،  
واهتم ملوكهم بها ، وجعلوا لأهلها مكاناً في دولتهم ، حتى علا شأنها  
وتبوأت في الشرق مكان الزعامة بعد مصر الفرعونية .  
وكذلك كان الحال في بلاد اليونان سمت فيها الموسيقى بعد  
أن انتقلت إليها من الممالك الشرقية القديمة ، وعنى بها علماءها  
فدونوا أصولها وقواعدها .

وقد تأثر العرب بتيار هذه المدينيات تأثراً عظيماً ، نقف على  
مداه من الشعر الجاهلي . وحفل تاريخ الجاهلية بأخبار القيان  
يستقدم من بلاد العجم والروم ومصر بالآلتهن الموسيقية ، فلا  
يكاد يخلو منهن بيت من بيوت الأشراف ، وكانت حرفة الغناء  
مقصورة أولاً على أولئك القيان اللاتي كن يلقين أغانيهن تارة

بلغة بلادهن وأخرى بالعربية ، ودخل في زمرتهم فيما بعد بعض العربيات وإن كن قليلات .

روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني عن حسان بن ثابت يصف ليالى الجاهلية « لقد رأيت عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط <sup>(١)</sup> ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة » .

واشتهر من هؤلاء القيان كثيرات ، وأقدم من عرف منهن جرادتا عاد اللتان يضرب بهما المثل العربى قديما « تركته تغنيه الجرادتان » وهما قينتان لمعاوية بن بكر أحد العماليق ، كذلك جرادتا نعمان ، وجرادتا عبدالله بن جدعان وهبهما لأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور .

غير أنه وإن كان اتصال العرب في الجاهلية بالحضارات الأجنبية أمراً ثابتاً ، فلقد كان يجرى من غير شك في حدود ضيقة تلامم موقع بلادهم الجغرافى وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية .

وسنرى فيما يلى أنه ستطرد زيادة تأثر الموسيقى العربية ، من عصر إلى عصر ، بموسيقى المدينيات المجاورة ، سيما الموسيقى الفارسية حتى يبلغ هذا التأثر منتهاه في عصر بنى العباس .

---

(١) مفرده بربط ، اسم فارسى للعود .

وقد عرف العرب في الجاهلية من الآلات الوترية المزهر  
والعود ذا الوجه الخشبي ، كذلك عرفوا من الآلات الوترية  
الجنك أو الصنج والمعزف .

ومن آلات النفخ الزمار والقصبة أو القصابة والشبابة  
والصور والناى .

ومن آلات النقر الطبل والدف والقضيب ( لضبط الميزان  
أو الإيقاع ) والصنوج والجلجل .

# عَصْرُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَبَنِي أُمَيَّةَ

يبتدئ بظهور الإسلام

وينتهي بقيام دولة بني العباس (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م)

جاء الإسلام فضرب المثل العليا لمبادئ الاجتماع المؤسسة على مكارم الأخلاق، والسمو النفسى، والكمال البشرى، فكان لزاماً أن تهض الموسيقى فى أحضانه، وتزدهر فى عزه، وترقى حتى تكون ثقافة تثمر فى كنفه. ذلك بأن الموسيقى هى الباعث للكمال الأدبى فى الانسان بترقية طباعه وتهذيبه، فإن سماع الأنغام يوقظ المشاعر، ويلهب الحس، فيدفع بالعاطفة نحو السمو، وبالعقل نحو التفكير، وبالخيال نحو دنيا الروح. وعلى الجملة فإنها تكبت الشهوات الجسدية فيسود العقل، والعاطفة، والروح، على كل غرائز النفس البشرية.

وما نعدو الصواب حين نقرر أن الموسيقى فى صدر الإسلام قد لبست ثوباً دينياً ناصعاً يوم سرت تلاوة القرآن الكريم بالصوت الجميل فى أنفس الناس سريان العافية فى الجسم السقيم.

وآية ذلك ما بين أيدينا من أحاديث مأثورة عن مشهورى الصحابة  
فى مدح قارىء القرآن إذا كان جميل الصوت لم يخرج عن حد  
المعقول فى القراءة والأدب الواجب للقرآن . وهنا رفع القرآن  
الكريم علم الموسيقى عالماً بين العرب ، ونشأ علم التجويد (١) .

ومن إعجاز القرآن نظمه الموسيقى الرائع ، الذى يسيطر على  
مستمعيه ، ولو كانوا غير مسلمين ، حتى قال بعض الأجلاء : « إن  
قوانين الموسيقى قد لحظت فى القرآن تامة مكتملة » . وكذلك الشأن  
فى بعض شعائر الدين الأخرى كالآذان للصلاة عامة ، وصلاة  
العديد وتلاوة التكميرات فهما فى لحن موسيقى رائع ، مما يرقق  
حاشية الروح ، ويلين القلوب الغلاظ ، ويهيم الناس لتلقى النفحات  
الإلهية فى بهجة وانسراح .

ولئن تفرغ النبى ﷺ لنشر دعوته ، وتبليغ رسالته ، واشتغل  
بالغزوات ومحاربة الكفار من قريش ، فلقد كان عليه السلام  
يتقبل الخناء ، ويدعو إليه فى مناسباته .

من هذا ما سمح به لجارية من قريش نذرت : لئن رده الله  
من غزوه لتضربن فى بيت عائشة بدف . فلما رجع الرسول الكريم  
جاءت الجارية تريد أن تفي بنذرها . فذهبت عائشة رضى الله عنها

---

(١) وقد تفرغ عن هذا العلم فن حديث اصطلاحنا على تسميته فى مواد المعاهد  
الموسيقية بترية الصوت اللفظى .

لرسول الله تخبره قالت : « فلانة ابنة فلان نذرت لئن ردك  
الله تعالى أن تضرب في يتي بدف » فقال لها : « فلتضرب » .  
وكذلك ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم دخل على زوجة أم المؤمنين  
عائشة وهي تزف جارية لها من الأنصار ، فقال لها : « يا عائشة  
ألا تبعثين معها من يغني ؟ فإن أهل هذا الحي من الأنصار  
يحبون الغناء » .

وما روى عنه عليه الصلاة والسلام وهو يمتدح أبا موسى  
الأشعري حيث قال : « لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود » .  
وما تناقلته الرواة والثقات من أنه صلى الله عليه وسلم أذن لبلال بن رباح الحبشي  
— وهو أول من أسلم من الأحباش — بالأذان بصوته الجميل .  
وقد اشتهر في ذلك العصر من المغنيات كثير من القيان ، نذكر  
من يذهن سيرين مولاة حسان بن ثابت ، وهي إحدى الجاريتين  
المصريتين اللتين أهداهما المقوقس في العام <sup>الربيع</sup> التاسع الهجري ( ٦٣٠ م )  
إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وعنها أخذت عزة الميلاء الأستاذة الأولى  
لمدرسة الغناء التي درج عليها من عاصرها أو جاء بعدها . وقد روى  
صاحب الأغاني أن عزة كانت تغني من أغاني سيرين ، وبهذا تكون  
الموسيقى المصرية القديمة قد وجدت طريقها إلى الجزيرة العربية منذ  
فجر الإسلام في حنجرة سيرين وتلميذاتها فوضعت بذلك نواة الصلة  
الفنية بين مصر والموسيقى العربية .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، على الرغم مما عرف عنه من شديد زهده فى الدنيا راضياً عما يعفو الله عنه من الغناء . فقد نقل صاحب العقد الفريد أن عمر قال للناطقة الجعدى أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، فأسمعه كلها له ، قال وإنك لقائلها؟ قال نعم . قال لظالما غنيت بها خلف جمال الخطاب .

وكان عمر يكره من الموسيقى الغناء المخذى الذى يبعد الشعب عن الجهاد والتخشن ، ويسلمه إلى الرفاهية والطرأوة . وما كان ذلك من طبيعة الإسلام ولا من سجية عمر ، ولا مما يأذن به الخلق القويم .

وما كاد يقبل عصر عثمان رضى الله عنه حتى سجلت أخبار المدينة أن رائقة المغنية وتليذتها الفتية عزة الميلاء وغيرهما كن يقمن فيها حفلات موسيقية رائعة يحضرها أشرف القوم وفنانوهم . وكان من بين هؤلاء حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ .

وقد كان فى اتساع الفتوحات التى تمت فى عهد عثمان ، وفى عهد سلفه ، والممالك التى دانت للإسلام ، والأسرى الذين قدموا إلى الديار العربية ، ما جعل تيار مدينتى البلاد المغلوبة — وبخاصة المدينتى المصرية والفارسية واليونانية — ينتشر فى البلاد العربية ، حتى لقد نبغ العرب فى فن العمارة فشيّدوا أنحر القصور والمباني . وأخذ المسلمون ينظرون إلى أمور دنياهم فقللوا من غلواء نظرهم



إلى الموسيقين ، وحفلت بهم بيوت الأمراء والأشراف ،  
وأخذت الموسيقى مكانها في مجالسهم بجانب الشعر والأدب .

وما كاد ينتقضي عصر الخلفاء الراشدين حتى أخذت الموسيقى  
تسلك سبيلها إلى وجهتها الفنية الواضحة . وأورقت تلك الدوحة  
التي بدأت نواتها منذ قريب لتمتد ظلها وتستكمل نضج ثمارها في  
عصر بني أمية .

انتقل الحكم بعد مقتل علي رضي الله عنه بقليل إلى الأمويين ،  
وأمام ما بذلوا من جهود واصلوا بها السير في قافلة الحضارة دخلت  
الدولة في عصر زاهر ، واتسعت فتوحاتها في أيامهم شرقاً حتى  
وصلت الصين وغرباً حتى بلغت المحيط والأندلس . ولقد قيل بحق  
إن الخلفاء الراشدين جعلوا من الإسلام ديناً كما جعل الأمويون  
منه امبراطورية . وانتقلت الخلافة من المدينة إلى دمشق ، وزاد  
اتصالهم بالمدينت المصرية والفارسية واليونانية فازدهرت الحضارة  
العربية وعمت الشرق أجمع ، ثم امتدت إلى أوروبا فبزتها وحفزتها  
إلى التقدم حتى وصلت بها إلى عصر الإصلاح .

كان العربي معتداً بأصله ، فخوراً بمحتده ، لا يحترف من المهن  
ولا يزاول من الأعمال إلا ما اعتبره موضع الاحترام والنبيل .  
ولما كانت صناعة الموسيقى من الفنون التي لم تبلغ في أنظار العرب  
هذا المرتقى ، زهدوا في احترافها فتركوها لقيانهم ومواليهم . لذلك

كان احترام الغناء في العصر الجاهلي مقصوراً على طبقة القيان من المطربات . وظل الأمر كذلك حتى صدر الإسلام حيث أخذ الغلمان يتعاطون الغناء ويحترفونه . وكان المغنون من الرجال في ذلك العصر يتشبهون بالنساء في كثير من عاداتهن وأطوارهن . وأول من اشتهر من المغنين من هؤلاء « طويس » ويعزى إليه أنه أول من غنى بالعربية غناء يدخل في الإيقاع . وكان لا يضرب بالعود ، وإنما كان ينقر بالدف ، ويسمى بالمربع لتربيعة في الشكل ، وفي ذلك ما يدل على أن غناؤه كان محدود الصناعة . وقد تعلم الغناء من سماعه لأسرى الفرس وهم يشتغلون في المدينة . ومات في خلافة الوليد بن عبد الملك . وأشهر من عرف من معاصريه « الدلال » و « هيت أو هتب » . وهذه الطبقة من المغنين اشتهر أصحابها باسم « المخنثين » ، وكانت حلقة انتقال بين المدرستين القديمة والحديثة .

كان الروح العربي الموسيقي روحاً فنياً رياضياً غير متمصب ولا جامد ، فما كاد ينبثق فجر الدولة الأموية ، ويزداد اتصالها بالمدينتان المصرية والفارسية واليونانية حتى تشرب الروح العربي تلك المدينتان ونقل غناهما إلى غناء العرب وآلاتها إلى آلات العرب . وكان للموسيقى في الدولة الأموية حظ العلوم والفنون الأخرى فازدهرت وأينعت وظهر من مشهورى المغنين والمغنيات من يجدر بنا ان نطلق عليهم وعلى فئهم المدرسة الحديثة .

ويعتبر سائب خاثر نواة النهضة الموسيقية في البلاد العربية ،  
وأول من نقل الغناء الفارسي وأسبغ عليه الطابع العربي وعرف  
بعد ذلك بالغناء « المتقن » . وهذا النوع المستحدث يقابل غناء  
« الركبان » الذي يمثل روح العصر الجاهلي وطابع البادية . ولقد  
كان من عادة المغنين من العرب حتى ذلك الوقت أن يستعملوا في  
غنائهم القضيبي ، وكان سائب خاثر يستعمله كذلك ، إلى أن رأى  
نشيظاً الفارسي يستعمل في غنائه العود فاستعمله هو أيضاً في أغانيه  
فكان أول من غنى في المدينة مستعملاً العود . ونبغ ممن أخذ الغناء  
عن سائب خاثر أربعة غدوا أعلام الغناء وهم : عزة الميلاء وجميلة  
زعيمتا النهضة الموسيقية العربية ، وابن سريج ومعبد .

وكان ابن مسجح — وهو أحد فحول المغنين في العصر  
الأموي — أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة في  
حدثه ، وقد اتقن محاسن النغمات فحذقها وأصبح له في الغناء  
مذهب خاص وطريقة تبعها الناس بعده . وقد أخذ عنه ابن محرز  
ومعبد وابن سريج والغريص .

✧ وإنما لى الموسيقيين يرتفع مقامهم شيئاً فشيئاً ويصبحون  
موضع الاحترام والتقدير ، ويسلكون نهجهم رويداً حتى يصلوا  
إلى قصور الخلفاء ، وينالوا الحظوة عندهم ، فلا تكاد تذكر خلافة  
بنى أمية في أول عهدهم بالحكم حتى ترى الخليفة عبد الملك بن مروان

يشجع أهل هذه الصناعة ، بل تراه هو نفسه موسيقياً وملحناً ،  
عارفاً بأنواع الغناء ، يسأل ابن مسجح وهو في حضرته هل يغنى  
غناء « الركبان » وهل يغنى الغناء « المتقن » ؟

وكان سليمان بن عبد الملك يجرى المسابقات بين المغنين ،  
ويجزل لهم العطاء . وبلغ من تقدير يزيد بن عبد الملك للموسيقى  
أنه ما كاد يتولى الخلافة حتى اشترى حيازة المغنية بأربعة آلاف  
دينار ، وظلت موضع إكرامه حتى وفاتها .

ورأينا الوليد بن يزيد يعظم الرعاية للموسيقى وأهلها ، وقد  
بلغ من إكرامه لمعبد أنه عندما مرض تولى أمره ، وآواه في  
قصره ، فلما مات شيع الجثة بنفسه ومشى في جنازته من قصره  
إلى موضع القبر . بل كان الوليد كذلك عالماً بصناعة تأليف  
الألحان ، وله فيها أصوات مشهورة ، كما كان يضرب بالعود  
ويوقع بالطبل والدف .

ولم تقتصر معاضدة أهل هذه الصناعة على الخلفاء ، بل سرت  
إلى الأشراف والنبلاء والسراة . وقد كان لمعبد الله بن جعفر مجالس  
طرب عظيمة يدعو إليها مشهورى المغنين ، وكان سائب خاثر  
ونشيط منقطعين إليه . كما كانت السيدة سكينه بنت الحسين رضى  
الله عنهما ترتاح إلى سماع الموسيقى ، وكان الفريض المعنى  
المشهور فى خدمتها ، منقطعا لها ، منشداً مرثى أهل البيت وناثراً

عليهم . وكانت عندما يجتمع عندها المغنون تأذن للناس في دخول  
بيتها إذنا عاما (١) .  
ولقد وضح من أنباء المغنين والمغنيات اطراد ظهور أثر  
الموسيقى الفارسية في موسيقى العرب ، حتى دخل في اللغة العربية  
كثير من الألفاظ الفارسية مما كان دليلا على عظم هذا الأثر ،  
من ذلك أن أطلق على العود اسم « البربط » ومعناه صدر البط ،  
و « الدستان » على موضع عفق الإصبع على الوتر . بل سمي وتران  
من الأوتار الأربعة المركبة على العود باسمين فارسيين ، فأطلق  
على الأسفل « الزير » وعلى الأعلى « البم » بينما احتفظ للوترين  
المتوسطين باسميهما العربيين القديمين « المثني والمثلث » إلى غير ذلك  
من الأمثلة الكثيرة .

كذلك تأثرت الموسيقى العربية بنظريات الموسيقى اليونانية  
تأثيراً كبيراً . وكثيراً ما كان يرد ذكر علماء هذا الفن من اليونان  
في مصنفات العرب وكتبهم ، حيث ينوهون عنهم بالأقدمين .  
غير أنه مما يجب الإقرار به أن فلاسفة العرب ومغنيهم وإن  
أخذوا العلوم الموسيقية وفنونها عن اليونان والفرس ومصر فقد  
احتفظوا فيها إلى حد كبير بطابعهم العربي الذي ميز موسيقاهم  
وجعل لها صبغة خاصة .

---

(١) أنظر ترجمة حنين الحيرى في هذا الكتاب .

وما يذكر بالفخر لذلك العصر أنه بدى فيه بوضع أول  
تصانيف عربية في أخبار الموسيقى والغناء فقد وضع يونس الكاتب  
« كتاب النغم » و « كتاب القيان » فكانا نواة لما صنف بعد ذلك  
في هذا الباب ومرجعاً لكتاب الأغاني الكبير الذي وضعه  
أبو الفرج الأصفهاني فيما بعد .

## عصر الدولة العباسية

( ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م — ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م )

جاء العصر العباسي فدخلت الموسيقى في عصرها الذهبي ،  
وخطت خطوات سريعة نحو الكمال حتى بلغت أوج مجدها ، وذروة  
علاها ، وزادت المقامات وطرائق الإيقاع حتى تعددت في اللحن  
الواحد ، وكثرت الآلات وتنوعت ، وشاع استعمالها حتى عزفت  
مائة قينة معاً ، وسما قدر أهل الموسيقى حتى اتخذ الخليفة منهم  
نديما له وجليسا .

ولما بنى المنصور مدينة بغداد أصبحت موطن الخلافة ،  
ومركز الشرق ، ومدينة الثراء ، وموطن الفنون والعلوم ، وفي  
مقدمتها الموسيقى .

كذلك وإلى الخلفاء عنايتهم بهذا الفن . وكان المهدي بن المنصور  
ذا صوت حسن ، شغوفا بالموسيقى ، مولعا بالغناء . فقد روى أنه  
كان أحسن الناس صوتاً ، يؤم قصره أعلام الموسيقى وكبار المغنين .  
ولقد بدت في العصر العباسي ظاهرة جديدة فلم يعد العرب  
ينظرون إلى الموسيقى بشطر العين ، أو يتأبون احترافها . بل إن

من أبناء أشرافهم من دخل في زمرة أهل هذه الصناعة . فمن  
أساطينها ابن جامع الذي يتصل نسبه بقريش . بل لقد زاول هذه  
الصناعة بعض أمراءهم كإبراهيم بن المهدي .

كذلك كان الخليفة الواثق موسيقياً من كبار الموسيقيين ،  
ومن أعلم الخلفاء بالغناء ، بلغت صنعته فيه مائة صوت ( لحن ) .  
وروى أنه كان أحذق من غنى وضرب على العود . وكان كثير  
التقدير للموسيقى وأهلها . وإن قوله في إسحق الموصلي لدليل على  
ما يمكنه خلفاء هذا العصر من احترام هذه الصناعة وأهلها ، إذ قال :  
« ما غناني إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لي في ملكي . . . . وإن  
إسحق لنعمة من نعم الملك التي لم يحظ بمثلا . ولو أن العمر والشباب  
والنشاط مما يشتري لا شترتهن له بشطر ملكي » .

ولقد أعطى الخليفة الهادي إبراهيم الموصلي مائة وخمسين ألف  
دينار في يوم واحد حتى قال : « لو عاش الهادي لبنيينا حيطان  
دورنا بالذهب والفضة » .

وإنك إذ ترى هذه العناية من خلفاء بني العباس بالموسيقى  
وأهلها ، وعناية خلفاء بني أمية بها كإكرام يزيد بن عبد الملك  
لحبابة ، وتمريض الخليفة الوليد بن يزيد لمعبد في قصره وتشجيع  
جنازته هو والعمر أخوه . . . تلمس في ذلك كله عناية الخلفاء بهذا  
الفن ، وإكبار أهله وتعظيمهم . بل إن ذلك لأكبر دليل على سمو  
المدنية العربية ، إذ الموسيقى دائماً مقياس المدنيات .



ولقد يضطر الإنسان إذ يعرض أمثال هذه الحوادث ، شاء  
أو لم يشأ ، إلى أن يوازن بينها وبين أحوال أبطال الموسيقى في  
أوروبا حتى أول القرن التاسع عشر ، أي بعد التاريخ الذي نحن  
بصدده بنيف وألف عام .

كان موسيقيو ذلك العصر ذوى متربة مكدودين يفعل بهم  
البؤس أفاعيله . وهذا « موتسارت » وهو أكبر عبقرية موسيقية  
عاشت في أوروبا في القرن الثامن عشر ، فإنه على الرغم مما بلغ من  
الشهرة وبعد الصيت ، وبعد أن رحل إلى إيطاليا ، ونالت ألحانه  
الإعجاب والتقدير حتى منح لقب المحبوب من الإله ، وبعد أن  
ظفر بمثل هذا التكريم من فرنسا وانجلترا ، ما كاد يعود إلى وطنه  
النمسا حتى استدعاه حاكم مدينة زالسبورج مسقط رأسه وضمه إلى  
قصره تجرى عليه معاملة خدمه ومهاتهم ، حتى لقد كان يؤاكلهم  
في مطبخ القصر . على أن الأيام لم تصف له بعد ذلك ، فعاش  
حياته فقيراً ، وقضى نحبه فقيراً لم تجد زوجته يوم موته ما تجهز به  
جنازته أو تشيع به جثته أو تشيد منه مقبرته فبقيت الجثة رهينة  
حتى قام القيصر بالإنقاذ فأمر بصرف ثلاثة آلاف جولدن .

ولم يكن « هايدن » قبله ولا « بيتهوفن » بعده أسعد منه حظاً  
أو أكثر وفراً .

ولقد أسست في العصر العباسي أول جامعة عربية لدراسة العلوم والفنون ، بناها المأمون في بغداد وأسماها « بيت الحكمة » . فاشتغل فيها فطاحل العلماء ومنهم يحيى بن منصور وبنو موسى وغيرهم بترجمة علوم اليونان التي كان من بينها العلوم الموسيقية . ونسج الخلفاء بعده على منواله فشجعوا الفلاسفة والعلماء لاستقراء كنوز العلوم اليونانية والوقوف على أسرارها وترجمتها . وقد ظهر أثر ذلك جليا في المؤلفات الموسيقية للكندي والفارابي وابن سينا كما سنذكره بعد .

ومما يسجل لهذا العصر بالفخر أنه ظهرت فيه عناية خاصة بإثبات قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها . فكان الخليل بن أحمد أول من عنى بهذه الناحية من التأليف بعد يونس الكاتب الأموي الذي سبقت الإشارة إليه فوضع « كتاب النغم » و« كتاب الإيقاع » فكانا بحق أول مؤلفات علمية في الدولة العباسية . واستكمل إسحاق الموصلي هذه المؤلفات . ثم جاء بعدهما من بزهما في هذا النوع من التأليف ، وهو إسحاق بن يعقوب الكندي فكتب ما يربى على سبعة مؤلفات في العلوم الموسيقية ونظرياتها . وجاء بعده أبو نصر محمد الفارابي فكان من أكبر فلاسفة العرب دراية بعلوم اليونان ، وكان موسيقيا ضليعا يجيد العزف بالعود . وقد وضع كثير من الكتب في هذا الفن

أشهرها « كتاب الموسيقى الكبير » وفيه أوضح الفارابي أسرار  
الموسيقى العربية وقواعدها بما تدين له العصور المتعاقبة .  
ومن أساطين من اشتهروا من الموسيقيين في ذلك العصر  
« حكم الوادي » و « ابراهيم الموصلي » و « زلزل » و « فليح بن  
أبي العوراء » و « مخارق » . ومن المغنيات « بذل » و « دنانير »  
و « متيم الهشامية » .

وقد نسب بعض علماء الموسيقى إلى العرب إهمالهم تدوين  
ألحانهم مستندين في ذلك إلى عدم ذكر شيء عن ذلك في كتاب  
الأغاني الكبير . غير أن هذا مخالف للواقع ، فإن دقة الكندي  
في تدوين الموسيقى بالحروف في كتابه « رسالة في خبر تأليف  
الألحان » ، وما أورده صفي الدين عبدالمؤمن الأرموي من طرائق  
التدوين في كتابيه الشرفية والأدوار لأكبر دليل على عناية كتاب  
العرب وعلمائهم بهذه الناحية وأسبقيتهم لمعاصريهم . بل إن كتاب  
الأغاني نفسه الذي يتهم بهذا ويتخذ الإهمال فيه حجة عليه ليورد  
في أطوائه ويبين في ثنايا أجزائه ما يدحض كل حجة ويبتل  
كل تزيف .

وفي ذلك العصر الذهبي اختيرت مائة الصوت المختارة ، فقد  
كف هارون الرشيد ابراهيم الموصلي واسماعيل بن جامع وفليح  
ابن أبي العوراء أن يختاروا له من ألحان العرب كلها مائة صوت

ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها ، ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من  
العشرة ، فكانت تلك الأصوات الثلاثة لحناً لمعبد من خفيف الثقيل  
الأول ، ولحناً لابن سريج من الثقيل الثاني ، ولحناً لابن محرز من  
الثقيل الثاني .

ولقد تأثرت الموسيقى العربية في العصر العباسي بالموسيقى  
الفارسية تأثراً بالغ الغاية ، ودخل عليها الكثير من أسمائها  
واصطلاحاتها . ولم يكن ذلك في الواقع مقصوراً على الموسيقى  
وحدها ، بل شمل كثيراً من العلوم والفنون .

# عصر الأندلس

(١٣٨ هـ / ٧٥٦ م - ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م)

انبثق فجر المدينة في بلاد الأندلس عندما فتحها بنو أمية ،  
وسطر العرب لها على صفحات التاريخ آيات مجد ظلت مضرب  
الأمثال ، وتوجت رأس العلوم والفنون بأخضر تيجان الرقي .  
وظلت عندئذ تفيض بنورها على أوروبا التي لم تكن بعد قد أفادت  
من سباتها العميق ، فكانت قرطبة حاضرة الأندلس موطناً  
لأساطين العلماء ، كما كانت إشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر  
وصناعة الآلات الموسيقية .

قال ابن خلدون « حينما كان يموت عالم في إشبيلية ويراد أن  
تباع كتبه بشمن عظيم ترسل إلى قرطبة ، وإن مات موسيقياً  
في عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته إلى  
إشبيلية التي نمت فيها الموسيقى وولع بها أهلها أشد الولع » .  
وكان اهتمام خلفاء الأندلس بالثقافة عظيماً ، وكلفهم بالعلوم  
شديداً ، حتى أن الحكم الثاني جمع في عهد خلافته من البلاد العربية  
ما يربى على أربعمائة ألف مجلد . ولقد كانت الموسيقى في طليعة هذه

العلوم والفنون التي عنى بها خلفاء الأندلس ، فارتقت وذاع  
انتشارها ، حتى أنها لم تعد مقصورة على فئة خاصة ، بل غدت ثقافة  
عامة يشترك فيها جميع طبقات الشعب .

ونقل العرب إلى الأندلس كل ما سبق لهم معرفته من الآلات  
الموسيقية ، ثم أفتنوا فيها ، وزادوا عليها ، فأصبح لديهم منها عدد  
جهم ، إذ استعملت الأندلس من الآلات الوترية : العود القديم  
ذا الأوتار الأربعة ، والعود الكامل ذا الأوتار الخمسة ، والشهرود  
وهو نوع من العود ، والطنبور ، والقيثارة ، والمزهر ، والكمنارة ،  
والقانون ، والنزهة ، والرباب ، والكمنجة ، والشقرة  
(أو المشقر) . ومن آلات النفخ : المزمار ، والسرنا (أو السرناي) ،  
والناي ، والشبابة ، واليراع ، والزمار ، والقصب ، والموصول ،  
والصفارة . ومن الآلات النحاسية : البوق ، والنفير . ومن آلات  
التمر : الدفوف ، والغربال ، والبندير ، والصنوج ، والكاسات ،  
والمصفقات ، والقضيب ، والنقارة ، والقصب ، والطبل .

ولم يكن افتنان العرب في الأندلس مقصوراً في الموسيقى على  
آلاتها بل اقتنوا في التأليف الموسيقى وأنواعه ، وسايروا بها  
ارتقاءهم في مدارج المدنية فاستحدثوا الجديد فيها . من ذلك  
« النوبة » وهي أهم أنواع الموسيقى والغناء في الأندلس ، وكانت  
تؤلف أولاً من أربع قطع لكل منها اسم خاص ثم صارت فيما بعد  
خمساً . كذلك ابتدعوا الزجل والموشحات .

وليس عندنا من ريب في أن الموسيقى هي ينبوع الصافي  
الذي انبثقت منه تلك الألوان الحديثة من التأليف الشعري التي  
كانت في طبيعتها وفي أشهرها الموشحات . فإنه ما كادت الموسيقى  
تمد رواقها وتوسع نطاقها في تلك البلاد الخضراء حتى احتاج الناس  
إلى أوزان تعبر تعبيراً جديداً عما تنشده الموسيقى... أوزان يتحال  
فيها الفنان من تلك البحور المعدودة والقوافي الضيقة المحدودة التي  
درج عليها الشعر وشب وترعرع وظل قروناً وأحقاباً لا يتغير  
إلا من حيث الفكرة أو الأسلوب ، وبقي مغلولاً في تلك الأصفاد  
من الأوزان والقوافي .

ولعل الفضل في هذا التجديد والابتكار راجع إلى طموح  
الأعلام العباقرة من الموسيقيين أمثال زرياب ، فقد تطلب منهم  
الوثاب فضاء واسعاً من الحرية ومجالاً فسيحاً من التقدم المطرد .  
ومجازاة ذلك كانت تستدعي بطبيعتها أن تخلق ضرباً جديدة من  
الفن الشعري التي في مقدمتها هذه الموشحات . ودليلنا على ذلك  
أن الوشاحين إنما كانوا يعتمدون اللحن والموسيقى ويقصدون  
إلى الغناء والطرب ، فلم يتركوا أبواب الشعر وموضوعاته الأخرى  
كما صنعوا في القصيد من مدح وثناء وهجاء وحكم إلى غير ذلك .  
كما أنهم لم يتوسعوا ولم يطيلوا فيه ، وإنما نظموا هذه الموشحات  
فيما يلائم الموسيقى والغناء فكانت في الأعم الأغلب تهدف إلى

العاطفة وتسكن إلى الطبيعة وتجنح إلى رقة الألفاظ وقصر الفقرات  
وجمال التصوير . ولهذا فهي من ناحية أخرى لا تتحدد بأبجر  
الشعر المعروفة في علمي العروض والقافية بل هي تخضع لمطلب  
الموسيقى ، ولكل وشاح طريقته ولكل بيئة ذوقها .

وكان من أقدم السابقين إلى ابتداع هذا الفن في الأندلس  
مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبد الله المرواني ، ثم تبعه أحمد  
ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ثم عبادة القزاز شاعر المعتصم  
صاحب المرية من ملوك الطوائف ، وكذلك الأعمى الطليطلي  
والطبيب ابن باجة الذي تنسب إليه ألحان كثيرة اشتهرت في  
أغاني الأندلس .

ومن أمثلة الموشحات التي حازت قصب السبق وسأيرت  
العصور في تصوير جمال الأندلس قول عبادة القزاز في موشحة  
تعتبر أقدم ما يتغنى به اليوم :

بدر تم \* شمس ضحا \* غصن نقا \* مسك شم  
ما أتم \* ما أوضحا \* ما أورقا \* ما أنم  
لاجرم \* من لحا \* قد عشقا \* قد حرم

وكذلك قول الأعمى الطليطلي :

ضاحك عن جمان \* سافر عن در  
ضاق عنه الزمان \* وحواه صدرى



وقول أبي الحسن سهل بن مالك :

كل الدجى يجرى \* من مقلة الفجر \* على الصباح  
ومعصم النهر \* فى حلل خضر \* من البطاح  
وانتقلت هذه الأنواع إلى بلاد المغرب فى شمال إفريقيا وإلى  
مصر فبلاد العرب . وأخذ الأبناء يتناقلونها عن الآباء . ومن أول  
المحسنين فى هذا الفن من المشاركة ابن سناء الملك ، وله الموشحة  
المشهورة التى لا يزال يتغنى بها إلى اليوم :

كللى ياسحب تيجان الربا بالحللى واجعلى سوارها منعطف الجدول

ومن أهم من اشتهر من الموسيقيين فى الأندلس زرياب وابن  
باجة وعبدالوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب وولادة بنت  
الخليفة المستكنى وهند جارية أبى محمد عبدالله بن مسلمة الشاطبى  
وقد كتب إليها أبو عامر بن نبق يدعوها للحضور عنده بعودها :  
يا هند هل لك فى زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل  
سمعوا البلابل قد شدوا فتذكروا نغمت عودك فى الثقيل الأول  
فكسبت إليه فى ظهر رقعته :

ياسيداً حاز العلا عن سادة شم الأنوف من الطراز الأول  
حسبى من الإسراع نحوك أنى كنت الجواب مع الرسول المقبل  
ولقد ظلت الأندلس زهرة أوربا اليانعة طوال خمسة قرون  
تنشر عليها أريجها من كل علم وفن . وأرسلت أوربا إلى جامعاتها

بالبعوث لارتشاف العلوم العربية ودراستها على أمة العرب  
وأساطين علمائها . وكان أكثر الكتب ذيوغاً في الدراسة كتب  
الفارابي وابن سينا وابن رشد التي ترجمت جميعها إلى اللاتينية ،  
وانتشرت في جميع بلاد أوربا ، كما ترجم غيرها من كتب العرب .  
كذلك نقلت أوربا عن العرب كثيراً من مؤلفات اليونان  
الأقدمين التي ترجمت إلى العربية .

وكانت الموسيقى أولى هذه العلوم والفنون التي وفدت  
البعوث لدراستها وترجمة كتبها فيما بعد . ومن اشتهروا من أعضاء  
البعوث إلى بلاد الإسلام وصاروا أعلاماً في أوربا بعد عودتهم  
إليها : جربرت وهرمان كنتراكت وجين الإشبيلي وقسطندي  
الإفريقي وقد تعلم في تونس ومصر وبغداد . وقد نقل هؤلاء  
وزملاؤهم الكثير من كتب العرب في الموسيقى كمؤلفات الكندي  
وثابت بن قرّة وزكريا الرازي والفارابي وإخوان الصفا وابن  
سينا وابن باجة .

وبعد سقوط الأندلس ظل ملوكها المسيحيون محتفظين في  
قصورهم بالموسيقين من العرب ، وإنما لنجد في أوائل القرن الرابع  
عشر أن هؤلاء الملوك قد ملأهم الشغف باستدعاء الموسيقين من  
العرب إليهم كما كانوا يدعونهم هم والراقصات في أعيادهم وأفراحهم  
حتى أن بعض شعراء الأسيان كتب الكثير من الأغاني العربية

لهؤلاء الموسيقيين والراقصات العربيات . كما انتشرت في بقية ممالك  
أوروبا ولا سيما البلاد الجنوبية منها آلات الموسيقى العربية ،  
وكثير من هذه الآلات قد انتقل إليها بأسمائه التي تم في اشتقاقها  
عن أصل عربي كالعود (١) والقيثارة والنقارة والرباب  
والطنبور . ومعلوم أن الآلات الموسيقية ، لا تنتقل إلا ومعها  
موسيقاها . وهذا هو الواقع فإن أوروبا ظلت تحت غزو  
الموسيقى العربية وآلاتها وفنونها وعلومها عدة قرون طويلة  
حتى بعد عصر الإصلاح . بل لقد ظل استعمال العود منتشر آ فيها  
حتى القرن السابع عشر حيث قضى عليه ذبوع آلة البيان لمناسبتها  
للموسيقى الأوربية الحديثة بعد ما تطور فيها علم الانسجام الصوتي  
( الهارموني ) وصار علما على تلك الموسيقى . كذلك ظلت أوروبا  
حتى القرن الثامن عشر تستعمل التدوين الآلى على شكل جدولي  
( تابلاتور ) يبين مواضع عقق الأصابع على الأوتار وكيفية  
العزف . وقد أخذت هذا النوع من التدوين عن العرب .

(١) وحسبنا أن نسجل هنا أسماء العود في اللغات الأوربية الآتية وظاهر فيها  
جميعاً اشتقاقها من اللفظ العربي :

الانجليزية Lute ، الهولندية Luit ، الدانماركية Lut ، السويدية Luta  
الفرنسية Luth ، الإيطالية Liuto ، الإسبانية Laud ، البرتغالية Alaude  
الألمانية Laute ، الروسية Ljutnja ، البولونية Lutnia ، الفنلندية  
Luutu ، الصربية Lutnja ، المجرية Lant .

أما شمال إفريقية فقد بقيت بلاده قطعة من الدولة العربية منذ  
ابتداء الدولة الأموية ، فتعاقبت عليها عصور تلك الحضارات  
الزاهرة ، وحين اضمحلت الأندلس وسقطت إشبيلية في منتصف  
القرن الثالث عشر هاجر من الأندلس ما يقرب من نصف مايون  
من أهلها إلى شمال إفريقية وأقاموا بها ، ونقلوا إليها من كنوز  
الموسيقى ما كان في الأندلس . وغدت تلك البلاد ولا سيما تونس  
وارثة هذه الفنون . وإننا لنراها حتى اليوم محتفظة بالكثير من  
هذا الفن الأندلسي ، كالإيقاعات المختلفة والنوبات الكثيرة التي  
لا تزال متوافرة لدى أهلها يحتفظون بها تراثاً نفسياً يتوارثه الأبناء  
عن الآباء ويتناقله الخلف عن السلف ، مما لا وجود له البتة في بقية  
البلاد الإسلامية الأخرى .

القِسْمُ الثَّانِي

لِللَّهِ

أما قبل أن يشهد الله على من أقره من القوة التي كانت  
تلك القوة الأخرى، فكانت فيها قوة تلك الحضارة  
التي كانت، ونحن نرى في هذا الكتاب من تصنيف  
القرن الثالث عشر **كتاب مختار من كتاب**  
من أهل الأندلس الذين كانوا في الأندلس وكانوا إليها من كبر  
الموسيقى ما كان في الأندلس، وعرفت تلك البلاد ولا سيما تونس  
وأرض مصر القنطرة، وإنما لم يبق من اليوم حصة بالكثير من  
هذا فن الأندلس، كما لا يبق من الحفلة والترويات الكثيرة التي  
لا تزال موجودة في أممنا بمقتضى ما قرأنا فيها وتوارث الأبناء  
من الآباء، فبما أن المؤلف من السلف بما لا يوجد في  
البلاد الأخرى **كتاب مختار**

الأعداد عشرين ألفاً

وثنى ألفين

من ابتداء ظهور الإسلام إلى سنة ١٣٢٥ / ١٧٥٠ م

کتابخانه ملی افغانستان

کتابخانه ملی افغانستان

۱۰۵۷۹ / ۲۶۱۵ / کتابخانه ملی افغانستان



## سائب خاثر

كان عبد الله بن جعفر حمي المغنين ورائدهم ، ومنتجع الموسيقيين وملاذهم . وكانت حياة سائب خاثر قبل أن تتصل جبالها به حياة لا تسترعى الأنظار ، فهو مولى ولد في فيء كسرى وكان ولاؤه لبني ليث فاشتراه أو اشترى ولاءه عبد الله بن جعفر . وأى الأمرين قد حدث فإنه لا يعيننا إلا بقدر ما نعلم أن اتصال هذا الفنان بهذا السرى الغنى المحمى الجنب كان اتصالا كتب لفنه البداية والحماية والخلود .

ولم يكن سائب محترفا للموسيقى في بداية أمره إنما كان تاجراً في القمح غالباً يبيعه بالمدينة ويشتره . وقد ربح وسعد . ثم كانت مدرسته الغنائية بعد ذلك تبدأ في بيئة النائحات حيث يكاد الجو يخلو من المغنين . فلم يكن من سبيل أمام أبي جعفر سائب خاثر إلا أن ينهل من أقرب المناهل إليه . وهذا هو الذي صبغ غناؤه بذلك اللون الحزين كلما شدا بأغنية فيما بعد . وكان سائب بطبيعته ذا صوت عريض يملأ أجواز الفضاء حوله ، وكان نقياً مشبعاً بالحنان وقوة التأثير بطبيعة نشأته الأولى .

وكانت نفس سائب عالية المنزع تطمح إلى السمو . ولم يكن  
يلقى بفسنه لقمة سائغة ليد تتلقفها أو أذن تتقبلها ، بل كان حريصاً  
على ألا يغنى إلا لمن هو في طبقة مولاه عبد الله بن جعفر من  
خليفة أو أمير .

ومع أن خلافة معاوية كانت لا تزال قريبة العهد بالتشدد في  
أمر الترفيه والطرب فقد استمع هذا الخليفة إلى سائب عدة مرات ،  
وهو في كل مرة يتملؤه طرباً فيملؤه ذهباً .

قال ابن الكلبي : « إن معاوية بن أبي سفيان أشرف ليلاً على  
منزل يزيد ابنه فسمع صوتاً أعجبه واستخفه السماع فاستمع قائماً  
حتى مل ، ثم دعا بكرسى فجلس عليه . واشتهى الاستزادة فاستمع  
بقية ليلته . فلما أصبح قصد إليه يزيد فقال له : يا بني من كان في  
مجلسك البارحة ؟ قال : أي جليس يا أمير المؤمنين ؟ وقد حاول  
الإنكار تهيباً من والده . قال : عرفني فإنه لم يخف عليّ شيء من  
أمرك . قال : سائب خاثر . قال : فأختر<sup>(١)</sup> له من برّك وصلتك  
فما رأيت بمجالسته بأساً . »

ولقد استمع إليه معاوية مرة أخرى في المدينة وهو يتغنى :  
لنا الجففات الغريلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدة دما  
فطرب وأصغى إليه حتى سكت وهو مستحسن لذلك .

(١) أي أكثر .

وكان قبل ذلك قد وفد به عبد الله بن جعفر على معاوية ،  
فعرض عليه حاجة لسائب . فقال معاوية : من سائب خاثر ؟ قال :  
رجل من أهل المدينة ليثي يروى الشعر . قال : أوكل من روى  
الشعر أراد أن نصله ؟ قال : إنه حسنه . قال : وإن حسنه . قال :  
أفأدخله إليك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . فألبسه مخصرتين إزاراً  
ورداء . فلما دخل قام على الباب ثم رفع صوته يغني : لمن الديار  
رسومها قفر . فالتفت معاوية إلى عبد الله بن جعفر فقال : أشهد  
لقد حسنه . وقضى حوائجه .

وسائب خاثر مغن وملحن ، يعترف له الجميع بطول الباع  
وبالنبوغ في الغناء واللحن . وهنا يحدثنا صاحب الأغانى « أن معبدأ  
أخذ عنه غناء كثيراً فنحل الناس بعضه إليه ، وأهل العلم بالغناء  
يعرفون ذلك » .

ولا نغلو إذا قلنا إن سائب مغن حزين النفس . ولعل انتقاءه  
لهذه القصيدة المنسوبة للخزومي والتي مطلعها :

لمن الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر  
وخلالها من بعد ساكنها حجج مضين ثمان أو عشر  
والزعفران على ترائبها شرف به اللبات والنحر  
ولقصائد أخرى تنتهى بك إلى هذا اللون من الغناء واللحن  
المشوب بالحزن والألم ، ما ينهض دليلاً على مقدار تأثره بفن النائحات  
وما تركه من ألم في نفسه وجميعه في حسه .

على أن بيئة النائحات لم تكن هي التي سيطرت على كل حياة  
سائب خاثر الفنية ، بل كانت له مدرسة أهم شأنًا وأخلد أثرًا ،  
ولعلها هي التي أحلته هذه المكانة من تاريخ الغناء العربي . بل لعلها  
هي التي جعلته أول معلم مجدد مبتكر في هذا الغناء .

ورد على المدينة نشيط الفارسي يحمل معه غناء بلاده  
بمصاحبة العزف على العود . ولما استمع إليه سائب — وكان من  
أصل فارسي كذلك — انفسح أمامه مجال جديد ، ورأى في موهبته  
القدرة على أن يكون هو الوسيط للموسيقى والبريد المترجم الذي  
يستطيع أن يعقد الأخوة والتعارف بين اللوين من الموسيقى  
الفارسية في عراقها والعربية في نقاء فطرتها . فأخذ هذا الثوب  
الجديد من الألحان الفارسية وأجاد تفصيله وحيأ كته على مصاحبة  
العود الرنان بعد أن كان الغناء العربي إلى وقته مقصوراً على  
مصاحبة القضيب الأجرش . ومن ثم كان سائب خاثر هو أول  
من غنى في المدينة بشعر عربي غناء « متقن » الصنعة ، وأول من  
أدى ذلك بمصاحبة العود ، وأول من استعار فناً لفن وغناء لغناء ،  
وأول من قام بالتعليم وأصبح له بالمدينة من تلاميذه من تسنموا  
قمة المجد في الغناء العربي ، وفي مقدمتهم أعلامه الأربعة عزة الميلاء  
وابن سريج وجميلة ومعبد .

وقد استهدف سائب لنهاية محزنة لعله هو الذي انفرد بها دون  
أعلام الفن الآخرين . فقد كانت الفتنة في عهد يزيد بن معاوية ،  
على ما يعلم الناس من شرها المستطير ، وقد أقبل جيش يزيد على  
المدينة وأريق الدماء أنهاراً ، وكان طبيعياً لإخماد الثورة أن يظلم  
أناس وتزهق أرواح ، وشاءت الأقدار أن تطيح سيوف أهل  
الشام بأجمل مزمار في أحسن حنجرة ، في أول معلم مبتكر مجتهد  
هو سائب خاثر الذي كان الفن فيه هو الخاسر لو اسطة عقده في هذا  
العهد وفي وقعة الحرة عام ٦٤ هـ ( ٦٨٣ م ) .

## ابن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مسجح ، مولى بني جمح وقيل مولى بني مخزوم . أسود ولد بمكة . ومغن من فحول المغنين في صدر الدولة الأموية . سمع غناء الفرس وهم يبنون المسجد الحرام فنقله إلى شعر عربي . ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم ، ثم إلى بلاد فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم العزف بآلات مختلفة ، ثم عاد إلى الحجاز وقد أخذ محاسن النغم . واختار من السليين اليوناني والفارسي أجمل ما فيهما من أصوات وأهمل ما استقبحه من الثبرات الموجودة في غناء هذين الشعبين مما لم يتفق وذوقه العربي ولا مع طابع غنائه ، وبذلك أصبح له في الغناء مذهب خاص وطريقة جديدة اتبعها الناس بعده . وهو الذي علم ابن سريج والفريض ومعبد . وكان ابن مسجح فطناً ذكياً فأعجب به مولاه منذ حداثة سنه . وما يروى عنه أيضاً أن مولاه سمعه يوماً يتغنى بشعر ابن الرقاع العاملي :

ألم على طول عفا متقادماً      بين اللكيك وبين غيب الناعم  
لولا الحياء وأن رأسي قد عسا      فيه المشيب لزرت أم القاسم

فدعا به مولاه فقال له : يا بني أعد ما سمعته منك علي .  
فأعاده ، فإذا هو أحسن مما ابتداء به . ثم سأله : أنى لك هذا ؟  
فأجاب : سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية فتقفها وقلبتها في  
هذا الشعر . قال له : فأنت حر لوجه الله .

ودفع إليه مولاه بعبيد الله بن سريج وقال له : يا بني عليه  
واجتهد فيه . وكان ابن سريج أحسن الناس صوتا ، فتعلم منه ثم تفوق  
عليه حتى لم يعرف له نظير .

وقد قال اسحق بن ابراهيم الموصلي وقد عاش في أول القرن  
الثالث الهجري : « إن أول من غنى في مكة الغناء العربي كما يسمع  
حتى اليوم هو سعيد بن مسجح . » وهذا ما يؤكد أيضاً علي بن هشام  
أحد الموسيقيين المعاصرين لإسحق إذ يقول : « إن سعيداً  
ابن مسجح هذا هو أول من وضع الغناء العربي في جزيرة العرب  
الإسلامية وهو أول من نقل الغناء الفارسي إلى الغناء العربي » .

وحدث دحمان الأشقر قال : كنت عاملاً لعبد الملك بن مروان  
فنمى إليه أن رجلاً أسود يقال له سعيد بن مسجح أفسد فتیان قریش  
وأنفقوا عليه أموالهم فكتب إلي أن أقبض ماله وأسيره (١) ،  
ففعلت . فتوجه ابن مسجح إلى الشام ، فصحبه رجل له جوارٍ  
مغنيات في طريقه . فقال له : أين تريد ؟ فأخبره خبره ، وقال أريد

---

(١) أى يصادر ماله وينفيه .

الشام . قال له : فتكون معي . قال نعم . فصحبه حتى بلغا دمشق  
فدخلوا مسجدها ، فسألوا من أخص الناس بأمر المؤمنين ، فقالوا :  
هو لاء النفر من قریش وبنو عمه . فوقف ابن مسجح عليهم وسلم  
ثم قال : يا فتیان هل فيكم من يضيف رجلاً غريباً من أهل الحجاز ؟  
فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قينة يقال  
لها برق الأفق . فتشاقلوا به ، إلا فتى منهم قال أنا أضيفك . وقال  
لأصحابه انطلقوا أتم وأنا أذهب مع ضيفي . قالوا لا بل تجيء أنت  
وضيفك . فذهبوا جميعاً إلى بيت القينة . فلما أتوا بالغداء قال لهم  
سعید : إني رجل أسود ولعل فيكم من يقدرني فأنا أجلس وآكل  
ناحية ، وقام . فاستحيوا منه وبعثوا إليه بما أكل . فلما صاروا إلى  
الشراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا به . وأخرجوا جاريتين فجلستا  
على سرير قد وضع لهما فغستا إلى العشاء ثم دخلتا . وخرجت جارية  
حسنة الوجه والهيئة وهما معها فجلست على السرير وجلستا أسفل  
منها عن يمين السرير وشماله . فقال ابن مسجح متمثلاً بهذا البيت :  
فقلت أشمس أم مصايح بيعة بدت لك خلف السجف أم أنت حالم  
فغضبت الجارية وقالت : أ يضرب هذا الأسود لي الأمثال !!  
فنظروا إليه نظراً منكرآ ، ولم يزالوا يسكتونها . ثم غنت صوتاً  
فقال ابن مسجح : أحسنت والله . فغضب مولاهما وقال : أمثل  
هذا الأسود يتقدم على جاريتي !! فقال لي الرجل الذي أنزلني



عنده : قم فانصرف إلى منزلى فقد ثقلت على القوم . فذهبت  
أقوم ، فتذمم<sup>(١)</sup> القوم وقالوا لى : بل أقم وأحسن أدبك . فأقمت .  
وغنت الجارية فقالت : أخطأت والله يا فاجرة وأسأت . ثم اندفعت  
فغنيت الصوت ، فوثبت الجارية فقالت لمولاها : هذا والله  
أبو عثمان سعيد بن مسجح . فقلت أى والله أنا هو ، والله لا أقيم  
عندكم . فوثب القرشيون ، فقال أحدهم هذا يكون عندى ، وقال هذا  
بل عندى . فقلت والله لا أقيم إلا عند سيدكم<sup>(٢)</sup> . ثم سألوه عما  
اقترفه فأخبرهم الخبر ، فقال له صاحبه : إني أسمر الليلة مع أمير  
المؤمنين فهل تحسن أن تحذو ؟ قال لا ولكن استعمل حذاء .  
قال : منزلى يواجه دار أمير المؤمنين فإن وافقت منه طيب نفس  
أرسلت إليك . ومضى إلى عبد الملك فلما رآه طيب النفس أرسل  
إلى ابن مسجح . فأخرج هذا رأسه من وراء شرف القصر ثم حدا :  
إنك يامعاذ يابن الأفضل إن زلزل الأقدام لم تزلزل  
عن دين موسى والكتاب المنزل تقيم أصداق القرون الميئل  
للحق حتى ينتحوا للأعدل

فقال عبد الملك للقرشى : من هذا ؟ قال : رجل حجازى قدم  
على . قال أحضره . فأحضره له ، ثم سأله : هل تغنى غناء الركبان ؟

(١) تذمم فلان أى استنكف .

(٢) يعنى الرجل الذى أنزله منهم .

قال نعم . قال غنه ، فتغنى . فقال له : فهل تغنى الغناء المتقن ؟ قال نعم ، قال غنه ، فتغنى . فاهتز الخليفة طرباً ثم قال له : أقسم أن لك في القوم لاسماً كثيراً ، من أنت ويملك ؟ قال له : أنا المظلوم ، المقبوض ماله ، المسير عن وطنه ، سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى . فتبسم عبدالملك ثم قال له : قد وضع عذر فتيان قريش في أن ينفقوا عليك أموالهم . وأمنه ووصله ، وكتب إلى عامله برد ماله إليه وألا يعرض له بسوء .

وعاش سعيد بن مسجح حتى لقيه معبد وأخذ عنه في أيام الوليد بن عبدالملك ، وقد مات في حكم الوليد حوالى عام ٩٦هـ (٧١٥م)

\*\*\*

هذا هو الرجل الذى حرر فنه ، أو هذا هو الرجل الذى حرر الفن بعبقريته وموهبته . تحمل فى سبيل إشباع هوايته عبء النضال ومصادرة الأموال . واستغل كل شىء صادفه فروى غناء العمال ، واستطاع فى معاشرته تلك الطبقة من بناء الكعبة أن يضيف إلى الموسيقى العربية دماً جديداً ، مازال به حتى نماه وغذاه من كل ما حوت مدينة الروم ومدينة الفرس وما استطاع أن يصل إليه منهما . وحسب ذلك الأسود أن يبيض صحيفة الغناء العربى فى بداية إنشاء المدرسة الحديثة وتكوين الطبقة التى سيكون على رأسها

معبد ، ممن اتسعت لهم بعد ذلك رقعة الحياة وامتد عليهم ظل  
المدنية والتسامح .

إننا لنرى في ابن مسجح الشجاع المناضل عن فنه ، الذي حمل  
المشعل أمام القافلة فلفت إليه الأنظار ، وتبعه كل مطرب ومطربة .  
وقد رأينا في قصة حياته المفاجآت التي تدل على كرامة نفس وعزة  
قلب وإيمان بالفن . وحسبه ذلك قدراً ، وثروة من التاريخ ،  
ومثلاً أعلى للفنان الشجاع ، وللمغنى المضحى ، وللرقيق الذي حرر  
فنه فخره فنه .

## عِزَّة المِثْلَاء

كانت خلافة عثمان رضى الله عنه بداية عصر فى جديد اتسع فيه الأفق للحياة المتطلعة المستشرقة إلى نقل المدينيات وألوان الترف من الأمم المتاخمة على أثر ما نشأ عن الفتوح والانتصارات من تمازج وتزاوج ، واندماج وقعت فيه أنظار العرب على وجوه لم يألّفوها ومدن لم يعرفوها وفنون رقيقة اقتبسوها وجنوا أطايبها ، وأضفوا عليها من شخصيتهم العربية ما أسبغ عليها الكيان المستقل ذا الطابع الخاص المميز .

هكذا كانت خلافة عثمان فقد بدأ الناس يتجددون فى كل شىء . وهاهى المدينة تبتنى فيها الدور بل القصور الشاهقة . وهاهو العقيق وقباء وجوانب أحد تحفل بالعمائر والمباني الجديدة ، وتغرس فيها البساتين النضرة ، وقد امتلأت بالألوف من خدم وحشم وجوار وعبيد ... وإن تلك المناظر كلها لجديزة أن تفقد كل طلاء من الجمال والرونق مالم يتح لها فن يصور محاسنها ويترجم عن بهجتها وترفها . فما البساتين التى تخلو من طيورها الغردة إلا قيعان وقفار ، ولو كانت لبناتها من الفضة والنضار . فكان لا بد إذن

للطبيعة أن تستكمل زينتها وأن تأتي للمدينة برائحة المغنية وأن تعد لها تليذة بارعة وراوية فنية ومؤدية قادرة ومغنية حاكية بل وفنانة مبتكرة ، وتلك هي عزة الميلاء .

ولقد أتيح لأهل المدينة ، بل ولأهل الحجاز جميعاً أن يستقبلوا بطلتهم الجديدة ، فما كان أحوجهم إليها في أتون تلك الفتن المترامية التي كانت تموج بها تيارات سياسية متعارضة في المدينة والبصرة والكوفة ومكة واليمن ومصر ، مما بلبل الحياة العربية وهي في طليعة مجدها ، فكان هذا الغناء ترويحاً لتلك النفوس المتعبة المناضلة ، بل كان تحقيقاً لذلك الانسجام لتستكمل الدولة الجديدة حاجتها من الفن وسحر الغناء .

وإذا قيل عن العصر الأموي شيء عن الجمال والسحر فإن العصور لا تولد طفرة ولا تخلق دفعة ، وإنما تنشأ إنشاءً وتتطور غرساً ونماءً . وقد كانت بداية هذه الحضارة في مدن الحجاز ، لا في دمشق في عهد الأمويين ، ولا في بغداد في خلافة العباسيين ، ولا في الأندلس وغير الأندلس ، وإنما سطع هلالها الأول من أولئك الذين بدأوا يحملون راية الفن في عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

وأبي القدر إلا أن يكون على الجنس اللطيف حمل هذه الرسالة وأداؤها فهذه رائقة تتلوها عزة ويعقبهما جميلة وغيرها ، إلى عدد

كبير من مغنيات ربما اكتفى التاريخ بحفظ أسمائهن . وإلى أن انتقل  
الشأن إلى الرجال في قصور الخلفاء والأمراء والندوات العامة لم  
يزل هذا السرب التاريخي من المغنيات محتفظاً بالقيمة الأدبية لربات  
الخدور وجوارى القصور . وإن امتاز الرجال بعد ذلك بالصناعة  
والتأليف والتدوين ، ووضع القواعد والأصول فقد كان لتلك  
المغنيات الغردات فضل مشهود في الأداء الحلو والنغم الجذاب  
الذي يستهوى الأفتدة .

كانت عزة الميلاء مولاة لبعض بيوت الأنصار . وأطلق  
عليها لقب الميلاء لما كان يبدو في مشيتها من ميل واختيال . وقد  
زعم البعض أنها لقيت بذلك بسبب لبسها الملاء . والصواب أن  
الميل من الصفات المناسبة لأمثال عزة فقد عرف عنها أنها كانت  
من أجمل نساء عصرها وجهاً وأحسنهن قواماً .

وحدثوا عنها أنها كانت تعزف على جميع الآلات المعروفة  
في عهدها من وترية ونفخية ، وحذقت العزف بالعود . وكانت  
مطبوعة على الغناء الجميل ، تغنى الغناء القديم لمن سلفها من القيان  
أمثال سيرين وزرنب وخولة والرباب . وقد أتيح لها أن تأخذ  
الفن الفارسي عن نشيط وسائب خاثر في المدينة . وقد أنشأت على  
الخانها الفارسية صوغاً عربياً استولى على قلوب أهل المدينة وفتن  
ألباب رجالها وعواطف نساءها .

ولعلنا لم نكن نستطيع أن نقدم صورة صادقة لعزة حين تغنى  
وتعزف أبلغ من تلك الصورة العجيبة التي رسمتها كلمات الزبير حين  
يتحدث عنها فيقول : « إنه وجد مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا  
عزة الميلاء قالوا لله درها ما أحسن غناءها ، وأمد صوتها ،  
وأندى حلقها ، وأحسن ضربها بالمزاهر والمغازف وسائر الملاحى ،  
وأجمل وجهها ، وأظرف لسانها ، وأقرب مجلسها ، وأكرم خلقها ،  
وأسخى نفسها ، وأحسن مساعدتها » .

كانت عزة الميلاء مدرسة ذات طابع خاص ، يؤمها الفنانون  
ويقصد إليها المغنون ، ويقطعون بوادى شاسعة وأودية سحيقة ،  
ليجدوا فى فيها متعة هوايتهم ، ويتخرجوا على يدها وفى مدرستها  
أساتذة جديرين بأن يكونوا أعلام الفن وأبواقه المطربة فى أزهى  
عصر للدولة الأموية . وهؤلاء الأساتذة قد سجلوا فى اعترافهم  
بفضلها شهادة التاريخ لمدرستها .

فهذا ابن سريج ، أحد أركان الغناء وأعلامه فى العصر الأموى ،  
كان فى حداثة سنه يتجشم الأسفار من مكة إلى المدينة ليستمع  
إلى غناء عزة ، وينقل من فيها وموسيقاها . وما سئل عن عزة  
إلا كان جوابه تغريداً بمزاياها وإشادة بمكانتها . فإن قيل له من  
أحسن الناس غناء قال : « مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى  
و ضرب بالمغازف والعيذان من الرجال والنساء » .

وهذا ابن محرز في مثل مكانة ابن سريج وفي مقامه الفني ، كان يقضى ثلاثة أشهر بمكة حيث بيته وإقامته ، ثم يقضى مثلها بالمدينة ليتلقى الغناء من عزة . وكأنا قسم حياته قسمين أحدهما لفنه وهو بيته والآخر لمعاشه وأسرته . وناهيك بهذا فضلا ودليلا على ما كان لتلك الجارية البارعة من غزارة ومقدرة استحقا من ابن محرز أن يهبهما شطر حياته .

ولم تقتصر الاعترافات والوثائق على قيمتها الفنية بل امتدت إلى القيمة الخلقية ، وهي في نظرنا قيمة الفنان الحقيقية ، وكل فنان لا يستمد وجوده من خلقه فهو جدير بأن يفقد كيانه ومنزلته . وكانت عزة كما يروى التاريخ خليفة بأن تكون مغنية تنشأ في عصر الراشدين من الخلفاء ، وأن تتحلل في نفسها وفي فنها وفي خلقها بما هو لائق بقداسة هذا العصر ومنزلته الدينية الرفيعة .

وكان طويس المغني كثير التردد على منزل عزة دائم الاتصال بها خبيراً بصفاتهما وسجاياهما ، فلنستمع إليه يصف عزة فيقول : « هي سيدة من غنى من النساء ، مع جمال بارع ، وخلق فاضل ، وإسلام لا يشوبه دنس ، تأمر بالخير وهي من أهله ، وتتهى عن السوء وهي بجانبه له ، فناهيك ما كان أنباها وأنبل مجلسها ، وكانت إذا جلست جلوساً عاماً فكأن الطير على رموس أهل مجلسها ، من تكلم أو تحرك نقر رأسه » .



وقد أتيح لمحمد أن يشهدا فيشهدها ، فقد استمع إلى عزة يوماً  
عند جميلة ، وقد تقدمت بها السن ، وهي تغني على معزفة :  
عللاني وعللا صاحبياً واستقياني من المروق رياً  
فقال : « ماسمع السامعون بشيء أحسن من ذلك وإذا كان هذا  
غناؤها وقد سنت فكيف بها وهي شابة !! » .

أما تعبير الفطرة الفنية فيتجلى في شاعر القصص العاطفي في ذلك  
العصر عمر بن أبي ربيعة ، فقد سمعها يوماً تغني شيئاً من شعره فلم  
يتمالك صوابه وشق ثيابه ، وصاح صيحة سلبته رشده ووعيه ،  
فلما أفاق قال القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب . فقال : إني سمعت  
والله مالم أملك معه لا نفسي ولا عقلي .

وكذلك كان الإقرار بفضلها يتنوع التعبير عنه والإشادة به .  
وهذا حسان بن ثابت الأنصاري ، الشاعر المخضرم ، الذي لبث  
في الجاهلية والإسلام عمراً طويلاً ، وحلب الدهر أشطره ، ونادم  
ملوكاً وأمراء في الجاهلية ، وحضر أحداثاً ومواقف في الإسلام ،  
ومدح وأثنى ، وشبب وهجا في العصرين . . . هذا حسان يستمع  
إلى عزة وهي ما تزال فتية في كنف أستاذتها رائقة ، فما يكاد  
يسمعهما حتى يسكب الدمع الغزير ، ويذكر أيامه الخوالي في قصور  
بني غسان . فقد روى أن زيداً بن ثابت الأنصاري أقام وليمة  
اجتمع له فيها المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة ، وحضر

حسان بن ثابت ، وقد كف بصره يومئذ ، حتى إذا فرغ الطعام  
أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عزة ، جلستا وأخذتا  
مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً ، وغنتا بقول حسان :

أنظر خليليَّ بباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد  
فسمِع حسان يقول : قد أراني بهما سمياً بصيراً ، وعيناه تدمعان  
فإذا سكتتا سكت عنه البكاء وإذا غنتا بكى . ولما عاد حسان إلى  
داره استلقى على فراشه وقال لابنه عبد الرحمن : لقد أذكرتني  
رائقة وصاحبها أمراً ما سمعته أذنأى ، يعيد ليالى جاهليتنا مع جبلة  
ابن الأيهم ( أمير غسان ) . ثم جلس وتبسم وقال : « لقد رأيت  
عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين  
غناء أهل الحيرة وأهداهن إليه إياس بن قبيصة ، وكان يفد إليه  
من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب  
فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر  
والمسك في صحاف الذهب والفضة ، وأتى بالمسك الصحيح في  
صحاف الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان  
صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ينفصل  
هو وأصحابه بها ، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه ، ولا والله  
ما جلست معه يوماً قط إلا خلع عليَّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم  
وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حلم عن جهل ، وضحك وبذل

من غير مسألة مع حسن وجه وحسن حديث ، ما رأيت منه خني  
قط ولا عريضة .

وقد ذاع شأن عزة وطبق صيتها الآفاق ، وأقبل الناس عليها  
من كل مكان حتى أفزع ذلك بعض المعاصرين من أنصار الصرامة  
والمتحفظين ، فتوجهوا بالشكوى إلى الأمير سعيد متهمين عزة بأنها  
فتنت أهل المدينة وأفسدت المؤمنين بفن مفر قد نهى عنه الإسلام .  
فأوفد الأمير إليها رسولا يأمرها بترك الغناء متذرعاً بأنها فتنت  
رجال المدينة ونساءها . وكان قد قصد إلى دارها وقتذاك عبد الله  
ابن جعفر ، من أشرف الناس مولداً ومكانة وأوسعهم ثراء  
وجاها . فقال للرسول : إرجع إلى صاحبك فقل له عنى أقسم  
عليك إلا ناديت في المدينة أيما رجل فسد أو امرأة فتنت بسبب  
عزة إلا كشف نفسه بذلك لنعرفه ويظهر لنا ولك أمره . فنادى  
الرسول بذلك فما أظهر أحد نفسه . وقال ابن جعفر لعزة ، وابن  
أبي عتيق معه ، لايهولنك ما سمعت وهاتي فغنيننا . فغنته بشعر القطامي :  
إنا محبوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل  
وهكذا استمرت عزة في طريقها الفني مطمئنة على تشييد مجدها  
ومجد الغناء العربي معها ، حتى قضت نحبها حوالي عام ٨٦ هـ (٧٠٥م)

## جميلة

فنانة العروبة ومغنية الحجاز ورافعة راية الطرب في العصر  
الأموي الزاهر... فما كان أحوج هذا العصر إلى مثل جميلة . فقد  
اضطرت فيه الأحداث ، واشتبكت المذاهب الإسلامية في صراع  
عنيف ، وانقسم الناس إلى معسكرات ماتكاد الهدنة تقوم بينها حتى  
تبدأ حرب شعواء جديدة بين شيعة أهل البيت وأنصار الخلافة  
الأموية من جهة ، وبين العدنانية واليمينية من جهة أخرى ، ثم بين  
الشعوبية والعربية من جهة ثالثة . فحين يتحدث الخلاف المذهبي  
والقبلي<sup>(١)</sup> يمد الفن ظلاله الفيحاء ، وينشر أغصانه الوارفة ، ويبعث  
في الأجواء ألحانه السماوية ، فإذا بتلك النفوس المكدودة تفر  
من ذلك الأتون المستعر لترى في الفن عزاءها وسلوتها . فما كاد  
شباب الخلافة الأموية يزدهر حتى كانت موسيقى « جميلة » نشيده  
العذب ، وترجمانه الساحر البديع .  
وهي في الأصل جارية ، امتازت بالبراعة والذكاء والقدرة  
على المحاكاة والتقليد وصحة الأداء ، ثم الابتكار بعد ذلك . وقد  
انتقل ولاؤها من بني سليم إلى بني بهز .

(١) نسبة إلى قبيلة

عاشت بالمدينة حتى أعتقت ، ثم تزوجت من أحد موالى  
الحرث بن الخزرج وأقامت وإياه بالسَّنح بين قصر مشيد وحاشية  
وخدم كثيرين . ثم انتقل إليها ولاء زوجها بالشهرة فلقيت  
بمولاة الأنصار .

وتعد جميلة عالماً من أعلام الغناء العربي على الإطلاق . بل هي  
مدرسة الموسيقى وأستاذتها الأولى في ذلك العصر الإسلامي المتقدم .  
وقد تخرج في مدرستها تلك النخبة المنتقاة التي حملت راية الفن العربي  
وقامت برسائلته منذ فجر الخلافة الأموية إلى أن تم نضجه في  
الخلافة العباسية وقصور بغداد . وما ظنك بأستاذة يكون تلاميذها  
نجوم الغناء العربي في أزهى عشرين من عصور الإسلام ، من مثل  
معبد وابن عائشة وحجابه وسلامة القس وعقيلة العتيقية وخليدة  
وربيحة .

أما مقامها الفني فحسبنا فيه شهادة معاصريها ، وإقرارهم بفضلها .  
قال الحسين بن يحيى : « كانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء » .

أما شهادة معبد لها فهي وثيقة إمام الغناء العربي وفارسه المجلى  
في ذلك العصر ، والاسم الذى لا يسبق فى ميدانه ولا يلحق فى  
مكاته ومكانه . قال عنها : « أصل الغناء جميلة وفروعه نحن ،  
ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين » .

أما أن تكون جميلة هي أصل الغناء العربي فأمر مقطوع به  
لأن قائله معبد ، ولأنه لم يعرف عن أحد من مغني العرب أو قيانهم  
أنه سبقها إلى مثل مكاتبا الغنائية . ولكن لا بد للأصل من أصل .  
ولا مندوحة للتجديد عن عنصر جديد . فليس من الميسور  
الانتقال من حداء البوادي إلى فن الحضارة بعقده وتراكيبه دون  
تدرج وتطور ، فأين إذن يعثر الباحث على المصادر الأولى لفن جميلة ؟  
لعلها هي قد تولت الإجابة عن هذا السؤال حين سئلت : أنى  
لك هذا الغناء ؟ وهو سؤال يحمل كل معاني التعجب والاستفهام  
والاستغراب . وقد أجابت بقولها :

« والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكن أبا جعفر سائب خاثر  
كان لنا جاراً وكنت أسمعه يغني ويضرب بالعود فلا أفهمه .  
فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائى فجاء أجود من تأليف ذلك  
الغناء . فعلمت وألقيت فسمعتى مولياتى وأنا أغنى سرأ ففهمتنى ،  
ودخلن على وقلن : قد علمنا فما تكتمينا . فأقسمن على فرفعت  
صوتى وغنيتهن بشعر زهير بن أبي سلمى :

وما ذكرتك إلا هجت لى طرباً إن المحب يعض الأمر معذور  
ليس المحب كمن إن شط غيره هجر الحبيب وفي الهجران تغيير  
فحينئذ ظهر أمرى وشاع ذكرى . فقصدنى الناس ، وجلست  
للتعليم . فكان الجوارى يتكاوسننى ، فربما انصرف أكثرهن ولم

يأخذن شيئاً سوى ما سمعنى أطرح لغيرهن . ولقد كسبت لموالى  
ما لم يخطر لهن ببال .

وأنت تستشف من هذه القصة الصغيرة تاريخاً كاملاً إذا  
استطعت وإذا شئت . فهاهى ذى فتاة قد أرسلت نفسها إرسالا  
إلى موسيقى أجنبية عنها ، وإن كانت قريبة منها . ثم تراها وقد  
حذقت ما سمعت وحافظت على ما حفظت . ثم إذا آتت عملية  
الهضم الفنى عملها ، بدأ دور الابتكار والإخراج والأستاذية .  
وهى لعمرى دراسة عجيبة فى بدايتها ، فلم تقم على مجرد التلقين والحفظ  
والمراجعة والمطارحة والتحصيل والتنقل فى درجات فنية ، ولكنها  
إصغاء ووحى وإخلاص واستمرار . كل ذلك اجتمع لجميلة مع  
ما توفر لها من قوة الاستعداد فكون منها تلك الشخصية العجيبة .  
لو لم تكن شخصية « جميلة » فى أجل مكان من الامتياز  
والتفوق النادر ، ما أتيح لها أن تنقل فناً أجنبياً ، ثم تعربه ، وتطبعه  
بطابع بيتها ، وتعنى به غناء عربياً وأبياتاً جاهلية فى لغتها ، عصرية  
فى فنا . ونرى جميلة بعد أن تقوم بهذه العمليات كلها من دراسة ،  
واستيعاب ، وخلق وابتكار ، تنشئ المدرسة وتجلس للتعليم ،  
وتحترف الفن نفسه .

وهنا يجب الإلماع إلى أن هذه القصة القصيرة لا تعنى قصر  
المدة التى قضتها جميلة فى التعليم ، بل هى تشف فى ثناياها عن أمد

طويل تابعت فيه أبا جعفر سائب خاثر ، وقضت شهرأ بعد شهر ،  
وربما سنة بعد سنة . ويتجلى هذا بوضوح إذا تذكرنا أنه الغناء  
الفارسي الذي لم تفهمه جميلة في بداية الأمر . فلا بد من زمن ،  
وزمن غير قصير ، يكفي لتتطبع تلك الصور الفنية من أصلها  
الأعجمي ، ثم تستخلصها إلى العربية الأصيلة القوية . ولا شك أنها  
كانت فنانة موهوبة ذات مقدرة وعبقرية أتاحت لها أن تتربع  
على عرش الموسيقى وهي في المدينة بمعزل عن حروب الجدل  
أو حروب الدماء في التخوم والعواصم والميادين الأخرى .

وهذا لا يناقض ما هو معروف في الآثار العربية والروايات  
التاريخية من أن سائب خاثر هو أول من حاكى الغناء الفارسي بغناء  
عربي في المدينة ، وأنه تأثر بنشيط الفارسي المغنى . ولعل ما ظنته  
جميلة غناء فارسياً كان عربياً استعجمت ألفاظه وحروفه خلف  
ستار من الألحان الفارسية المحكية إلى العربية ، وهي عملية فنية  
مألوفة في عصور الانتقال والتجاوب الفنى بين المدينت والتفاعل  
بين الحضارات .

كانت جميلة قبلة الغناء في المدينة ، يؤم دارها المغنون والشعراء  
من مكة وسائر أقاليم الحجاز . والمراجع العربية حافلة بوصف  
لياليها الساهرة ، وأغانها الساحرة ، واستقبالاتها الفخمة ، وضيوفها  
وزوارها من أعلام الإمارة والثراء والفن ، يضربون أكباد الإبل ،



ويقطعون الأغوار والأنجاد على ظهور الصافنات الجياد ، ليستمعوا  
إلى غناء لم يسمعه ، ويسعدوا بفن لم يألوه .

نذكر من تلك الليالي ليلة أقامتها جميلة لتكريم عبد الله بن جعفر  
غنت فيها مع خمسين قينة ، وقد وضعن على رؤوسهن أكاليل  
الأزهار ، ولبسن أفر الثياب . فقالت لهن جميلة : « إضربن بضرب  
واحد وانشدن معي هذا الشعر وهذا اللحن بصوت واحد » .  
فلما سمع عبد الله هذا الفيض الغنائي يتدفق سحراً بليغاً من هذا  
العدد الوفير من أصوات المعازف والقيان حول جميلة وهي تشدو  
بالمعجز المطرب قال : « ما ظننت أن يبلغ الفن هذا الحد البعيد ،  
وحقاً إن ذلك لما تفتتن به القلوب وتضطرب له الحواس » .

وكذلك كانت دار جميلة الندوة الجامعة يقصد إليها أفذاذ  
المغنين ، كما يقصد الظالمون إلى المنهل العذب . وقد ورد إلى المدينة  
ابن سريج ومعبد ومالك وسواهم من مشاهير الموسيقيين ليتقنوا  
فن الغناء في مدرسة جميلة ، فكانت لهم الشهرة الذائعة والأسماء  
اللامعة طوال العصر الأموي .

وكانت في كثير من الأحيان تغنى معهم ، وكانت جميلة تغني اللحن  
فيكررونه جميعاً بعدها مصاحبين الغناء بصوت العيدان . ويكفي  
في وصف تلك الحفلات الشائقة قول معبد : « ما مررت بألد من  
تلك الأوقات حتى ولا عند خليفة من الخلفاء » .

ويبدو لنا أن جميلة كانت تحتوى نفسها على خلق فنان ، وتضم  
بين ضاوعها قلب موسيقية رحيمة ، لا تضن بالغيث المدرار من  
فنها على الظامئين إليه والمتلهفين عليه . فها هو ابن أبي عتيق وعمر  
ابن أبي ربيعة والأحوص بن محمد الأنصاري يقصدون إلى دارها  
فتطالعهم بالحفاوة والترحاب ، وما هو إلا أن قال عمر لها « إني  
قصدتك من مكة للسلام عليك » حتى قالت « أهل الفضل أنت » .  
قال « وقد أحببت أن تفرغى لنا نفسك اليوم وتخلي لنا مجلسك »  
قالت « أفعل » . ودعت بالعود وغنت حتى سمع للبيت زلزلة وللدار  
همهمة واستخف الغناء أحلام القوم فصفقوا بأيديهم وضربوا  
بأرجلهم ، وأمالت النشوة رؤوسهم وهم يقولون « نحن فداؤك من  
السوء ووقاؤك من المكروه ، ما أحسن ما غنيت وأجمل ما قلت » .  
ثم دعت بأنواع الأشربة فشربوا ما طاب لهم ، ثم غنت أبياتاً من  
الشعر لعمر فأخرجه الغناء من وعيه وصاح ويلاه ، ثم عمد إلى  
جيب قميصه فشقه إلى أسفله ، فما لبث أن صار القميص قباء . وقال  
له القوم « قد أصابنا كالذى أصابك وأغشى علينا ، غير أننا  
فارقناك في تخريق الثياب » . فدعت جميلة بثياب نخلعتها على عمر  
فقبلها ولبسها . ولما انصرف القوم إلى منازلهم وجه عمر إلى جميلة  
بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب فقبلتها جميلة . وعاد عمر إلى  
مكة مغتبطاً برحلته .

وإن المرم ليأخذه العجب حين يقرأ القصة التالية عن جميلة  
في ذهابها إلى الحج وعودتها منه ، وكيف كان تقدير أعلام المدينة  
ومكة لها في المضى وفي الإياب ، وكيف صحبها الحور الحسان  
والفنانات البارعات من الجوارى والقيان ، وكيف أحاطت بها  
مواكب ووفدت إليها أفواج . . . . يجرى ذلك كله في صدر  
الإسلام وفي فجر الدعوة ، والأمة تجمش الجيوش وتغزو الأمصار  
بين الأندلس غرباً والهند شرقاً لبناء الامبراطورية الإسلامية  
العظمى . حقاً إن الحيوية إذا سرى دبيبها في الأمة امتد فيها إلى  
كل الشرايين حتى تشمل العلم والفن والحكم والسياسة ، دون أن  
تظفي ناحية على الأخرى ، بل يكون كل عنصر بمدأ للعنصر  
الآخر ومقويآ له .

فها نحن نرى جميلة الفنانة المغنية في طريقها إلى حرم الله ، وهو  
دليل ساطع على ما كانت تتحلى به مغنية ذلك العصر من التقوى  
والإيمان وتعظيم شعائر الله . . . .

قصدت جميلة إلى الحج فصحبها من شيوخ المغنين هيت وطويس  
والدلال ونومة الضحى وغيرهم ، ومن شباب المغنين معبد ومالك  
وابن عائشة ونافع بن طنوره وغيرهم ، ومن النساء المغنيات عزة  
الميلاء وحباة وعقيلة وسلامة وخليدة والشامسية وبليلة ولذة العيش  
وسعيدة والزرقاء وغيرهن ، وكثير من الأشراف والنساء . وحج

معها من القيان كثيرات تعظيماً لقدرها . ولحق بها زهاء خمسين  
قينة وجهه بن إليها مواليهن فأعطوهن النفقات وحملوهن على الإبل  
في الهوادج والقباب وغير ذلك ، فأبت جميلة أن تنفق واحدة منهن  
درهما حتى رجعن .

وحج معها من الرجال المغنين غير من سميناً زهاء ثلاثين  
رجلاً ، وتخيروا في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظرف .

وقيل فيما قال أهل المدينة إنهم ما رأوا مثل ذلك الجمع سفراً  
طيباً وحسناً وملاحة .

ولما قاربوا مكة تلقاهم من أعلام المغنين فيها سعيد بن مسبح  
وابن سريج والغريض وابن محرز وعدد عظيم من الشعراء كعمر  
ابن أبي ربيعة والحارث بن خالد وغيرهم ، وقيان كثيرة . فدخلت  
جميلة مكة وما بالحجاز كله مغن حاذق ولا مغنية إلا هم معها .

وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها  
وحسن هيئتهم . فلما قضت حجها سألتها المسكيون أن تجعل لهم مجلساً  
فقالت : « للغناء أم للحديث ؟ » . قالوا « لها جميعاً » .

وروى أنها أبت أن تجلس للغناء في مكة ، حتى قال عمر بن  
أبي ربيعة : أقسمت على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها  
إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج . فعزم القوم الذين سميناهم  
كلهم على الخروج . فخرجت جميلة في جمع أكثر من جمعها بالمدينة .

فلما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرفهم من الرجال والنساء ،  
وخرج الجميع من بيوتهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها .  
فلما دخلت منزلها ، تفرق الجمع إلى منازلهم ، ونزل أهل مكة على  
أقاربهم وإخوانهم ، وجاءها الناس جميعاً مسلمين . فلما مضى لمقدمها  
عشرة أيام جلست للغناء . فلما كان اليوم الثالث عشر اجتمع  
الناس فضربت ستارة ، وأجلست الجوارى كلهن ، فضربن  
وضربت جميلة فزلزلت الدار .

ولعلنا أدركنا في مجرى هذه القصة لوناً آخر ، وهو الجانب  
الثقافي لجميلة حين تسأل أهل مكة عن المجلس الذي يطلبونه منها  
الغناء هو أم للحديث . ولعل الحديث هنا أعم من الحديث الديني  
الشريف ، فقد يكون حديث الأدب في منظره ومنتوره ، وحديث  
الرواية والأنساب وأيام العرب وحروبهم . وكذلك كان الفنانون  
في عصر القوة والمجد لا يقف بهم الأمر على ما يقرءون من  
منظومات يلتقونها في مواطن كسب العيش ، وإنما كان الفن للفن  
وإلى جانبه علم واطلاع بماضي الحياة وحاضرها .

وكان من أخبار جميلة أن استهدفت لحالة نفسية مما يعرض  
كثيراً للشاعر فيقسم أنه سترك الشعر ، أو للمغنى فيعتزم ترك  
الغناء . ولكن هذا الأثر لم يبق طويلاً ، بل مضت جميلة — على  
ما يبدو من الرواية نفسها — مواصلة الغناء ، معتزة بنفسها الذي  
خلد اسمها وتاريخها . قال المؤرخون :

قعدت جميلة يوماً على كرسى لها وقالت لأذنتها لا تحبني عنا  
 أحداً اليوم واقعدى بالباب فكل من يمر به فاعرضى عليه مجلسي ،  
 ففعلت حتى غصت الدار بالناس . فلما تعالى النهار واشتد الحر  
 استسقى الناس الماء فشرب من أراد ، فقالت أقسمت على كل رجل  
 وامرأة دخل منزلي إلا شرب . ثم قالت لهم إنى رأيت فى منامى  
 شيئاً أفزعنى وأرعبنى ولست أعرف سبب ذلك ، وقد خفت أن  
 يكون قرب أجلى ، وليس ينفعنى إلا صالح عملى ، وقد رأيت  
 أن أترك الغناء مخافة أن يلحقنى منه شيء عند ربى . فقال قوم منهم  
 وفقك الله ، وثبت عزمك . وقال آخرون بل لا حرج عليك  
 فى الغناء . وكان مما قاله شيخ منهم ذو سن وعلم وفقة وتجربة :  
 « يا معشر الحجاز إن الغناء يحيى القلب ، ويزيد فى العقل ،  
 ويسر النفس ، ويفسح فى الرأى ، ويتيسر به العسير ، وتفتح به  
 الجيوش ، ويذلل به الجبار ، ويبرىء المريض ومن مات قلبه  
 وعقله وبصره . من تمسك به كان عالماً ومن فارقه كان جاهلاً ،  
 لأنه لا منزلة أرفع ولا شيء أحسن منه ، فكيف يستصوب تركه . »  
 وقال لجميلة أوعيت ما قلت ووقع من نفسك ما ذكرت ؟ قالت  
 أجل وأنا أستغفر الله . قال لها فاختمى مجلسنا وفرقى جماعتنا بصوت  
 فقط . فغنت حتى قال ذلك الشيخ : الحمد لله الذى لم يفرق جماعتنا على  
 اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته ، وسلام عليك ورحمة الله يا جميلة .  
 وتوفيت حوالى عام ١٠١ هـ ( ٧٢٠ م ) .

## ابن محرز

هو أبو الخطاب مسلم بن محرز من موالى عبد الدار من قصى .  
وهو فارسي الأصل ، كان أبوه من القائمين على سدانة الكعبة .

وقلما عرفت الموسيقى العربية في مثل هذا العصر رجلا  
كابن محرز تنقل بين حاضرتي الحجاز يتعلم موسيقى عزة الميلاء  
بالمدينة أشهر أ ثم يعود إلى وطنه مكة فيقيم بها أشهراً يستمع من  
أستاده ابن مسجح ومن غير واحد من أفذاذ المغنين بأمر القرى .  
فإذا لم يجد بالحاضرتين ما ينقع غلته ضرب في الآفاق يلتمس الجديد  
من الفن الفارسي ببلاد فارس أو الألبان الرومية بالشام التي بقيت  
آثارها بعد جلاء جيوش الروم على أثر الفتح الإسلامي .

على أنه وهو يداول بين تلك الفنون فارسية ورومية لم يكن  
يريد أن يخلعها على شعر العرب ، وإنما أراد التخير والانتخاب  
والانتفاع بكل ما هو جديد طريف .. وهكذا يصنع الفنان البارع  
حين يلتقط المآثر الفنية والثمار المختلفة فيعتصرها ويهضمها ويخرج  
من عصارتها فنه الخالص ، فيه شخصيته الفردية وطابعه القومي ...

وهكذا صنع ابن محرز كما صنع أستاذه ابن مسجح ، حيث  
نسخ على منواله ، وسار على دربه ، وجاء بما أدهش الناس من  
آثار رحلاته داخل الجزيرة العربية وخارجها من بلاد فارس  
والعراق والشام حين استخلص من تلك الموسيقىات خير ما فيها ،  
واستبعد منها ما ينبو عنه سمع العربي وطابع موسيقاه .

ولبراعته في الموسيقى أطلق عليه « صنّاج العرب » كما لقب  
الأعشى من قبل في شعره بصنّاج العرب .

وكان ابن محرز لا يكتفي فيما يبدعه من الألحان بعملية التصفية  
والانتقاء ، بل كان فوق ذلك ملحنًا مبدعًا مخترعًا . وكان مما جرده  
في الألحان نوع الغناء المسمى « الرمل » ولم يكن أحد قد سبقه إليه .  
وقد كتب لهذا اللون الفني أن يعيش في الحياة العربية ردحا طويلا  
من الزمن بعد صاحبه وأن يبلغ مكانة رفيعة من الاستحسان حتى  
نقله مغن فارسي في أيام الرشيد استحسن لحنًا لابن محرز فنقله إلى  
الفارسية وغنى فيه .

وإلى جانب ابتكاره الرمل فقد اهتم في اللحن حيث لم يكتف  
بلحن واحد يردد مع كل بيت ، بل كان أول من غنى بزواج من  
الشعر واقتدى به المذنون بعد ذلك . وقد قال : « الأفراد لا تتم  
بها الألحان » .



وقد تتلمذ لابن مسجح كما أسلفنا ، وكما أخبر هو عن نفسه .  
ولأمر ما لم يكن يخالط الناس ، ولم يشهد مجالس الخلفاء فقد كان  
مرض البرص وهو العلة التي أصيب بها جديراً بالآلا يدع له صاحباً  
إلا جارية لأحد أصدقائه كانت تألفه وتحفظ عنه وهي التي روت  
غناؤه وأصبحت حنجرتها سجلاً لصوته وألحانه . فكلما عاد إلى مكة  
قدم ما بيده من المال إلى صاحبه ، سيد تلك الجارية ، فإذا نصب  
المال جهزه وقال له إذا شئت فارحل . وكذلك يمضي ابن محرز  
ويعود .. وما زال بين جيئة وذهاب حتى ذهب من هذه الدنيا  
في عهد الوليد بن عبد الملك .

على أن ابن محرز وإن لم يغش مجالس الخلفاء ولم يحظ بمنادمة  
الأمراء فقد اعترف له بالفضل كبار أعلام الغناء . وكان من  
المقدمين عند إسحق الموصلي . كما أقر له بالسبق الفضل بن يحيى  
ابن خالد البرمكي .

وإن القصة التالية لدليل على مكاتته الرفيعة التي كان يحسده  
عليها معاصروه من المغنين :

قالوا شخص ابن محرز مرة يريد العراق فلقيه حنين الحيرى  
وهو حينئذ أكبر أعلام الغناء بها فقال له غننى صوتاً من غنائك  
فغناه بيتين من شعر عمر بن أبي ربيعة . فقال له حنين : كم أملت من  
العراق ؟ قال ألف دينار . فقال له : هذه خمسمائة دينار ومعها نفقة

السفر في الحضور والعودة نخذها وانصرف واحلف ألا تعود..  
ولما شاع ما فعل حنين لأمه أصحابه عليه فقال : والله لو دخل  
ابن محرز العراق لما كان لي معه فيه خبز آكله ولسقطت إلى  
آخر الدهر .

وكم من حنين اعترضه ، لافى طريق العراق ، بل في طريق  
الشهرة . ولكنه رغم ذلك كله ، ورغم العلة المنفرة التي حجبت  
عن الناس ، فقد اجتاز فنه الشام والعراق ، وطبقت شهرته الممالك  
والآفاق .

## ابن سريج

هو عبيد بن سريج مولى بني نوفل بن الحارث بن عبد مناف . .  
هكذا التقت الروايات وتآزرت على هذا الولاء الذي كان  
من العوامل في رفع شأنه حيث ينتمى إلى تلك الشجرة الظليلة  
من قريش ، وإن كان البعض يرده إلى غير هذا الولاء من  
اليوتات والقبائل .

كان ابن سريج قد جمعت له الحياة بين ظلامها ونورها ، وبين  
جمالها وقبحها . فهي حين أبدعت في حنجرتة نخلقت منها مزماراً  
من مزامير الفن الخالد أبت إلا أن تحرمه من كل ما هو جميل  
في مظهره وصورته ، فأخرجته دميماً ، في عينه حول ، حتى قد رضى  
لنفسه أن يلقب بوجه الباب . ولم يكن له بد حين يغنى من أن  
يستتر بقناع يوارى فيه دمامته حتى لا يشوه قبح منظره جمال غنائه .  
وكان مولده في أخريات خلافة عمر بن الخطاب . وطال عمره  
حتى بلغ الخامسة والثمانين ، حيث كانت وفاته في خلافة هشام  
ابن عبد الملك ، على أشهر الروايات وأقربها إلى الصحيح المعقول .  
وكان ابن سريج يجمع إلى الدمامة في خلقته ملاحظة في خلقه

ورقة في نفسه وعذوبة في منطقه . فقد كان يتأق للسامعين ويزدلف  
إليهم من حيث يحبون . فكان لا يغنى أحداً إلا بالشعر الذي يلائم  
مذهبه . وناهيك بعصر كانت الحرب فيه بين المذاهب السياسية  
دائمة الاشتعال ، وليكل من أصحاب تلك المذاهب دعائه وشعراؤه .  
ولو لم يكن ابن سريج مطلعاً بهذه الحياة الأدبية الخصبة ، عارفاً  
بمختلف النزعات فيها ، ما كان له من سبيل إلى إرضاء الجميع  
في وقت لم يرض فيه واحد عن الآخر ، حتى كان جديراً بأن يصفه  
ابراهيم الموصلي حيث سئل عنه بقوله : « إنه خلق من كل قلب  
فهو يغنى لكل إنسان ما يشتهي » .

كان ابن سريج في بداية عهده بالفن يوقع على قضيب بيده ،  
ثم اتخذ له عوداً على غرار عيدان الفرس حيث سلك هو وأستاذه  
ابن مسجح هذه الطريقة محاكاة للعازفين من الأعاجم ممن قدموا  
مكة لبناء الكعبة ، فكانا أول من ابتدع نوع الغناء المتقن في مكة .  
وذاع شأن ابن سريج في الغناء بهذه الطريقة الجديدة حتى أصبح  
أحد أعلام أربعة اشتهروا بالغناء بالحجاز في هذا العصر الأموي .  
ويقول في ذلك إسحق الموصلي : « الغناء لأربعة ، مكيان ومدنيان  
فالمكيان ابن سريج وابن محرز والمدنيان معبد ومالك » .

وقد اعترف له بالتقدم والسبق غير واحد من أنداده ونظرائه .  
وحسبه أن معبداً كان إذا أحس من نفسه الإجادة قال أنا اليوم

سريجي . ولما علم وهو في المدينة ، بوفاة ابن سريج قال : الآن أصبحت أحسن الناس غناء . فقيل له : أولم تكن كذلك ؟ قال : لا حيث كان ابن سريج حياً . ومن عرف قيمة معبد لم يجهل قيمة ابن سريج في هذا الاعتراف الذي يؤيده قول هشام ابن المرية وكان مجرباً معمرأً واسع الخبرة بالغناء وقد سئل عن أحذق المغنين فقال : ما خلق الله بعد داود النبي عليه الصلاة والسلام أحسن صوتاً من ابن سريج ولا صابغ الله عز وجل أحداً أحذق منه بالغناء .

وكان ابن سريج قبل الغناء يصطنع النياحة، وعاش نائحاً يندب الموتي من كبار القبائل وكرام العشائر مدة طويلة .

وقد بعثت سكيئة بنت الحسين رضى الله عنهما إلى ابن سريج بشعر يصوغ فيه لحناً يناح به ، وهو هذا البيت :

يا أرض ويحك أكرمي أمواتي فلقد ظفرت بسادتي وحماتي  
فأجابها إلى ما سألت وصنع لها اللحن فصادف به نجاحاً عند  
أهل الحرمين، وقدموه على جميع النائحين في مكة والمدينة والطائف .

ولك أن تستخلص من هذا أن اللحن كان يقصد إليه، ويصنع خصيصاً لبعض الأشعار ، ويصبح موضع الرعاية والاهتمام . كما تستخلص أيضاً أن النياحة كانت لونهاً موسيقياً متداولاً بين الألوان الهامة في الغناء العربي القديم . ولقد يتبادر إلى الذهن أن

هذا عصر من عصور المجد السياسي الجدير بالطرب والغناء  
لا بالنواح والبكاء . ولكن ليس الأمر كذلك ، فقد كان إلى  
جانب العظمة في الفتوحات والانتصارات والطرب الذي يغمر  
الدور والقصور ألوان أخرى من الآلام والفجائع التي خلفتها  
الحروب والثورات الداخلية ، وأصاب أهل البيت وبني هاشم  
وأنصارهم والزييرين وأشياهم ما جعل لهذه النياحة رواجاً  
إلى حين .

وروى أن سكينه رضى الله عنها وجهت إلى ابن سريج بعد  
ذلك مملوكاً لها يدعى عبدالمك وأمرته أن يعلمه النياحة ، فأقام على  
تعليمه مدة طويلة ، فلما توفي عمها أبو القاسم محمد بن الحنفية وكان  
ابن سريج يشكو مرضاً عضالاً قعد به عن القيام بالنياحة ، قال  
لها عبدالمك أنا أنوح لك نياحة أنسيك بها نوح ابن سريج . فقالت  
له أو تحسن ذلك ؟ قال نعم . فأمرته فناح ، وكان نوحه قد بلغ  
الغاية من التأثير ولا سيما في قلوب النساء حتى تنادين قائلات إن  
هذا نوح غريض فكان ذلك سبباً لأن يعرف عبد الملك بعد ذلك  
بالغريض<sup>(١)</sup> . ولما برأ ابن سريج من علته بعد ذلك وعلم نبأ وفاة ابن  
الحنفية سأل عمن ناح عليه ، فقالوا عبدالمك غلام سكينه ، فقال  
وهل أساغ الناس نوحه ؟ قالوا نعم ، وقدمه بعضهم عليك . فأقسم

(١) الغريض : الرقيق اللين من كل شيء .

ابن سريج لا عاد بعد اليوم إلى النياحة أبداً ، وعدل عنه إلى الغناء .  
ولكن هل بر بقسمه ؟ إن الفنان في الواقع لا يكون دائماً ملك  
نفسه . أو نقول بتعبير آخر إن كل ما عند الفنان من الألوان عرضة  
لاستخراجها وإرغامه على الظهور بها مهما حاول كبتها والإعراض  
عنها . فقد ناح ابن سريج بعد هذه التوبة عندما ماتت حبابة وكانت  
قد أخذت عنه وأحسنت إليه ، ثم ناح بعدها على يزيد بن عبد الملك ،  
ثم لم يعرف عنه أنه ناح على أحد بعد ذلك .

وكان ابن سريج يضيف إلى جمال غنائه جمال السجيا . فهو  
رقيق الشمائل ، رحب النفس ، تمتد الأفق ، يرى محادثه فيه من  
خلقه محاسن لا يقل فيها عن فنه . ولقد يكون في بعض أيامه عليلًا  
أو مرهقاً أو متعباً ثم هو مع ذلك يلبي رغبة كل من يطلب منه  
الغناء ، فلا يخيب متعطشاً إلى فنه بل يرده ريان شاكراً . وقد  
قصد إليه يوماً جماعة من فتيان بني أمية وهو مريض فلما دخلوا  
عليه قالوا : « نحن فتيان قريش أتيناك مسلمين عليك وأحببنا أن  
نسمع منك » . فما كان من ابن سريج إلا أن أمر جاريته بإحضار  
جلبابه وعوده ، وأخذ تقابلاً أسدله على وجهه وغانم ، حتى إذا  
اكتفوا ألقى عوده وعاد إلى الفراش .

ولعل هذه الخلال النبيلة فيه التي اشتهرت عنه هي التي حملت  
الوليد بن عبد الملك على استدعائه لمجالسته ، فقد كتب إلى عامله

بمكة أن يشخصه له ، فلما جاءه قال الوليد : ويحك يا عميد قد بلغني  
عنك ما حملني على الوفادة بك من كثرة أدبك وجودة اختيارك  
مع ظرف لسانك وحلاوة مجاسك .

وكانت براعة ابن سريج الغنائية تتجلى بصفة خاصة في إيقاع  
الرمل ، فقد بلغ فيه الغاية التي قصر غيره دون بلوغها .

أما أساتذته فقد عرفنا منهم بمكة ابن مسجح ، على أنه قد تفوق  
عليه وبلغ الشأو الذي لم يدركه أستاذه . ثم هو لم يقف عند هذا  
بل تكررت رحلاته إلى المدينة فأخذ بها عن طويس في مجالس  
الغناء التي كانت تقيمها عزة الميلاء . ولم يفته أن يفيد في فنه من  
سائب خاثر .

ويرى المطلعون أنه لم يقتصر غناؤه على لون واحد بل كان  
يخلق في كل أفق حتى قال ابراهيم الموصلي عنه « الغناء على ثلاثة  
أضرب فضرب مله مطرب يحرك ويستخف ، وضرب له شجى  
ورقة ، وضرب ثالث هو حكمة وإتقان صنعة ، وكل هذا مجموع  
في غناء ابن سريج » .

وصفاته الفنية هذه هي التي جعلته يحرز قصب السبق ويظفر  
بالجائزة الأولى في مباراة غنائية أقامها سليمان بن عبد الملك .

وقد تبين فيما سلف أن الغريض أدى عن ابن سريج النياحة  
وهو عليل ، ولما خشى ابن سريج أن يجد فيه المنافس القوي الذي



يقض مضجعه أخلى له جو النياحة وتفرغ للغناء . وهنا يأتي  
الغريض إلا أن يلاحقه حيثما كان ، فإيكاد ابن سريج يغنى لحناً  
حتى يعارضه الغريض معارضة قوية حملت ابن سريج على أن  
حقد عليه وضاق بمكانه ذرعاً . وكلما اشتد به الأمر راح يبتكر  
الألحان ويبتدع فيها الجديد تلو الجديد ، حتى نشأ عن هذه المنافسة  
حوار غنائى فى دار كانت تجمعهما ببعض أطراف مكة فى كل  
يوم جمعة حيث يجتمع إليهما جمهور حافل ، وإذ ذاك يجلس كل  
منهما على كرسى فيتبادلان الغناء ويتناقضانه . ولما رأى ابن سريج  
أن خصمه كان يلعب بألباب مستعميه حين يمزج غناؤه بالنياحة  
التي حذقها بادىء ذى بدء وحافظ على صيغتها ، وأخذ يستميل  
العواطف ويستثيرها بذلك الأسلوب ، بدا له أن يأخذ طريقه  
إلى الأهزاج والأرمال ، وما لبثت أن استخفها الناس لجذتها  
وقرب تناولها ، فتنبه الغريض إلى هذه المواجهة الجديدة ، وأراد  
أن ينال من خصمه وأستاذه فقال له « يا أبا يحيى قصرت الغناء  
وحرفته وأفسدته » . فقال له ابن سريج « نعم يا مخنث ، تقول  
هذا ، والله لأغنين غناء ما غنى أحد أثقل منه ولا أجود » .  
ثم أخذ فى غناؤه .

وقد تناقل الناس أنباء ابن سريج وأضفوا عليها من الغرابة  
ما تخيلوا معه أن زمر الطير كانت تهبط عند سماع صوته وهو يغنى

بين مكة وعرفة في جمع من الشباب حين فروا بفنهم وسمهم من  
تضييق نافع بن علقمة الذي نادى بتحريم الغناء والنيذ .

ثم هذا ابن الزبير على شدته وعنفه يسمع صوت ابن سريج  
فيعود مأخوذاً لللب لا يدري كيف يعبر عن حقيقة رأيه ، وكل  
ما في الأمر أن يقول : « سمعت صوتاً إن كان من الجن إنه لعجب  
وإن كان من الإنس فما انتهى منها شيء » .

وهذا أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز يسمع ابن سريج فيقول :  
« لله در هذا الصوت لو كان بالقرآن » .

وخير ما في هذه الروايات أنها تصوير لمكانة ابن سريج  
وإشادة بمقامه الغنائى الممتاز الذى دفع أبا نافع الأسود آخر  
غلبانه وأحذقهم وأحسنهم صوتاً إلى أن يقول « إذا أعجزك أن  
تطرب القرشى فغنه غناء ابن سريج ، فى شعر عمر بن أبى ربيعة  
فإنك ترقصه » .

ولعل من الخير لتاريخ ابن سريج فى مناسبة اقتران اسمه باسم  
عمر بن أبى ربيعة أن نروى هذه القصة :

حج عمر بن أبى ربيعة فى عام من الأعوام ومعه عبيد بن سريج  
فخرجوا من مكة بعد العصر يريدون منى . ثم قال عمر لابن سريج  
« يا أبايحى إنى تفكرت فى رجوعنا مع العشية إلى مكة مع  
كثرة الزحام والغبار وجلبة الحاج ، فهل لك أن نروح

رواحاً طيباً وتعلل في عشيتنا ونستريح على كئيب أبي سجرة؟  
قال ابن سريج طيب والله يا سيدي . فأمر بعض خدمه أن  
يذهبوا إلى داره بمكة ويعودوا بسفرة وشراب إلى الكئيب ،  
وهو على خمسة أميال من مكة مشرف على طرق المدينة والشام  
والعراق . فصارا إليه فأكلا وشربا ، ولما انتشيا أخذ ابن سريج  
الدف فنقره وجعل يغنى وهما ينظران إلى الحاج . فلما أمسيا رفع  
ابن سريج صوته يغنى فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به يا صاحب  
الصوت أما تتق الله قد حبست الناس عن مناسكهم !! فسكت قليلا  
حتى إذا مضوا رفع صوته فوق آخرون ، إلى أن سرت قطعة  
من الليل ، فأقبل عليه رجل على فرس عربي عتيق بأصل  
الكئيب وثني رجله على قربوس سرجه ثم نادى : يا صاحب الصوت  
أيسهل عليك أن ترد شيئاً مما سمعته ؟ قال نعم ، وغنى ما شاء .  
فقال له الفارس بالله أنت ابن سريج ؟ قال نعم . قال حياك الله ،  
وهذا عمر بن أبي ربيعة ؟ قال نعم . قال حياك الله يا أبا الخطاب .  
فقال له وأنت حياك الله قد عرفتنا فعرفنا نفسك . قال لا يمكنني  
ذلك . فغضب ابن سريج وقال والله لو كنت يزيد بن عبد الملك  
لما زاد . فقال أنا يزيد بن عبد الملك . فوثب إليه عمر فأعظمه ونزل  
ابن سريج إليه فقبل ركابه ، فقال له لو لا أني أريد وداع الكعبة وقد  
تقدمني ثقلى وغلاني لأطلت المقام معك ولنزلت عندكم ولكني

أخاف أن يفضحني الصبح ، ولو كان ثقلى معى لما رضيت بالهوينى  
ولكن خذ حلتى هذه وخاتمى ولا تخدع عنهما فإن شراءهما ألف  
وخمسة دینار . ومضى يركض حتى لحق ثقله .

ومكانة ابن سريج هذه لم تكن مستمدة من جمال صوته فحسب  
ولا كان هو من الهواة الذين يرسلون أنفسهم مع البديهة والارتجال  
ثقة بما لحسن صوتهم من الأثر وإنما كان أكثر من ذلك مستمداً  
من علمه بأسرار فنه ودرايته الوثيقة بدقائق صناعته . وقد سئل  
مرة عن قول الناس فلان يصيب أو يحسن وفلان يخطئ أو يسيء  
فقال « المصيب المحسن من المغنين هو الذى يشبع الألمان ويملاً  
الأنفاس ويعدل الأوزان ويفخم الألفاظ ويعرف الصواب ويقيم  
الإعراب ويستوفى النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم القصار  
ويصيب أجناس الإيقاع ويحتل مواقع النبرات ويستوفى ما يشاكلها  
فى الضرب من النقرات » فعرض ما قال على معبد فقال : لو جاء  
فى الفناء قرآن لما جاء إلا هكذا .

ولما شعر بدنو أجله نظر إلى ابنته فى تأثر وهى تبكى  
فبكى ، وقال إن من أكبر همى أنى أخشى أن تضيعى بعدى .  
فقال لا تخف فما غنيت شيئاً إلا وأنا أغنيه . فقال هاتى ،  
فاندفعت تغنى أصواتاً ، وهو مصغ إليها ، ثم قال : قد أصبت  
ما فى نفسى وهونت على أمرى . وزوجها من ابن مسعود الهذلى

الذي روى عنها غناء أبيها وأخذ ينتحل أكثره لنفسه . وكانت  
وفاة ابن سريج عام ١٠٧ هـ (٧٢٦ م) .

ولم يكن الوارث لفن ابن سريج ابنته الباكية ولا زوجها  
المنتحل دون سواهما ، بل لقد اشترك معهما في ميراثه الكثيرون .  
وأخذ هذا التراث الفني يجتاز العصر محتفظاً بقيمته وقوته حتى لم  
يستطع العصر الذهبي في الخلافة العباسية أن يقلل من شأنه ، بل  
كان يزداد حسنا كلما تقادم به الزمن . وحسب ابن سريج أن  
يكون أحد ثلاثة هم المختارون من كل عصر بني أمية يوم طلب  
هارون الرشيد إلى أعلام غناء عصره أن يختاروا له مائة صوت  
هي خير ما في الغناء العربي ، ثم يختاروا منها عشرة ، ثم من العشرة  
ثلاثة ، فإذا بابن سريج أحد أصحاب تلك الألحان التي خلدت اسمه  
على مر الزمان .

## الغريض

هو أبو زيد أو أبو مروان عبد الملك الغريض مولى لسكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ، وهو من مولدى البربر ، بدأ حياته حائكا للثياب ، ثم غلب الفن على الحرفة والمهنة على الصناعة والموهبة على كل ما عداها ، وصحبه الجمال من جميع نواحيه فنسج حوله حاشية منسقة الوشى فما زال به حتى صنع من حنجرته مزماراً يرسل السحر صوتاً وغناء . كان حسن الوجه جميل المنظر طريف الخلق والخلق ، ولهذا دعى بالغريض وهو الرقيق اللين من كل شىء .

وعمدت به مولاته إلى ابن سريج لتخريجه . وما أن لمخ فيه أستاذه مخايل النجابة فى الفن وإلى جانبها منظر أخاذ ومظهر جذاب حتى ثارت نائرة الحقد فى نفسه عليه فطرده وطارده ، ولم تقلح الشفاعات بينهما . فتعلم الغريض فناً آخر هو فن النواح ، وتخرج فيه على أمر الباكيات النادبات ، والمآسى يومئذ على أشدها ، فقد جمع أهل البيت فجائع متوالية ولما تنقطع ما دام بنو أمية أحياء يحاولون استئصال هذه الشجرة الهاشمية من الدنيا ، وكلها جفت

دموع على شهيد بدا ما تم جديد . ومن هنا وجد الغريض لفته مكاناً  
خصيباً فكان يحجب عن النساء ثم يطلق لنفسه العنان فينوح نوحاً  
يقطع نياط القلوب . وأصبح واحد دهره في ذلك مما حمل ابن  
سريج على أن يلتمس لنفسه المخرج من هذا المنافس الخطير بابتكار  
لون آخر من الغناء .

وبلغ الغريض مكانة ابن سريج . فهذا جرير يقول : كان  
الغريض أحذق أهل زمانه بمكة بالغناء بعد ابن سريج ، وما زال  
أصحابنا لا يفرقون بينهما في الغناء . وهذه سكينه رضى الله عنها  
تقول عندما استمعت إلى الغريض وابن سريج يغني كل منهما  
( عوجي علينا ربة الهودج ) : والله ما أفرق بينكما وما مثلكما  
عندي إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجوارى الحسان  
لا يدرى أى ذلك أحسن .

والحق ما نقله المؤرخون من حكم بعض أهل البصيرة بالفن  
في ذلك العصر ، وهو أن الغريض أشجى غناء وأن ابن سريج  
أحسن صنعة وإتقاناً .

وكان الحجاج يسمعون الغريض يتغنى في الجاهل والمنعطفات  
الصحراوية أو على رموس الجبال فيقفون الركب مشدوهين والهين  
ويقول بعضهم لبعض : لعل هذا صوت بعض الحجاج من  
مؤمني الجن .

ولقد أثبت الغريض وابن سريج ومعبد يوماً أن الفن قادر  
على أن يتحكم في عاطفة أمير فيحمله على تغيير قرار أصدره . فلأمر  
ما أراد أمير مكة نافع بن علقمة نفي أولئك المغنين فاجتمع هؤلاء  
الفرسان الثلاثة فوق أبي قبيس آخر ليلة قبيل رحيلهم وأطلقوا  
ثلاثة ألحان بلغ من تأثيرها أن جعلت سكان مكة يفرعون إلى  
الأمير مستصرخين ومستشفعين ، فغير قراره وأقر إقامتهم .

ويتحدث معبد عن الغريض وأنه قام برحلة من المدينة  
إلى مكة ليستمع إلى غنائه في قول جميل :

وما أنس م الأشياء لأنس شادناً بمكة مكحولاً أسىلاً مداًمه  
فلما وصل إلى مكة ودل على داره أخذ يطرق بابها على  
الغريض فلم يجبه أحد . فطرقها بغناء حنجرتة ، بدلاً من دق يده  
وقرع عصاه فلم يفلح ، وكاد ينصرف يائساً لولا أن صائحاً نادى  
به واستدعاه . وما هو إلا الغريض يغنى :

وما أنس م الأشياء لأنس قولها وقد قربت نضوى أمصر تريد  
قال معبد : فلقد سمعت شيئاً لم أسمع أحسن منه وقصر  
إلى نفسي وعلمت فضيلته على بما أحس من نفسه وقلت إنه لحرى  
بالاستتار من الناس تنزيهاً لنفسه وتعظيماً لقدره وإن مثله لا يستحق  
الابتذال ولا أن تتداوله الرجال فأردت الانصراف إلى المدينة  
راجعاً فلما كنت غير بعيد إذا بصائح يصيح بي يا معبد أنظر أكلبك



فرجعت فقال لي إن الغريص يدعوك فأسرعت فرحاً فدنوت من  
الباب فقال لي أتحب الدخول فقلت وهل إلى ذلك من سبيل !!  
فقرع الباب ففتح فقال لي أدخل ولا تطل الجلوس فدخلت فإذا  
شمس طالعة في بيت فسلمت فرد السلام ثم قال اجلس ، فإذا أنبل  
الناس وأحسنهم وجهاً وخلقاً وخلقاً ، فقال يا معبد كيف طرأت  
إلى مكة ؟ فقلت جعلت فداك وكيف عرفتني ؟ فقال بصوتك فقلت  
وكيف وأنت لم تسمعه قط ؟ قال لما غنيت عرفتك به وقلت إن كان  
معبد في الدنيا فهذا . ثم قال لي يا أبا عباد لولا ملالة الحديث وثقل  
إطالة الجلوس لاستكثرت منك فاعذر ، فخرجت من عنده وإنه  
لأجل الناس عندي ، ورجعت إلى المدينة فتحدثت بحديثه وعجبت  
من فطنته وقيافته فما رأيت إنساناً إلا وهو أجلّ منه في عيني .

وها أنت تلس معنا في هذه القصة حقيقة لامرية فيها وهي أن  
ما كان يتوقعه ابن سريج من نباهة الغريص وعلو شأنه قد أصبح  
أمراً واقعاً ، مريراً أو حلواً على حد سواء . وحسبك أن معبدأ  
علم الغناء في التاريخ العربي يحج إليه في مكة ، ثم هو يتدلل بعد ذلك  
ويتجنى ولا يطيل الجلوس معه ، ويخاطبه في اختصار واقتصاد ،  
كل ذلك ومعبد يرى فيه ملك الفن الذي يحق له هذا التمتع وهذا  
الدلال ولا يجد في نفسه عليه ولا يحقد . وهل نقص معبدأ من  
قدره أن يقوم برحلة يفيد منها ويستزيد بها ، ثم يعترف بعد ذلك

بالفضل لأهله في غير موارد ولا جود ؟ ألا فليكن كذلك  
الفنان الحر الطليق ، الذي يلتمس جوهر الفن من كل بحر ، وثماره  
في كل روض ، ولو كان الذي يلتمسه عنده أقل منه شهرة  
أو أدنى شأنًا .

ولئن كان معبد قد صنع هذا وترك لنا هذه العبرة فما كان  
صاحبه الغريص بأقل منه شأنًا في هذا الباب ، فقد استمع ليلة  
إلى رهبان في دير وقد أطلقوا لأنفسهم العنان في ترنياتهم وتراتيلهم  
فأعجبتهم الموسيقى وأطربه اللحن ، فأصغى إليه حتى حفظه ووعاه  
ثم نسج على منواله في شعر عربي هو :

يا أم بكر جبك البادي لا تصرميني إنني غاد  
جد الرحيل وحثني صبحي وأريد إمتاعاً من الزاد

وإنما يصنع الغريص ومعبد مثل هذا ، فيأخذ كل منهما عن  
صاحبه أو يأخذان عن غيرهما ، لأن الأمم في أوج قوتها تأخذ  
من كل جديد بنصيب حتى تقتبس كل منافع الدنيا وتجمع كنوزها  
وترحب بالإصغاء إلى كل ما يتجدد فيها دون أن تغلق الآذان  
عن هبات الطبيعة وثمار الحضارات ، وهي بعد هذا الإصغاء  
والاستماع مطلقة الحرية في أن تأخذ بما يصلح لها وما ينهض  
بشأنها .

وقد نبه شأن الغريز حتى غنى بحضرة الخليفة الوليد بن  
عبد الملك . ويلوح لنا أن الحياة بمكة تدافعت به في جزرها ومدها ،  
ولم يأمن الإقامة بها في جوار نافع بن علقمة ، ولم يشفع تأمينه إياه  
على أن يقيم بمكة مطمئناً ، فرحل إلى اليمن ، مثقلاً معبأً بأمراض  
عصية ، كما يبدو لنا ، وكانت فيها نهايته إثر نوبة أصابته في حفل  
غنائى صمت بعدها إلى الأبد .

وكانت وفاته في عهد سليمان بن عبد الملك .

## معبد

هو أبو عباد معبد بن وهب مولى عبد الرحمن بن قطن .  
نشأ بالمدينة وانتسب إليها . وبلغ معبد في سماء الشهرة ما لم يبلغه  
متقدم ولا متأخر ، وأصبح مثلاً يضرب في التشبيه والتظرف  
والثناء على كل مغن يبلغ الغاية في فنه فيقال معبد زمانه وقد يكون  
ضارب المثل أو المادح ممن لا يعرفون عن معبد أكثر من اسمه .

وتطالعنا في نشأة معبد الغنائية بادرة تكشف عن ناحية من  
نواحي العظمة في مثل هذه الشخصية الكبيرة . حدث معبد عن  
نفسه قال : « كنت غلاماً مملوكاً لآل قطن مولى بني مخزوم ، وكنت  
أتلقي الغنم بظهر الحرة ، وكانوا تجاراً أعاجل لهم التجارة في ذلك ،  
فأتى صخرة بالحرة ملقاة — بالليل — فأستند إليها . فأسمع وأنا  
نائم صوتاً يجري في مسامعي فأقوم من النوم فأحكيه ، فهذا كان  
مبدأ غنائي » .

هذا هو الإيحاء الذاتي الذي يكشف عن الميل الطبيعي في  
الفنان ، وعن الموهبة المتطلعة منذ الصبا إلى الجمال الصوتي والبراعة  
فيه . فهي إن دلت على شيء فهي على أن معبد كان بطبعه في طبيعة

أرباب الغناء وأعلام الموسيقى . وقد كانت خواطره تهجس في المنام بما تطمح إليه آماله في اليقظة . وهذه البدايات الباكرة والبادرة الأولى تجرى كثيراً في حياة الموهوبين على اختلاف ألوان نبوغهم . وهكذا كان معبد أستاذ نفسه أولاً ، يروى عن فطرته ويقلد وحيها في اليقظة بعد أن يتخيله طيفاً في المنام . ثم أتبع له بعد ذلك أن يتصل بنشيط الفارسي وسائب خاثر فيأخذ عنهما مادته الأولى . على أنه منذ مطلع فجر الصبا قد زاول مهنة الغناء ودل بإجادته على ما ينتظره من مستقبل بعيد المدى .

حدثوا أن ابن عتيق عاد من مكة إلى المدينة ومعه ابن سريج من فحول المغنين فأسمعوه غناء معبد الصبي إذ ذاك وسألوه رأيه فيه فقال : إن عاش كان مغنى بلاده . وقد صدقت فراسته .

كان والد معبد أسود اللون أما هو فكان خلاصياً (١) . وكان في خلقته مديد القامة أحول . وقد تبين آنفاً أنه نشأ في العبودية والعدم ورعى الغنم ، فما كان شيء من ذلك ليحول دون نمو موهبته وتجلي نبوغه وابتسام الحظ له حتى يسمعه الأمير والخليفة وينقل التاريخ محاسنه من عصر إلى عصر ، وذلك شاهد بأن العبقرية من صنع الله لا شأن لها بأحداث الزمان ولا تفاوت الأنساب والأعراق .

(١) الخلاصى الولد من أبوين أسود وأبيض .

ولعل القصة التالية توضح لنا كيف كان الصبا في حياة معبد  
يشف عن عبقرية منتظرة يخشاها أكبر مغنيين في عصرهما ويحسبان  
لها حسابا . فقد خرج ابن سريج والغريص إلى المدينة ينشدان  
معروف أهلها الذين ينعمون في دعة الحياة ورغد العيش . وكانت  
مكاتبهما الغنائية غير مجهولة . فلما دنوا منها تقدما يرتادان منزلا  
عند المغسلة التي كانت تغسل فيها الثياب فرأيا غلاما ملتحفاً يازار  
وقد ألقى طرفه على رأسه وييده جبالة يتصيد بها الطير ، وهو  
يتغنى بهذا البيت :

القصر فالنخل فالجناء بينهما

أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

ولم يكن هذا الغلام إلا معبداً فلما سمعه ابن سريج والغريص  
مالا إليه واستعاداه أغنيته فراعهما أن يسما شيئاً يفوق  
ما عندهما ، وكأنما لم يسما بمثله من قبل . فسأل أحدهما صاحبه :  
هل سمعت كاليوم قط ؟ قال : لا والله فما رأيك ؟ قال ابن سريج  
هذا غناء غلام يصيد الطير خارج المدينة فكيف بمن فيها !! ثم دعى  
على والدته بالشكل إن لم يرجع . ففكر اراجعين .

فإذا كانت هذه حادثة معبد فكيف إذن كان شبابه وكهولته؟  
من الخير لنا أن نمضى قدماً مع الذين عاصروه وتحذوا عنه ،  
وفي طليعتهم المغنون أنفسهم الذين حدثونا عنه في مختلف أطوار

حياته ، وكانوا أقرب إلى العدل في تقدير فنه وتقويم غناؤه . على أن معبداً كان أسبق الجميع إلى الإيمان بما حباه به الله من موهبة لم يبلغ فيها أحد شأوه ، فلو حاول أحد أن يمتدحه بما هو دون قدره عدّ ذلك ضرباً من الانتقاص والاهتضام .

قال معبد: قدمت مكة فذهب بي قرشي إلى الغريض فدخلنا عليه وهو متصبح<sup>(١)</sup> فانتهبه من صديحته وقعد فسلم عليه القرشي وقال له هذا معبد قد أتيتك به وأنا أحب أن تسمع منه . قال هات . فغنيته أصواتا فقال إنك يا معبد للمليح الغناء ، فأحفظني<sup>(٢)</sup> ذلك فحثت على ركبتى ثم غنيته من صنعتي عشرين صوتا لم يسمع بمثله قط وهو مطرق واجم قد تغير لونه حسداً وخجلاً . فإن صحت هذه الرواية كانت هذه الزيارة لمكة مسبوقة بتلك القصة الماثلة التي تراها في حياة الغريض .

وقد تناول الرواة معبدا وابن سريج فحدثوا أن معبدا كان خارجاً إلى مكة في بعض أسفاره فسمع في طريقه غناء في « بطن مر » على مرحلة من مكة ، فقصد إليه ، فإذا رجل جالس على شاطئ بركة مرجل شعره حسن الوجه والهيئة عليه دراعة<sup>(٣)</sup> قد صبغها بزعفران وهو يغنى :

(١) التصبح النوم بالقدادة

(٢) أحفظني أغضيني

(٣) الدراعة جبة مشقوقة المقدم

حنّ قلبي من بعد ما قد أنابا      ودعا الهمُّ شجوه فأجابا  
ذاك من منزل لسلي خلاء      لابس من خلائه جلبابا  
فقرع معبد بعصاه وغنى :

منع الحياة من الرجال ونفعها      حدق قلبها النساء مراض  
وكان أفتدة الرجال إذا رأوا      حدق النساء لنسبها<sup>(١)</sup> أغراض  
فقال له ابن سريج بالله أنت معبد؟ قال نعم . وبالله أنت  
ابن سريج؟ قال نعم . قال ابن سريج والله لو عرفتك ما غنيت  
بين يديك .

ففي هاتين القصتين معاً نرى كلا من الغريص وابن سريج يشهد  
لمعبد ، إلا أن شهادة أولهما لم تكن بلغة الإفصاح والتعبير ولكنها  
كانت باغة الهزيمة والحسد وقد ترجم عنهما امتقاع اللون واصفرار  
الوجه ، أما الشهادة في القصة الأخرى فهي واضحة قد أفصح فيها  
التجاوب وأبان عنها ثناء ابن سريج على صاحبه وأنه ما كان ليغني  
بين يديه لو علم أنه معبد . وهكذا نرى ابن سريج لا يمنعه مقامه  
في السن والهن والتقدم من الصراحة والإقرار لدى الفضل بفضله .  
وكذلك كانت الفنون خليقة بالحياة ، في عهد كله قوة  
وحوية وصراحة .

ولما بلغ معبد النضج الفني ، وكان الغناء العربي قد استوى على  
سوقه وتجددت نواحيه نوعاً ما فامتزجت الطبيعة العربية بما وصل

(١) النبيل : السهام .



إليها من ثقافة فنية ، أصبحنا نرى في معبد مغنياً ومعلم غناء وموسيقياً  
ومدرسة موسيقى ، يقصد إليه المتعششون إلى المورد العذب من  
هذا الفن ، كما يعهد إليه الأشراف والسراة بتعليم الجوارى  
وتخريجهن . وأثبت معبد أنه ناجح في مهنته التعليمية موفق فيها توفيقه  
في صناعته . وهكذا كان يختلف إليه المغنون من كل حذب  
يأخذون عنه ويتعلمون منه ، فيتلقاهم منشرح الصدر ، طلق المحيا ،  
مخلص النية في إرشادهم ، صادق النزعة في تخريجهم ، لا يبخل على  
قصاصه بفن يجيده وعلم يتقنه ، بل لقد كان يتحمل المشقة في هذه  
السبيل راضياً مرتاحاً .

كان معبد قد علم جارية من جوارى الحجاز الغناء تدعى « ظبية »  
وعنى بتخريجها فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة  
وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت  
به كل مذهب وغلبت عليه ، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهة  
من الزمان ، وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها ، فكان لمحبتة إياها  
وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ، ويظهر  
التعصب له والميل إليه والتقديم لغنائه على سائر أغاني أهل عصره  
إلى أن عرف ذلك منه ، وبلغ معبد أخبره ، فخرج من مكة حتى  
أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل قد خرج عنها في ذلك  
اليوم إلى الأهواز ، فاكترى سفينة ، وجاء معبد يلتمس سفينة

ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل وليس يعرف  
أحد منهما صاحبه . فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه في مؤخر  
السفينة ففعل ، وانحدروا ، فلما صاروا في فم نهر الأبله (١) تغدوا  
وشربوا ، وأمر جواريه فغنين ، ومعبد ساكت وهو في ثياب  
السفر وعليه فرو وخفان غليظان ، وزى جاف من زى أهل  
الحجاز ، إلى أن غنت إحدى الجوارى من غناء معبد :

بانت سعاد وأمسي حبيلها انصرما

واحتلت العور فالأجرع من إضما (٢)

فلم تجد أداهه ، فصاح بها معبد : يا جارية ! إن غناك هذا  
ليس بمستقيم . فقال له مولاها — وقد غضب — وأنت ما يدريك  
الغناء ما هو ؟ لم لا تمسك وتلزم شأنك ؟ فأمسك معبد ثم غنت  
الجارية أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت ولا يتكلم حتى غنت  
من أصواته :

بابنة الأزديّ قلبي كئيب مستهام عندها ما ينب  
ولقد لاموا فقلت دعوني إن من تهون عنه حبيب  
إنما أبل عظامي وجسمي حبها والحب شيء عجيب

(١) الأبله بلد على شاطئ دجلة .

(٢) الغور الأرض المظننة . والأجرع الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها .

وإضم واد بجبل تهامة وهو الذي فيه المدينة .

فأخلت ببعضه ، فقال لها معبد : يا جارية ! لقد أخلت بهذا  
الصوت إخلالاً شديداً . فغضب الرجل وقال له : ويلك ما أنت  
والغناء ألا تكف عن هذا الفضول ؟ فأمسك معبد . وغنى الجوارى  
ملياً ، ثم غنت إحداهن من غنائها :

خليلى عوجاً منكماً ساعة معي

على الربيع نقضى حاجة ونودع

ولا تعجلانى أن ألم بدمنة

لعزة لاحت لى ييلقاء بلقع

وقولا لقلب قد سلا : راجع الهوى

وللعين : أذرى من دموعك أو دعى

فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تقومين على  
أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا  
الفضول بوجه ولا حيلة ! أقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من  
السفينة . فأمسك معبد ، حتى إذا سكنت الجوارى اندفع يغنى  
الصوت الأول حتى فرغ منه . فصاح الجوارى : أحسنت والله  
يا رجل فأعده . فقال : لا والله ولا كرامة . ثم اندفع يغنى الثانى .  
فقلن لسيدهن : ويحك ! هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن  
يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذه عنه فإنه إن فاتنا لم نجد  
مثله أبداً . فقال : قد سمعتن سوء رده عليكم وأنا خائف مثلكن

منه ، وقد أسلفناه الإساءة فاصبرن حتى نداريه . ثم غنى معبد  
الصوت الثالث فزلزل عليهم الأرض . فوثب الرجل فخرج إليه  
وقبل رأسه وقال : يا سيدي أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك .  
قال : فبهك لم تعرف موضعي قد كان ينبغي لك أن تتثبت  
ولا تسرع إلى بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأت  
وأنا أعتذر إليك مما جرى وأسألك أن تنزل إليّ وتختلط بي .  
فقال أما الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه ، فقال له الرجل :  
من أخذت هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين  
أخذه جواريك ؟ فقال أخذه من جارية كانت لي ابتاعها رجل  
من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت من أبي عباد معبد  
وعنى بتخريجها فكانت تحل مني محل الروح من الجسد ، ثم استأثر  
الله عز وجل بها ، وبقي هؤلاء الجوارى وهن من تعليمها ، فأنا  
إلى الآن أتعصب لمعبد وأفضله على المغنين جميعاً ، وأفضل صنعته  
على كل صنعة . فقال له معبد : أفتعرفني ؟ قال : لا . فصك معبد  
بيده صلته ثم قال : فأنا والله معبد ، وإليك قدمت من الحجاز  
ووافيت البصرة ، نزلت السفينة لأقصدك بالأهواز ووالله لا قصر  
في جواريك هؤلاء ولأجعلن لك في كل واحدة منهن خلفاً من  
الماضية . فأكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها  
ويقولون كتمتنا نفسك حتى جفوناك في المخاطبة وأسأنا عشرتك

وأنت سيدنا ومن تتمنى على الله أن نلقاه . ثم غير الرجل زيه ،  
وخلع عليه عدة خلع ، وأعطاه في وقته ثلاثمائة دينار وطيباً وهدايا  
بمثلها ، وانحدر معه إلى الأهواز ، فأقام عنده حتى رضى حذق  
جواريه وما أخذنه عنه ، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز .

وإذا كنا نضفي على معبد حلة المعلم المربي ، فلقد كان خليقاً  
يوصف العالم الفنان الذى يحمل فى نفسه من الخلق السليم ما يجعله  
أهلاً لهذه القمة الأدبية . فالعالم طالب علم من المهد إلى اللحد ،  
فهو يعطى ويأخذ ، ويعلم ويتعلم ، ويفيد ويستفيد ، دون أن يرى  
على نفسه غصاصة أو على مقامه هواناً ، حين يطوف بالأقاليم  
ويتنقل من مكان إلى آخر ليأخذ من مدرسة التجارب ما يضيفه  
إلى مدرسته ، ويروى عن زملائه وأنداده أحسن ما عندهم وخير  
مالديهم ، ويبادلهم سحراً بسحر ، وغناءً بغناء ، ويقوم بينهم الأيام  
والليالى حتى يعتصر شجرتهم ، ويحصل ثمرتهم ، ويعود غير مجرود  
الفضل ولا مجهول المنزلة .

ولمعبد فى مثل هذا أساليب يجلى عنها فى عبارة كريمة فىقول :  
غنيت فأعجبني غنائى وأعجب الناس وذهب لى به صيت وذكرك ،  
فقلت لآتين مكة فلا سمعن من المغنين بها ولا غنينهم ولا تعرفن إليهم ،  
فابتعت حماراً ، فخرجت عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بعت حمارى  
وسألت عن المغنين أين يجتمعون ، فقيل فى بيت فلان ، فحشت

إلى منزله بالجلس (١) ، فقرعت الباب ، فقال من هذا ؟ فقلت أنظر عفاك الله . فدنا وهو يسبح ويستعيز ، كأنه يخاف ففتح فقال من أنت عفاك الله ؟ فقلت رجل من أهل المدينة . قال فما حاجتك ؟ قلت أنا رجل اشتهى الغناء وأزعم أنى أعرف منه شيئاً ، وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك ، وقد أحببت أن تنزلى فى جانب منزلك وتخلطنى بهم فإنه لا مئونة عليك ولا عليهم منى . فلوى شيئاً ثم قال انزل على بركة الله . فنقلت متاعى فنزلت فى جانب حجرته . ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد ، حتى اجتمعوا فأنكرونى وقالوا من هذا الرجل ؟ قال رجل من أهل المدينة خفيف يشتهى الغناء ويطرب له ، ليس عليكم منه عناء ولا مكروه . فرحبوا بى وكلمتهم ثم انبسطوا وسمروا وغنوا ، فجعلت أعجب بغنائهم وأظهر ذلك لهم ويعجبهم منى ، حتى أقمنا أياماً وأخذت من غنائهم — وهم لا يدرون — أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن سريج إنى فديتك أمسك على صوتك :

قل لهند وترها قبل شحط (٢) النوى غدا  
 إن تجودى فطالما بت ليلى مسهدا  
 قال أو تحسن شيئاً . قلت تنظر (٣) وعسى أن أصنع شيئاً ،  
 واندفعت فغنيته . فصاح وصاحوا وقالوا أحسنت قاتلك الله . قلت

(١) الغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .

(٢) الشحط البعد . (٣) تنظر تأن .

فأمسك على صوت كذا ، فأمسكوه فغنيتته فازدادوا عجباً وصياحاً .  
فما تركت واحداً منهم إلا غنيتته من غنائه أصواتاً قد تخيرتها .  
فصاحوا حتى علت أصواتهم وهرفوا بي (١) لأنت أحسن بأداء  
غنائنا عنا منا ، قلت فأمسكوا عليّ ولا تضحكوا بي حتى تسمعوا  
من غنائى . فأمسكوا عليّ فغنيت صوتاً وآخر فوثبوا إلىّ وقالوا  
نحلف بالله إن لك لصيتاً واسماً وذكرآ ، وإن لك فيما ههنا لسهماً  
عظيماً فن أنت ؟ قلت معبد . فقبلوا رأسى وقالوا لفقت علينا وكنا  
نتهاون بك ولا نعدك شيئاً وأنت أنت . فأقمت عندهم شهراً أخذ  
منهم ويأخذون منى .

وكان معبد سمح الطباع كريم السجايا ، رحيب النفس ، وهذا  
هو الذى بلغ به الشهرة الطائرة والصيت البعيد فيما كان له من فن  
رفيع بطانته الأخلاق وحاشيته الشائل الرقيقة ، ومعارفه مجموعة  
المكارم والفضائل التى بوأته منادمة الملوك ، يستدعيه الخليفة على  
البريد ، ويستشرف إليه البلد البعيد ، وينيله الحظوة والزلفى  
فلا يعود إلى وطنه إلا وهو ملىء بالثراء ، غنى بموفور العطاء .  
وكم نادى والى المدينة وغانه . وما زال يعلو به الجدى حتى أصبح  
ريحانة الغناء فى دولة بنى أمية ونديم الخليفة الوليد بن يزيد .  
اشتاق الوليد إليه يوماً فوجه البريد إلى المدينة فأتى به . وأمر

(١) هرف به مدح حتى جاوز القدر فى الثناء والإطراء .

الوليد ببركة قد هيئت له فملتت ماء ورد خلط بمسك وزعفران .  
وأتى بمعبد فأمر به فأجلسه والبركة بينهما ، وبينهما ستر قد أرخى ،  
فقال له غنى يا معبد :

لحفي على فتية ذل الزمان لهم فما أصابهم إلا بما شاءوا  
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عداء  
فغناه إياه . فرفع الوليد الستر ، ورفع ملاءة مطيبة كانت عليه  
وقذف نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج فاستقبله الجوارى بثياب  
غير الثياب الأولى . ثم شرب وسقى معبدا . ثم قال غنى يا معبد :  
يا ربع مالك لا تجيب متيا قد عاد نحوك زائراً ومسلماً  
جاءتك كل سحابة هطالة حتى ترى عن زهرة متبسماً  
لو كنت تدري من دعاك أجبته وبكيت من حرق عليه إذن دما  
فغناه فدعا له بخمسة عشر ألف دينار فصبها بين يديه ، ثم قال :  
انصرف إلى أهلك واكتم ما رأيت .

وما زال معبد بين غدوة وروحة إلى قصر الخليفة حتى بلغ  
منه الكبر وضعف صوته وأدركه الإعياء ، فنقله الخليفة إلى قصره  
وأشرف على تمر يرضه . فلما فاضت روحه شيعه الخليفة مع أخيه  
والجنازة بينهما في تكريم وتوديع مؤثر من القصر إلى مشوى القبر .  
وقد شاء القدر أن يضيف إلى مواساة الخليفة رثاء الفن  
ودموعه حين قامت سلامة القس بحق الفنان على الفنان فاشتركت



بقلبها الحزين ودموعها الهامية ونواحا البليغ في تأبين علم الغناء  
وسراجه المشرق في دولة بني أمية .

ولندع المجال لابنه كردم يصف لنا ذلك كله بلغته وعبارته  
الموجزة قال : مات أبي وهو في عسكر الوليد بن يزيد وأنا معه ،  
فنظرت حين أخرج نعشه إلى سلامة القس وقد أضرب الناس عنه  
ينظرون إليها وهي آخذة بعمود السرير وهي تبكي أبي وتقول :

قد لعمرى بت ليلي	كأخي الداء الوجيع
ونجىّ الهم مني	بات أدنى من ضجيعي
كلما أبصرت ربعا	خالياً فاضت دموعي
قد خلا من سيد كا	ن لنا غير مضيع
لا تلنا إن خشعنا	أو هممنا بخشوع

قال كردم وكان يزيد أمر أبي أن يعلها هذا الصوت فعلها  
إياه فندبته به يومئذ . ولقد رأيت الوليد بن يزيد والغمر أخاه  
متجردين في قيصين ورداين يمشيان بين يدي سريره حتى أخرج  
من دار الوليد لأنه تولى أمره وأخرجه من داره إلى موضع قبره .

\*\*\*

كان معبد عظيم الاعتداد بنعمة الله عليه في فنه . وكان يعتقد  
أن أداء ألحانه ليس من الأمور الهيئات ، ولا من اليسر بحيث  
تخلو من التراكم التي تحتاج إلى الدقة والعناية . وفي هذا يقول :

« لقد صنعت ألحاناً ، لا يقدر شعبان ممتلىء ولا سقاء يحمل  
قربة على التزئم بها . ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر المتكىء أن يترنم  
بها حتى يقعد مستوفزاً (١) ولا القاعد حتى يقوم » .

ولعمري لم تكذب عليه نفسه ولم يخطئه حظه ، فقد تقدم  
إلى مسابقة فنية في دار ابن صفوان بمكة ، ولكن بعد فوات  
الموعد ومنع الحاجب إياه من الدخول ، فما كان ذلك ليمنعه عن  
أن يرفع عقيرته بالغناء ولو من خلف الدار ما دام قد منع  
من أن يأتي البيوت من أبوابها ، فدخل صوته الدار بلا استئذان ،  
وعرف أنه معبد فخرجت الجائزة إلى من لم يدخل إليها .

أما طريقته في وضع ألحانه فقد أجاب سائله عنها بقوله :  
« أرثحل قعودي وأوقع بالقضيب على رحلي وأترنم عليه بالشعر  
حتى يستوى لي الصوت » .

شخص معبد مرة إلى مكة واشتد عليه الحر والعطش في الطريق  
فانتهى إلى خباء فيه رجل أسود وإذا بجرة ماء قد بردت فمال  
إليها ، وقال للأسود اسقني من الماء يا هذا . فقال لا . فقال له  
أتأذن لي في الكن ساعة ؟ فقال لا . فأناخ معبد ناقته ولجأ إلى ظلها  
فاستتر به وأخذ يترنم بصوته ( القصر فالنخل فالجماء بينهما . . . )  
فما سمع الأسود ذلك حتى وثب إليه واحتمله إلى داخل الخباء ،  
وسقاه حتى ارتوى ، وأقام عنده إلى وقت الرواح . ولما أراد

(١) استوفز في قعدته : انتصب فيها .

الرحيل قال له الأسود بأبي أنت وأمي الحر شديد ولا آمن عليك  
فأذن لي أن أحمل معك قربة من ماء على عنقي وأسعى بها معك  
فكلما عطشت سقيتك صحناً وغنيتني صوتاً . فقال معبد ذاك لك .  
وما فارقه حتى بلغ المنزل ، هذا يسقى وذلك يغني .

فانظر إلى معبد كيف جعل من الموسيقى سحابة رحمة ، تحي  
موات القلب الكنود ، وتدر يد البخيل الشحيح فتجعله سمحاً كريماً ،  
وتحني رأس الأبي المستعصى وتجعله عبداً سقاء يسقى المطرب ماء  
ليسقيه المطرب غناء . ولكن أي الشرايين كان أعذب وأبقى !! إن  
معبد لم يسق الأسود وحده في طرق الصحراء بل سقى مدينة العصر  
الأموي في صحراء الحياة التي ختم قصته فيها عام ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) .

\*\*\*

لقد انطوى ديوان معبد في عالم الغناء فتغنى بذكره أمثال  
البحري وأبي تمام من الشعراء . وقد خلف « المعبديات » تراثاً  
لتلاميذه وفي طليعتهم ابن عائشة ومالك وسلامة القس وحبابة  
ويونس الكاتب وسياط .

ولئن كانت تلك الألحان الساحرة لم تستطع أصداؤها أن تعيش  
على الدهر فقد بقي اسم صاحبها ليكون مضرب الأمثال ، وحدثاً  
للعصور والأجيال .

## حنين الحيرى

هو أبو كعب بن بلوع الملقب بالحيرى نسبة إلى الحيرة عاصمة العراق العربى فى العصر الجاهلى . وهو مسيحي مختلف فى أصله ، فمن قائل إنه عبادى من تميم . ومن قائل إنه من بنى الحرث ابن كعب . ويقول ثالث إنه ينتمى إلى أسرة من بقية من طسم وجديس نزلت فى بنى الحرث بن كعب فانتتم إليهم ونسبت لهم . وكان حنين هذا شاعراً ومغنياً من فحول المغنين . وله صنعة مأثورة مشهودة فيها . وكان مسكنه الحيرة ، يكرى جمالا إلى الشام وسواها . وبما يذكر من غنائه مارواه إسحق الموصلى من أن حنيئاً غنى هشاماً بن عبد الملك وهو سائر إلى الحج :

صاح هل أبصرت بالحب	تين من أسماء نارا
موهنا شبت لعينيه	ك ولم توقد نهرا
كتلالى البرق فى المز	ن إذا البرق استطارا
أذكرتنى الوصل من سع	دى وأياماً قصارا

وقد قيل لحنين أنت تغنى منذ خمسين سنة ما تركت لكريم  
ملاً ولا داراً ولا عقاراً إلا أتيت عليه . فقال : بأى أتم ، إنما  
هى أنفاسى أقسمها بين الناس أفتلومنى أن أغلى بها الثمن !! .

وهو لعمرى جواب طريف يليق بفنان ويجدر بموسيقار ،  
ويصلح أن يكون تعبيراً لمغن يشعر بقيمة نفسه فيقدرها قدرها .  
وكثيراً ما يستكثر الناس على الفنان ما ينال من تقدير وما يحوز  
من ثراء ، وقد نسى هؤلاء أن المغنى لا يمنحهم حنجرته ، ولا يهبهم  
صوته فحسب ، وإنما يقسم عليهم أنفاس العمر وومضات الحياة ،  
فإذا أسدوا إليه شيئاً من المادة فهو ضئيل أعطى في جليل ، ويسير  
منح في كثير ، ونقود هي وإن عظمت فما أهون نسبتها إلى ما يبذل  
الفنان من الكفاح في إخراج ثمرة فنية مقتطفة من شجرة وجوده  
وعبقريته . وحين نقول هذا إنما نعني الفنان الأصيل المنتج الذي  
يكد القريحة ، ويحصل التراث ، ويستجمع الأساليب ، ويحسن  
الموازنة والمقارنة فيعرض على الناس متعاً روحية خالدة .

كان حنين في حداثة سنة يحمل الفواكه والأزهار بالحيرة .  
وكأنما عكست عليه حلاوتها وعطرها ، فهو بارع التحية ، حلو  
الدعابة ، جم الظرف ، وضئء المحيا . فيه جاذبية ورشاقة جعلته  
محبباً إلى مياسير أهل الكوفة ، وبخاصة أصحاب القيان والمطربين .  
وكانت حياته معهم المدرسة التي تلقن فيها دروس الغناء والتدريب  
على الأداء . فكان يستمع إلى الغناء ، ويلتهمه ، وتفتى نفسه فيه .  
وكان السماع يستغرق نواحي نفسه ، ويسيطر على جميع مشاعره  
فلا يكاد يرد على مُسلم ولا يتجاوب مع متكلم ما دام على تلك

الحال ، حتى حفظ أصواتاً وألحاناً ، فأخذ يلقيها على الناس .  
وكان بفطرته موهوباً بحسن الصوت ، فظهرت مزية الغناء فيه على  
بقية مزاياه الأخرى . وقد رحل إلى عمر بن داود الوادى ثم إلى حكم  
الوادى فحفظ عنهما الكثير حتى أصبح من أعلام هذه الصناعة  
المعدودين وأقطابها المرموقين . وقد أسعده الطالع فلم يكن بالعراق  
من يساميه ، فتفرد بالنبوغ ، فكان واحد عصره وبلبل إقليسه .

ويروى التاريخ من طرائف حنين ما يدلنا على ظاهرة علمية  
فنية في وقت واحد ، وذلك أن الغناء السليم الرفيع في العواصم  
والمدن الكبرى كان يقابله في بعض البيئات والأوساط من لا يدين  
له بالتقديم والتكريم ، ومن لا يفهمه إذا سمعه ولا يدرك محاسنه  
في قليل ولا كثير ، وإنما يلتمس الطرب عند المهرجين وخفاف  
المؤونة ممن تعينهم الرقصة التافهة والجولة القرية المدى . والتاريخ  
يحمد الله معنا على أن هذا الوباء من الضعف الفنى بحيث لم تكن  
تنصره الكثرة الغالبة في تلك المدن العربية التي نعتز بتقدمها  
وسمو الأذواق فيها وتقديرها للجيد العميق الرفيع من الأغاني  
ذات الفكرة الصائبة واللحن المصور والأداء المعبر . ولا يضيرنا  
بعد ذلك أمثال فتیان في حمص يحدثنا عنهم حنين فيقول :

« خرجت إلى حمص ألتس الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه  
شيئاً ، فسألت عن الفتیان وأين يجتمعون فقيل لى عليك بالحمامات

فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا . فحُتت إلى أحدها فدخلته فإذا فيه  
جماعة منهم ، فأنست وانبسطن وأخبرتهم أني غريب . ثم خرجوا  
وخرجت معهم . فذهبوا بي إلى منزل أحدهم . فلما قعدنا أتينا  
بالطعام فأكلنا وأتينا بالشراب فشربنا . فقلت لهم هل لكم في مغن  
يغنيكم ؟ قالوا ومن لنا بذلك ؟ قلت أنا لكم له ، هاتوا عوداً .  
فأوتيت به فابتدأت في هيات أبي عباد معبد فكأنما غنيت للحيطان ،  
لا فكهوا الغنائى ولا سروا به . فلقد ثقل عليهم غناء معبد لكثرة  
عمله وشدته وصعوبة مذهبه . فأخذت في غناء الغريض فإذا هو  
عندهم كلاشياء . وغنيت خفائف ابن سريج وأهزاج حكيم والأغانى  
التي لى . واجتهدت في أن يفهموا ، فلم يتحرك من القوم أحد  
وجعلوا يقولون : ليت أبا منبه قد جاءنا . فقلت في نفسي : أراني  
سأفتضح اليوم بأبي منبه فضيحة لم يفتضح أحد قط مثلها . فبينما نحن  
كذلك إذ جاء أبو منبه . وإذا هو شيخ عليه خفان أحمران كأنه  
جمال ، فوثبوا جميعاً عليه وقالوا : يا أبا منبه أبطأت علينا : وقداموا  
له طعاماً وشراباً ، وخنست (١) أنا حتى صرت كلاشياء خوفاً من  
أبي منبه . فأخذ العود ثم اندفع يغنى :

طرب البحر فاعبرى يا سفينة لا تشقى على رجال المدينة  
فأقبل القوم يصفقون ، ويهللون ويطربون . ثم أخذ في نحو  
هذا الغناء (السخيف) ، فقلت في نفسي : أتم ههنا ، لأن أصبحت

(١) خنس : تأخر

سالمًا لا أمسيت في هذه البلدة . فلما أصبحت شددت رحلي على  
ناقتي ورحلت متوجهاً إلى الحيرة وقلت :

ليت شعري متى تحب بي النا قة بين السدير والصنين  
محقباً ركوة وخبز رقاق وبقولا وقطعة من نون (١)  
لست أبغى زاداً سواها من الشا م وحسي علالة تكفيني  
فإذا أبت سالمًا قلت سحقاً وبعاداً لمعشر فارقوني ،  
وهناك أقصوصة تنطوي على دلالة لها أهميتها ، وذلك

أن ثمت غناء يعفو الله عنه - على حد تعبير عمر رضى الله عنه -  
حين يعيش في الجماعة ويقتبس من روحها ويهدف إلى مثلها العليا  
ويتزعم بغاياتها المنشودة ، فيبعث في النفوس حرارة الثقة والإيمان  
ويحمي فضيلتها وكرامتها ، أو يثير فيها وطنية وأريحية أو نخوة  
في الدفاع عن الحمى والذود عن الذمار ... وغناء لا يعفو الله عنه ،  
وذلك حين يسفّ إلى دنياات الأمور ، وإثارة دواعى الغرائز ،  
والحض على ما لا يليق ، مما كان وجوده سبباً في ظهور آراء  
تهدد فن الموسيقى والغناء بين الفينة والأخرى في بعض الأقطار  
أو بعض العصور الإسلامية .

وقد أودعت الطبيعة في الموسيقى من المقدرة على تصويرها  
وتصورها وتحليلها ما لو عرف الفنانون طريق الاستفادة منه لأمكنهم  
أن يجعلوا من هذا الفن الرفيع أداة إصلاح قوى ومصباح توجيه  
وتهذيب في أهمهم وشعوبهم .

(١) النون نوع من السمك



أما هذه الأقصوصة فهي ما ذكر ابن كنانة من أن خالداً  
ابن عبد الملك القسري حرم الغناء بالعراق في أيامه . ثم أذن للناس  
يوماً في الدخول عليه . فدخل إليه حنين ومعه عود تحت ثيابه  
فقال : أصالح الله الأمير ، كانت لي صناعة أعود بها على عيالي  
فخرمها الأمير فأضر ذلك بي وبهم . فقال الأمير : وما صناعتك ؟  
فكشف حنين عن عود وقال : هذا . فقال له خالد : غن . فحرك  
أوتاره وغنى :

أيها الشامت المعير بالدهر      سر أنت المبرأ الموفور (١)  
أم لديك العهد الوثيق من الأيا      م بل أنت جاهل مغرور  
من رأيت المنون خلدن أم من      ذا عليه من أن يضام خفير  
فبكي خالد وقال : قد أذنت لك وحدك خاصة ، فلا تجالسن  
سفيهاً ولا معربداً . فكان إذا دعى قال : أفیکم سفیه أو معربد ؟  
فإذا قيل له « لا » دخل .

وقد بلغ حنين من تفرده بالمرتبة الفنية الفذة ، أن يشهد له  
إسحق الموصلي وأن يرى فيه الشمس الساطعة في سماء الحيرة ،  
تختفي عند ظهورها النجوم ، فلم يكن بها غير حنين أما من عداه  
فلا شيء ، وليس في أسمائهم ما يصلح أن يقارن باسمه .

(١) المبرأ : يعني المبرأ من المصائب ، والموفور هو الذي لم يذهب من ماله  
ولا من حاله شيء .

ويحدثنا المؤرخون أن ابن سريج قدم الحيرة في ولاية  
بشر بن مروان للكوفة ومعه ثلثمائة دينار . فأتى بها منزل حنين  
وقال له أنا رجل من أهل الحجاز ، من أهل مكة ، بلغني طيب  
الحيرة وجودة ما فيها وحسن غنائك في هذا الشعر :

حننتي حانيات الدهر حتى      كأنى خاتل يدنو لصيد  
قريب الخطوي حسب من رآني      ولست مقيداً أنى بقيد

فخرجت بهذه الدنانير لأنفقها معك وعندك ، وتعاشر حتى تنفد ،  
وأنصرف إلى منزلي . فسأله عن اسمه ونسبه فغيرهما وانتمى إلى  
بني مخزوم . فأخذ حنين المال منه وقال موفر مالك عليك ، ولك  
عندنا كل ما يحتاج إليه مثلك ما نشطت للمقام عندنا ، فإذا دعيتك  
نفسك إلى بلدك جهزناك إليهم ورددنا عليك مالك . وأسكنه داراً  
كان ينفرد فيها . فمكث عنده شهرين لا يعلم حنين ولا أحد  
من أهله أنه يغنى . ففي ذات يوم صائف انصرف حنين من دار  
بشر بن مروان مع قيام الظهيرة فصار إلى باب الدار التي كان أنزل  
ابن سريج فيها فوجده مغلقاً ، فارتاب بذلك ودق الباب ، فلم يفتح  
له ، ولم يجبه أحد . فصار إلى منازل الحرم ، فلم يجد فيها ابنته  
ولا جواريتها ، ورأى ما بين الدار التي فيها الحرم ودار ابن سريج  
مفتوحاً . فانتضى سيفه ودخل الدار ليقتل ابنته . فلما دخلها رأى  
ابنته وجواريتها ، وقوفاً على باب السرداب وهنَّ يومئذٍ إليه

بالسكوت وتخفيف الوطاء . فلم يلتفت إلى إشارتهن لما تداخله ،  
إلى أن سمع ترنم ابن سريج بهذا الصوت :

وتركته جزر السباع ينشئه ما بين قلة رأسه والمعصم  
إن تغدفي (١) دوني القناع فإنني طب بأخذ الفارس المستائم

فألقى حنين السيف من يده وصاح به ، وقد عرفه من غير  
أن يكون قد رآه ولكن بالنعث والحذق : أبا يحيى جعلت فداءك ،  
أتيتنا بثلاثمائة دينار لتنفقها عندنا في الحيرة فوحد المسيح لا خرجت  
منها إلا ومعك ثلاثمائة دينار وثلاثمائة دينار سوى  
ما جئت به معك . ثم دخل إليه فعانقه ورحب به ولقيه بخلاف  
ما كان يلقاه به ، وسأله عن هذا الصوت فأخبره أنه صاغه في ذلك  
الوقت . فسار معه إلى بشر بن مروان فوصله بعشرة آلاف درهم  
أول مرة ، ثم وصله بعد ذلك بمثلها . فلما أراد الخروج رد عليه  
حنين ماله ، وجهزه ، ووصله بمقدار نفقته التي أنفقها من مكة  
إلى الحيرة . ورجع ابن سريج إلى أهله ، وقد أخذ جميع من كان  
في دار حنين منه هذا الصوت .

وهنا نشهد تبديلاً في حياة حنين ، فلم يعد ذلك الذي يشتري  
من المغنين صمتهم ، ويقصصهم عن وطنه كما صنع مع ابن محرز ،  
ولكنه أصبح رجلاً قائماً على قدميه واثقاً بنفسه مؤمناً بوجوده

(١) أغدفت المرأة قناعها أرسلته .

الفنى الذى لا يستطيع محوه ولا يخشى عليه خطر من المنافسة . فع  
ما لابن سريج من عظيم المكانة وبعد الصيت فإنه لم يعمل على  
التخاص منه بل ذهب به إلى الأمير ورده بكامل ماله .

ثم هذه الروح الطيبة بين الفنانين التى جعلت ابن سريج يطلب  
المزيد عند زميله ، ويقوم برحلة يتجشم فيها التنكر والنفقة ليستزيد  
فى فنه خبرة واطلاعاً مع ما كان فى الحجاز آنئذ من غزارة المادة  
الغنائية ووفرة أعلام هذه الصناعة بها . وما نلبث أن نرى فى حنين  
الأستاذ الذى انقلب هو وأسرته تلاميذ لابن سريج فى تلك الأشعار  
دون ما حقد أو حسد أو استهجان ، بل رواية مصحوبة بالإجلال  
والتقدير . فبمثل هؤلاء تزدهى العصور وتورق دوحة الفن .

وحين نتحدث عن التواضع فى الفن والتبادل بين أعلامه  
وأقطابه نرى هذا المظهر يتجلى ، لا بين حنين وابن سريج فحسب ،  
بل نرى أعلام الحجاز الثلاثة يتشوقون صاحبهم الرابع بالعراق  
ويعتزون به أخاً على بعد الدار ، بل يرثون لوحده ونأيه  
فيستدعونه إليهم ليسمعوا منه ويسمع منهم ، وتأخذ الحجاز عن  
العراق والعراق عن الحجاز . وهى لعمري زمالة ساحرة لها من  
الطرب فى النفس ما للغناء ، وألفة ومودة لها فى القلب من الموقع  
والإبداع ما للموسيقى نفسها من اللحن والإيقاع .

كل ذلك نراه فى القصة التالية ، وإن كانت نهايتها نهاية حنين

حيث يسدل الستار على حياته في المنظر الأخير وعلى مسرح فنه  
الذي عاش في خدمته أكثر من مائة عام .

كان المغنون في عصر حنين أربعة نفر ، ثلاثة بالحجاز وحنين  
وحده بالعراق . والذين بالحجاز ابن سريج والغريض ومعبد ،  
فكان يبلغهم أن حنيناً قد غنى في شعر مطلعاه :

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب  
فاجتمعوا فتذاكروا أمر حنين وقالوا ما في الدنيا أهل صناعة  
شر منا ، لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لا نزوره ولا نستزيه .  
فكتبوا إليه ووجهوا له نفقة وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت  
وحدك وأنت أولى بزيارتنا . فشنخص إليهم . فلما كان على رحلة  
من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه . فلم ير يوم كان أكثر  
حشراً ولا جمماً من يومئذ . ودخلوا فلما صاروا في بعض الطريق  
قال لهم معبد صيروا إلي . فقال له الغريض إن كان لك من الشرف  
ما لمولاتي سكينة بنت الحسين عطفنا إليك . فقال ما لي في ذلك  
شيء . وعدلوا إلى منزل سكينة . فلما دخلوا إليها أذنت للناس  
إذناً عاماً . فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح . وأمرت لهم  
بالأطعمة فأكلوا فيها . ثم سألوا حنيناً أن يغنيهم صوته الذي أوله :  
« هلا بكيت على الشباب الذاهب ، فغناهم إياه ، وكان من أحسن  
الناس صوتاً . فازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوه ،

فسقط الرواق على من تحته ، فسلوا جميعاً وأخرجوا أصحاء ،  
إلا حينئذ فقد مات تحت الهدم . فقالت سكينه رضى الله عنها : لقد  
كدر علينا حين سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة ، كأنا والله كنا  
نسوقه إلى منيته .

وكانت وفاته حوالى عام ١٠٠ هـ ( ٧١٨ م ) بعد أن عمّر  
مائة سنة وسبع سنين .

## انزعائشة

أحد أعلام الموسيقى في العصر الأموي ، ومن انتهى إليهم الفن أو انتهوا إليه عن فطرة صادقة ورغبة كانت الروح فيها أقوى من المادة والاحتراف .  
هو أبو جعفر محمد الملقب بابن عائشة . كان مجهول الأب . فلازم أمه وهو صغير فأخذت تنتقل بين الدور والقصور مزاولة صناعتها كإشظة فكان يُحفظ له نصيبه معها فيقال ارفعوا هذا لابن عائشة . فغلبت عليه هذه النسبة كما قال هو ذلك عن نفسه للوليد بن يزيد . وادعى ابن عائشة أيضاً أن أباه كان يدعى جعفر فاشتهر بهذه الكنية ، ولكن ذلك لم يثبت في نسب صريح .  
وقد أجاد ابن عائشة فن الغناء وحذقه وبرع فيه ، بعد أن تلقاه عن عليين من أكبر أعلام الغناء في ذلك العصر هما معبد ومالك . وقد اعترف لهما بفضلها عليه . على أنه كان له طابعه الخاص وشخصيته النفاذة إلى القلوب . وكان صوته فتنة الأسماع وسحر الأرواح . فكلام الرواة عنه يضع أيدينا على عاطفة جياشة وقلب محترق مما يجعلنا أقرب إلى الظن أنه كان رقيق الصوت في معدنه ، ذواقا

للشعر ، قوى الإدراك للعواطف والأحاسيس التي تنبض بها  
قصائد الشعراء الغزليين .

قيل إنه لم يكن يحسن الضرب على العود . وعرف بحسن  
الابتداء حتى بلغ في ذلك المنزلة التي يضرب به المثل فيها ، فكان  
يقال لكل من أبدى براعة في هذا الباب « كأنه ابتداء ابن عائشة » .  
وقد يدلنا هذا على أن أبا جعفر لم يحتفظ بتحليقه الفني الرفيع إلى  
النهاية بنفس الصفة التي كان يظهر عليها في البداية . وهذا مأخذ ينال  
الفنان في الصميم . وإنه لخير للبداية أن تبدو كيفما تكون على أن  
تعدّ سلباً يرقى إلى نهاية جميلة مرتقبة هي الذروة العالية في الختام ،  
من أن تكون البداية غاية في القوة والسحر والجمال ثم تأخذ في  
الضعف حتى تهبط بالفنان إلى ما دون منزلته . على أن هذا إذا  
كان هو تعبيرنا العصري ورأينا في فنان اليوم فإن ذلك لم يفت  
القدماء أن يدركوه فقد قال يونس الكاتب « ما عرفنا بالمدينة أحسن  
ابتداء من ابن عائشة إذا غنى ، ولو كان آخر غنائه مثل أوله لقدمانه  
على ابن سريج » .

على أن ابن عائشة تمتع في عصره بمكانة أكسبها إياه صوته  
العذب وغانؤه القوى . ولعل أهل عصره كانوا في الثقافة الغنائية  
ذوى مقدرة جعلتهم يتسامون بقدر المغنى ولا يعتبرون حنجرتهم  
شيئاً عادياً مكوناً من مجرد لحم ودم وغضاريف وإنما فهموها



على أنها شيء ذو خطر ومعدن نفيس وجوهر قيم تجب له الحرمة  
والصيانة . والقصة التالية تضع أمامنا هذه الحقيقة في  
وضوح وجلاء :

رأى ابن أبي عتيق عنق ابن عائشة مخدشاً فسأله من فعل بك  
هذا؟ فقال فلان ... فمضى إلى دار فلان هذا . ونزع ثيابه وجلس  
للرجل على بابه . فلما خرج أخذ بتلابيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً  
والرجل يقول له مالك تضر بني وأى شيء صنعت . وهو لا يجيبه  
حتى بلغ منه ثم خلاه وأقبل على من حضر يقول : هذا أراد أن  
يكسر مزامير داود ، لقد شد على عنق ابن عائشة فخفته  
وخدش حلقة .

أقام ابن عائشة في المدينة ، ولو قد أتت له مبارحة الحجاز  
إلى إقامة تدينه من البلاط الأموي في مصبحة ومساه لاستطاع أن  
يكون في ندماء الخلفاء لما له فوق غناؤه من حسن المحاضرة ، وسعة  
الاطلاع ، والاستيلاء بظرفه على المجالس الذي يحله .

قال صالح بن حسان : لم يكن بالمدينة أحد بعد طويس أعلم من  
ابن عائشة ولا أظرف مجلساً ولا أكثر طيباً وكان يصلح أن يكون  
نديم خليفة وسمير ملك .

وحسب ابن عائشة أن تقر له جملة بعلو الشأن في منزلته الفنية  
إذ تقول : « وأنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلح أن تكون » .

يقول المؤرخون إنه كان ذا صلف وكبرياء وبه سوء خلق ،  
فإن قال له إنسان تغن قال ألمثلئ يقال هذا ؟ وإن قيل له أحسنت  
قال ألمثلئ يقال أحسنت ؟ ثم يسكت . فكان قليلا ما ينتفع به .

وهذا الكلام لا ينبغي أن يؤخذ على ظاهره ، بل هو نفس  
الدليل على تمكن الفن من نفس ابن عائشة ، وعلى أنه كان لا يعبا  
بالمؤثرات ، ولا يخضع فنه للأوامر تلقى إليه فيندفع إلى تليبيتها عند  
الطلب . ولكن كانت له مشيئة الفنان وإرادة الشاعر الذي لا سلطان  
لغير شعوره وإحساسه على موسيقاه وألحانه (١) .

وقد يعد هذا سوء خلق في مقياس العرف وينبغي ألا يكون .  
غير أنه حين يصدر من فنان يجب أن يوضع في مقياس غير أقيسة  
الطبيعة . وحسب مثل هؤلاء الفنانين ما يلاقونه من جزاء وتبعات .  
وعلى التاريخ أن يكون أرفق بهم وأكرم .

ومع هذا فإن ابن عائشة كان لا يجد محيصا من تلبية النداء  
والإقبال على الغناء إذا وجد نفسه على حافة بئر سيلقى في غيابتها  
إن أظهر التدلل والإباء .

(١) ولعل بعض المعاصرين لا يغيب عن ذاكرتهم أن أحد مشاهير المغنين في  
مصر في مستهل القرن العشرين كان يفر بنفسه من الغناء في ليالي الأفراح التي ارتبط  
مع أصحابها ويمضي ليوقظ أحد أصدقائه من نومه فيغنى له حتى الصباح تاركا الجماهير  
تنتظره ولكن هيهات أن يعود .

حدث مرة أن مضى سعيد بن العاص إلى بئر وخرج ابن عائشة  
فيمن خرج من الناس إليها . وبيناهم كذلك إذ طلع الحسن بن الحسن  
ابن علي بن أبي طالب وخلفه غلامان أسودان كأنهما من الشياطين .  
فقال لهما امضيا رويدا حتى تقفا بأصل القرن الذي عليه ابن عائشة .  
ففعلا ذلك . ثم ناداه الحسن كيف أصبحت يا ابن عائشة ؟ قال بخير  
فذاك أبي وأمي . فقال الحسن أنظر إلى جنبك . فنظر ، فإذا  
العبدان . فقال الحسن أتعرفهما ؟ قال نعم . قال لئن لم تغني مائة  
صوت لأمرتهما بطرحك في البئر ، وإن لم يفعلا لأقطعن أيديهما .  
فاندفع ابن عائشة يغني . وكان أول ما ابتداء به صوتاً له هو :

ألا لله درك من فتى قوم إذا رهبوا  
وقالوا من فتى للحر ب يرقبنا ويرتقب  
فكنت ففاهم فيها إذا تدعى لها تئب

ثم لم يسكت حتى غنى مائة صوت . وكان آخر ما غنى :

قل للنازل بالظهران قد حانا  
أن تنطقي فتيني القول تيانا

قالت ومن أنت قل لي قلت ذو شغف

هجت له من دواعي الحب أحزانا

وقد قيل في وصف هذا اليوم ما قيل من أنه قد احتشدت له  
جواهر الناس على غير سابقة موعد ولا انتظار حفل وأنهم كانوا

يهرعون إليه من المدينة فما سمعوا أكثر أصواتاً ولا أبداع غناء  
مما أتيح لهم في هذا اليوم ، دون أن يشترك مع المغنى عازف  
ولا مردد .

وهل صحيح أن ابن عائشة غنى طيلة هذا اليوم ، ونقل أهل  
المدينة من بيوتهم إلى تلك البئر استجابة لذلك الإكراه  
والقسر والقهر ؟ ..

ما أظن أن الضغط يخلق فناً ، أو ينشط الفنان للإبداع ، وإنما  
كان الأمر دعابة في ثوب إنذار . فما كان للحسن بن الحسن بن علي  
أن يتعمد إلقاء رجل في البئر لأنه لم يغن ، وما تنبى له هذه السلاطة .  
ولكنه المرح البريء ، وإظهار الرغبة في الاستماع إلى الفنان على  
صورة من صور التهديد المصطنع الذي يحمل في ثناياه تقدير ألفن  
ابن عائشة وتمسكا بسماحه .

وهنا قصة تدل مع إيجازها وبساطتها على الكثير والكثير من  
مقدرة ابن عائشة في غنائه الذي استقبله الناس في هالة من السحر  
والإعجاز . وناهيك بفنان يصل أمره إلى امتلاك ألباب الوفود  
في موسم الحج حين لا يستطيع شيء أن يغلب هذه النفوس على  
زهدها وتقشفها وهي في لباس الإحرام بين التلبية والتهليل ، فإذا بها  
في مثل لمح البصر تؤخذ بغناء ترسل معه القلوب قيادها وتمد له  
الإبل أعناقها .

قالوا إن ابن عائشة كان قائماً بالموسم مستغرقاً في تفكير عميق  
فمرّ به أحد أصحابه وسأله ما يقيمك في هذا المكان؟ قال أفكر في  
شأن رجل لو تكلم لحبس الناس جميعاً ههنا فلن يذهب أحد ولن  
يجيء. فقال له صاحبه ومن يكون ذلك الرجل؟ قال أنا. ثم اندفع  
يعني فجلس الناس واضطربت المحامل، ومدت الإبل أعناقها،  
وكاد الاضطراب أن يفسد على الناس شئونهم. فبلغ أمره هشام  
ابن عبد الملك فدعاه وقال له ياعدوا لله أردت أن تفتن الناس.  
فأضرب ابن عائشة عن الغناء، وكان تياها يدرك المدى البعيد الذي  
وصل إليه فنه. فقال له هشام ترفق في تيهك. فقال ابن عائشة  
حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياهاً. فضحك  
هشام منه وتركه حراً يصدح بالغناء حيث يشاء.

وكان ابن عائشة من أولئك الذين لا يسرعون إلى بذل مالديهم  
من الفن بمجرد إبداء الرغبات أو الإلحاح في المطالبة، وإنما كان  
يستدرج إليه استدراجاً، ويتملق في ذلك تملقاً في غير تصريح.  
وقد ثبت أن هذا من أخلاق عظماء الفنون في عصور مختلفة. فهم  
كالمالوك لا يتبدلون، وهم كالسحاب المملوء يأتي متأخراً بطيئاً،  
فإذا ما فاض غمر السهول والأنجاد. فكان من سجية ابن عائشة  
ألا يلي كل طالب ولا ينزل عند رغبة كل راغب. وإنما كان  
يثار للغناء إثارة، وتستخرج دقائق وجدانه ودقائق حنايا أشجاناه

بشعر جذاب أو غناء مؤثر. فلا يقال له غن كما يؤمر مغن رخيص .  
ولا يقال له أحسنت كما يقال لما جور بسيط ، وإلا غضب وثار .  
فإذا أحسن الأديب التصرف ونجح في التقرب إلى نفس الفنان  
سمع منه كل بديع طريف . وكانت هذه طريقة الناس مع ابن عائشة  
حين عرفوا الوسيلة إليه .

قال يونس الكاتب كنا يوماً متنزهين بالعقيق أنا وجماعة من  
قريش ، فبينما نحن على حال إذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام  
من بني ليث ، وهو متوكئ على يده . فلما رأى جماعتنا وسمعني أغنى  
جاءنا فسلم ، وجلس إلينا وتحدث معنا . وكانت جماعة تعرف تيهه  
وتدله وتسرعه إلى الغضب إذا سئل أن يغنى . فأقبل بعضهم على  
بعض يتحدثون بأحاديث كثيرٍ وجميل وغيرهما من الشعراء ،  
محاولين بذلك أن يطرب فيغنى ، فلم يصيبوا عنده ما كانوا يهدفون  
إليه . قال يونس : فقلت لهم لقد حدثني اليوم بعض الأعراب  
حديثاً عجيباً فإن شئتم حدثكم إياه . قالوا هات . فقلت حدثني هذا  
الرجل أنه مر بناحية الربذة فإذا صبيان يتغاطسون في غدير ،  
وإذا شاب جميل منهوك الجسم ، عليه أثر العلة ، والنحول في جسمه  
بين ، وهو جالس ينظر إليهم . فسلمت عليه فرد عليّ السلام .  
وقال من أين قدوم الفتى ؟ قلت من الحمى . قال ومتى عهدك به ؟  
قلت أمس . قال وأين كان مبيتك ؟ قلت بيت فلان . فألقى بنفسه

على ظهره ، وتنفس الصعداء تنفساً ظننت أنه اخترق حجاب قلبه .  
ثم أنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سليمان تحله      من المزن ما يروى به ويشيم  
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه      يحل به شخص عليّ كريم  
ألا حبذا من ليس يعدل قربه      لدى وإن شط المزار نعيم  
ثم سكن كالمغشى عليه . فصحت بالصبية ، فأتوا بماء فصبته  
على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعي      وأنفاسي تزين بالخشوع  
ولى عين أضرب بها التفاني      إلى الأجرع مطلقة الدموع  
إلى الخلوات يأنس فيك قلبي      كما أنس الغريب إلى الجميع  
فاندفع ابن عائشة فتغنى في الشعرين جميعاً ، وطرب وأطرب  
بقية يومه ، ولم يزل يغنيننا إلى أن انصرفنا .

وقد تجلى نبوغ ابن عائشة عند مرافعه تشجيع الخلفاء الأمويين  
إلى المكانة المرموقة التي تجدر بفنان مثله ، ولا سيما في خلافة  
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فقد كان له معه في الغناء صولة  
وجولة يقدم لنا المسعودي طرفاً منها في مروج الذهب حين يروى  
أن ابن عائشة القرشي كان عند الوليد فقال له غنني فغناه :

إني رأيت صديحة النحر      حوراً نفين عزيمة الصبر  
مثل الكواكب في مطالعها      عند العشاء أظفن بالبدر

وخرجت أبغى الأجر محتسباً فرجعت موفوراً من الوزر  
فقال له الوليد أحسنت والله بأمر المؤمنين ، أعد بحق  
عبد شمس ، فأعاد . فقال أحسنت والله ، بحق أمية أعد . فأعاد .  
فجعل يتخطى الأجداد من أب إلى أب ويأمره بالإعادة حتى بلغ  
نفسه فقال أعد بحياتي فأعاد . فقام إلى ابن عائشة فأكب عليه يطره  
القبلات ، ثم خلع عليه من ثيابه ، ودعا له بألف دينار فدفعت له .  
وحمله على دابة وأرسله مكرماً معزراً .

وروى المسعودي أيضاً أن ابن عائشة كان قد غنى بهذا الشعر  
في حضرة يزيد بن عبد الملك أبي الوليد فأطر به .

وكانت وفاة ابن عائشة حوالي عام ١٢٥ هـ ( ٧٤٣ م ) في أيام  
هشام بن عبد الملك ، وقيل في أيام الوليد . وإن اختلفت الروايات  
في موعد وفاته فقد أجمعت على أن سببها هو سقوطه من سطح  
بعض الدور ، تاركاً وراءه سمعة تطوى مراحل الزمن باسمه الذي  
تذهب دونه القصور وهو خالد على عمر العصور .



## سَلَامَةُ الْقَيْسِ

لعل التاريخ تناول بالحديث حياة الجوارى المغنيات في العصر  
الأموي . ولعل حديثه عن سلامة كان أغزر مادة وأوسع بيانا  
من أحاديثه في سواها ، ذلك بأنه عندما تناولها بالوصف لم يقدم  
إلى العصور مغنية فحسب إنما تحدث عن شاعرة ومغنية ونسابة  
وراوية ومسامرة مفاكة تستطيع أن تلعب بالقلوب وأن تديرها  
حيث تشاء ، وتوجهها الوجهة التي تختارها وتهواها . يجد عندها  
العالم علمه ، والشجي طربه ، والباكي دموعه ، والمؤرخ أخباره ،  
والشاعر قصائده ، والمترنم حدهاء وغناؤه . عاشت في المدينة ، وهي  
وإن كانت حاضرة الملك بمنأى عنها غير أنها هي المدينة وكفى :  
دار المحدثين ، ومجتمع العلماء ، ومهوى أفئدة المسلمين من أقطار  
المعمورة . وهؤلاء إذا جاءوا المدينة جاءوها ومعهم مواهبهم  
وثقافتهم ومعارف أمهم . . . وهكذا أتيح لسلامة أن تجد جميع  
أنواع الفاكهة في بستان واحد ، وقد نهلت خير ما فيه . ولم تدع  
مزية من المزايا إلا كان لها منها حظ وافر ونصيب أوفر .

كانت سلامة مولاة لسهيل بن عبد الرحمن ، ثم تملكها يزيد  
ابن عبد الملك في خلافة سليمان وعاشت بعده . ولئن كان اسمها  
يبدو في مصاف الإمام والجواري فلن يقدر ذلك في قيمتها ولن  
ينحط بها عن قدرها ، فقد اعتر بها من كانت له اعزازة بالخرائد  
من كرائمه . وإنك لترى في الأموال المبدولة في سبيلها ، وفي  
الجمهير القائمة لتوديعها ، وفي الزينات والجواهر التي تتنافس بها  
الأيدي في تجميلها ما يدل على أن سلامة إنما كانت مضموناً بها  
وبشخصيتها، فهي بين الإمام اسما ولكنها بين أعز الأكرامة وقدرها .  
وقد اقترن باسم سلامة في الشهرة والمكانة جارية أخرى هي  
حباة نشأتا معاً بالمدينة ، وتشابهتا عزفاً وغناءً ودماثة خلق ورقة  
طبع . وقد جمعت بينهما الأقدار في قصر الخليفة الأموي ،  
إحدهما عن يمينه والأخرى عن يساره . إلا أن حباة على ما نقله  
إلينا الرواة كانت تستمد من جمال صورتها مؤثراً تضيفه على غنائها  
بينما امتازت سلامة بأصالة فنها وقدرتها على الإبداع والابتكار  
وتفهم الشعر وقرضه بما أحلها المكانة التي لا تدانيها فيها حباة .  
وكانت لسلامة أخت تدعى «ريا» وهي على شاكلتها غناء وثقافة  
وإن لم تبلغ منزلتها وذيوع اسمها .  
وقد صادف سلامة التوفيق وواتتها الأقدار فهدت لها السبيل  
إلى دراسة فنية غنية تشرق فيها أسماء أعلام ملك بني أمية في الغناء .

فقد تتلمذت في المدينة على جميلة ومعبد وابن عائشة فاعتصرت كل  
هذه المواهب وأضافها إلى فطرتها وإلى علمها الكثير .  
وفي القصة التالية نرى في سلامة رسول السلام ، ومنقذة  
الفن وأسرته :

لما أقبل عثمان بن حيان المرّى والياً على المدينة أفهمه بعض  
المتزمّتين أن الأمر لن يستقيم له إلا باستبعاد الفساد وإخراج  
المغنين من المدينة . فأمر أهل الغناء بالجلء وأمهلم ثلاثة أيام  
للخروج . وكان رجل من أهل الفضل والصلاح هو ابن أبي عتيق  
غائباً عن المدينة فلما حضرها أفهمته سلامة الخبر فقصد الوالى  
وأظهر له استحسان ما صنع من إخراج أهل الغناء والرثاء . ثم قال  
له ولكن ما تقول في امرأة كانت هذه صناعتها وكانت تُكره على  
ذلك ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير ؟ فقال الوالى  
إني أدعها لك ولسلامك . فقال ابن أبي عتيق ولكن تأتيك  
وتسمع من كلامها وتنظر إليها فإن رأيت أن مثلها ينبغي أن يترك  
تركتها . فقال نعم . فجاءه بها وقال لها اجعلي معك سبحة وتخشي  
ففعلت . فلما دخلت على عثمان حدثته وإذا هي من أعلم الناس ،  
فأعجب بها . وحدثته عن آباءه وأمورهم ففكّه لذلك . فقال لها  
ابن أبي عتيق اقرأى للأمير . فقرأت له . فقال لها إحدى له .  
فحدثت ، فكثرت تعجبه . فقال ابن أبي عتيق للوالى كيف لو سمعتها

في صناعتها !! فلم يزل ينزله شيئاً فشيئاً حتى أمرها بالغناء فغنت .  
فقام عثمان من مجلسه فقعده بين يديها ثم قال : لا والله ما مثل هذه  
يخرج . قال ابن أبي عمير : لا يدعك الناس ، ويقولون إنك  
أقررت سلامة وأخرجت غيرها . فقال الأمير : دعوهم  
جميعاً . فتركوهم .

هذا هو سحر الفن ، استطاع أن يثبت أقدام أصحابه  
وينقذهم من تشريد كان يهددهم ، لولا حيلة ابن أبي عمير  
وبراعة سلامة .

وسلامة هذه هي التي فتنت العابد وتدله في هواها الزاهد ،  
فقد استمع إليها القس وهو من هو في تبته وورعه ، فما كاد يرن  
في سمعه صدى صوتها الساحر حتى خفق قلبه ، وما كاد يراها حتى  
ذهل لبه . لقد جره إلى سماعها مولاها وهو مستمسك بورعه  
متردد . ثم تلاقيا وتحدث كل منهما إلى صاحبه بما تكن له خواطره  
وتنطوي عليه مشاعره من أحاسيس متأججة وهوى متبادل .  
وكيفما كان هذا الشعور بينهما فقد كان حياً عفيفاً تصونه نبالة  
القصده وسمو العاطفة . ولقد عاد القس إلى نسكه ولكن تباريح  
صبايته لازمته وعاودته فأنطقته بالكثير والكثير . من ذلك :

سلامٌ هل لي منكم ناصر أم هل لقلبي عنكم زاجر  
قد سمع الناس بوجدي بكم فمنهم اللائم والعاذر

ولما قدم يزيد بن عبد الملك الحجاز قبل توليته الخلافة رأى  
سلامة فراقه أن يشتريها وأمرها أن تغنيه فكان أول شعر غنته  
بين يديه مما نظمه القس في التشبب بها ، وهو قوله :

إن التي طرقتك بين ركائب تمشى بمزهرها وأنت حرام  
لتصيد قلبك أو جزاء مودة إن الرفيق له عليك زمام  
قد كنت أعذل في السفاهة أهلها فأعجب لما تأتي به الأيام

ولما طرب يزيد لما سمعه منها ضمها إلى مواليه . فغنته من شعر  
القس فيها قوله :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر

وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

إذا أخذت في الصوت كاد جليسا

يطير إليها قلبه حين ينظر

ولما أكثرت على يزيد من أغاني القس في وصفها والحنين إليها

سألها عنه وعنها فأنبأته بما كان بينهما فأعجب بغرامهما ورق لحال

القس وبراءة حبه .

ولما أقبل رسل اليزيد لنقلها من المدينة إلى الشام وقد بُذل

في شرائها عشرون ألف دينار أراد مواليها تكريماً لها وللأمير

أن يملوها عن الرحيل أياماً لتجهيزها فيها بما يليق بها من حل و ثياب

وطيب وزينة . فقالت الرسل هذا كله معنا لا حاجة بنا إلى شيء

منه . وأمروها بالرحيل حتى نزلت سقاية سليمان بن عبد الملك  
وشيعها الخلق من أهل المدينة . فلما بلغوا السقاية قالت للرسول قوم  
كانوا يغشونني لا بد لي من وداعهم والسلام عليهم . فأذن للناس  
عليها فانقضوا حتى ملأوا رحبة القصر وما وراء ذلك . فوقفت  
بينهم ومعها العود فغنتهم :

فارقوني وقد علمت يقيناً ما لمن ذاق ميتة من إياب  
إن أهل الخضاب قد تركوني مولعاً موزعاً بأهل الخضاب

فلم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت وانتحب الناس بالبكاء  
عند ركوبها فلم يكن غير باك .

وهذا من سلامة وفاء أي وفاء . وما كان أخرى مثلها بالزهو  
والافتخار وركوب الصلف والاختيال وهي ماضية إلى قصر  
وإمارة وأبهة ملك ، وأن تنسى كل شيء ، لولا نفس عالية أخذت  
من كرامة الوفاء بحظ عظيم ، فغنت وجعلت غناءها بكاءً  
وبكاءها غناءً .

ولما اعتلى الأمير الأموي يزيد بن عبد الملك عرش الخلافة  
تقاسمت كل من سلامة وحبابة قلبه وتنازعتا حبه وكان لكل منهما  
عنده الحظوة والمكانة ، وإن كان قلبه إلى حبابة أميل . إلا أن  
حبابة عاجلتها المنية فماتت عام ١٠٥ هـ (٧٢٤ م) بعد ثلاثة أعوام من

خلافة يزيد وأصابه حزن لم يزل به حتى قضى نحبه . ولم يعيش بعدها  
سوى خمسة عشر يوماً .

أما سلامة فقد عاشت بعد يزيد ، ولكنه عيش لازمها فيه  
وفؤها . وقد رثته بما أبكى القلوب وأسال الدموع وفتن  
الأسماع ، قالت :

يا صاحب القبر الغريب	بالشام من طرف الكثيب
بالشام بين صفائح	صم ترصف بالجنوب
لما سمعت أنينه	وبكاه عند المغيب
أقبلت أطلب طبه	والداء يعضل بالطيب

ومن هذا أيضاً يتبين لنا مقدرة سلامة على إجادة فن المراثي  
والنواح إجادتها لبقية ألوان الغناء . وقد أسلفنا الإشارة إلى هذا  
النوع من الغناء الذي كان شائعاً متداولاً ، ومحبوباً بين عشائر  
الحجاز وقبائل العرب .

وكذلك شاء القدر أن تكون خاتمة يزيد وفاءً لحبابة ، وخاتمة  
سلامة وفاءً ليزيد فكانت في ذلك أوفى الجميع .

## مَالِكُ بْنُ أَبِي السَّيِّحِ

أحد أعلام الغناء الأفاضل في ملك بني أمية الذي بلغ أوج حدود المدنية في الشرق والغرب . ولعلنا نجد في مالك هذا من دروس الأخلاق وعظاتها ومزايا العبقرية ومقوماتها أكثر مما نجد في سواه . سنجد فيه الفقير المتعفف ، والمكافح الصبور ، والصریح العنيف ، والبار الوديع ، والفنان المعز بكرامته ، والتلميذ البار بأستاذه ولو أدى ذلك البر إلى إفناء شخصيته والتنازل عنها في مرضاة معلمه ومربيه . على أنه مهما حاول هو أن يبذل ما يبذل من ذات نفسه فإن لهذه النفس حقها في البقاء ومكاتها في الخلود هو مالك بن جابر بن ثعلبة الطائي قد فرت به أمه مع اخوته الأيتام على أثر كارثة قذفت بهم من الجبلين التماساً لضرورة الحياة في المدينة .

ولم ير الصبي بابا للرزق إلا أن يطلبه استجداءً . ولم يجد أوفى مكسباً ولا أربح صفقة من لزوم باب حاكم المدينة حمزة بن عبد الله ابن الزبير .

وفي تلك الآونة كان معبد مغني الأمير وبلبل قصره ، انقطع



للغناء له ملء ليله ونهاره . وهنا نرى الصبي المعدم مالكا بن أبي السمح  
يستيقظ فيه وعيه الموسيقى ، وتنبه موهبته على سحر النغم الشجي  
فينقلب من متسول إلى تلميذ ، ومن طالب خبز إلى طالب فن ..

ها هو ذا ينسى مجاعته ومسغبة أمه وأخوته ، ويقطع بياض  
نهاره لا يلم بشيء من حاجته الملحة وفاقته المريرة ، ولا يمر بأبواب  
المدينة ومزاراتها ليسأل الناس ، فقد ربطه النغم بسلسلة مسحورة  
على باب الأمير لا سييل له إلى الفكك منها ، حتى ينصرف مع  
الليل إلى أمه حاوي الوفاض فتوسعه شتما وضرباً . أما هو فلا عليه  
من ذلك فليتألم الجسد ما شاء أن يتألم ما دامت الروح ترفل في  
أثواب فضفاضة من نعمة الفن وجماله . فقد ترنم بالحن معبد  
وحذقها دوراً دوراً في مواضع صيحاته وتجاوبه ونبراته ، دون  
أن يحفظ الشعر . وقد يكون ذلك لبدأوته البعيدة عن تناول هذه  
الأشعار . وقد يكون مرجع هذا أنه كان بالباب ومعبد داخل  
القصر حيث يكون استيعاب أصوات اللحن أيسر من تناول ألفاظ  
الغناء . وقد يرجع السبب أيضاً إلى فقدان وضوح الألفاظ حيث  
يسيطر الغناء بموسيقاه على مخارج الحروف الأصلية . وكيفما كانت  
هذه الأسباب كلها أو بعضها فقد دلت الواقعة على أن الأدوار  
كان لها ربط معين ولحن ثابت ، وعلى أنه هو أيضاً كان متين  
الوعي ، قوى الذاكرة ، موهوباً في موسيقيته ، مضيئاً في مستقبله

المرجو له حيث لا تنجذب النفوس إلا إلى أشباهها وما يتصل  
بمواهبها . وناهيك بصبي أعرابي ينسى نفسه الحائرة وأمه الغريبة  
وأخوته الجياع ليستجيب إلى طموحه الروحي الذي يناجيه في  
أغاني معبد .

وكان حمزة يراه كلما خرج من قصره أو عاد إليه ، فاسترعى  
نظره أن يرى غلاماً أعرابياً يلازم باب قصره . فلو أنه كان  
صاحب حاجة لا تقضت ، ولكنه يأبى إلا تلك الملازمة . فأراد  
الأمير أن يتعرف لها سبباً ، فاستدعاه ، وقال له من أنت ؟ قال  
غلام من طيء قد ألجأتنا المحنة إليكم ومعى أم لى وأخوة . وبين  
له أن غناء معبد هو الذى حمله على ملازمة بابه . فسأله عما يحفظه  
منه . قال أعرف ألحانه كلها ، ولا أعرف الشعر . فقال حمزة  
إن كنت صادقاً إنك لفهم . وأمر معبد بالغناء ثم أشار إلى الغلام  
أن يعيد ما سمع فأدى نغمه بغير شعر ، وعلى أسلوب معاصريه ،  
فقد استوعب مداته وليساته وعطفاته ونبراته وتعليقاته ، دون  
أن يفوته من ذلك شيء .

فطلب الأمير إلى معبد ، أن يتخذ تلميذه وراويته ويتعهد  
تخريجه . ولعل معبد قد خشى أن تتجدد فى هذا الغلام قصة  
الفريض مع أستاذه ابن سريج حيث بدأ بتعليمه فكان له منه شر  
منافس وألد خصم ، ينازعه الفن والمجد والشهرة . فتردد معبد

باديء الأمر . ولكن الأمير أقنعه وأرضاه وقال له من الخير  
لك أن تعلمه فتصبح محاسنه منسوبة إليك وإلا عدل إلى غيرك  
فكانت محاسنه منسوبة إليه . ففطن معبد إلى هذه الحقيقة ، وتقبل  
الغلام قبولا حسناً .

وتحول الأمير إلى مالك يقول له : كيف وجدت ملازمتك  
لبابنا ؟ وهنا نجد صراحة الفنان ، أو صراحة العربي الكريم على  
نفسه ، بل صراحة الفرد من الأمة القوية المجيدة الذي يحمل بين  
جنبيه طابع أمته حيث يقول الحق غير هيب ، وفي وجه  
أى إنسان ولو كان هو الأمير نفسه . فماذا أجب ؟

قال مالك : أرأيت لو قلت فيك من الباطل غير الذي أنت  
له مستحق أكنت ترضى بذلك ؟ قال لا . قال كذلك لا يسرك  
أن تحمد بما لم تفعل . قال حمزة نعم . فقال مالك والله ما شبت  
على بابك شبعة قط ولا انقلبت منه إلى أهلى بخير .

فأمر له ولأسرته بمنزل وراتب وكسوة وخدم . وأذن له  
أن يجالسه وأن يطارح معبد الغناء ، حتى ارتفع اسمه وعلا نجمه .  
وخرج مالك ذات يوم فسمع امرأة تنوح على قتيل ببعض  
أبيات فحفظ الشعر وصنع له لحنين ، نحا في أحدهما طريقة معبد  
أما الثانى فقد تأثر فيه بنواح تلك المرأة ورققه وخلع عليه حلة ظريفة  
من فنه . ثم مضى إلى الأمير وعرض عليه اللحنين بادياً بأولهما على

أسلوب معبد فاستحسنه ، وكأنه قد رأى فيه التلميذ الناجح في تقليد  
أستاذه . فلما أسمع اللحن الثاني بلغ طرب حمزة مبلغاً جعله يلقي عليه  
حلة فاخرة من ثيابه . وهنا يدخل معبد ويرى حلة الأمير تتلأأ  
بجواهرها اللامعة على تلميذه فيتنكر لهذا المشهد ويرى فيه ما لم  
يكن يدور بحسبانه . فلم يمهل الأمير بل أمر الغلام أن يغنيه .  
وهكذا بدأ مالك تلك البداية السابقة فألقى اللحن الجارى على  
أسلوب معبد فثارت ثأرته وقال لقد كرهت أن آخذ هذا الغلام  
فيتعلم غنائى ويدعيه لنفسه . فقال له الأمير لا تعجل واسمع غناءً  
صنعه ليس من شأنك ولا من غنائك . فغنى مالك الصوت الآخر  
فأطرق معبد . فلما رأى الأمير منه ذلك أراد مواساته وعتابه ،  
ونصحه بالأيضيق ذرعاً بالغلام وقال له « والله لو انفرد بهذا  
لضاهاك ثم يتزايد على الأيام وكلما كبر وزاد شخت أنت ونقصت  
فلأن يكون منسوباً إليك أجمل » . وما كان لمعبد إلا أن يدعن  
مجيباً بأن قد صدق الأمير . وترضاه حمزة بخلة وجائزة .

وهنا تتجلى أمامنا فضيلة ثانية للفنان الناشئ الفتي هي فضيلة  
الاعتراف والتقدير لكبر الآسن وللأستاذ الأسبق والمعلم الأول .  
فإن مالك لم يكده يلبح في أستاذه معبد ضيقاً وازوراراً حتى نهض  
وقبل رأسه وقال له « والله لا أغنى لنفسي شيئاً أبداً مادمت حياً ،  
وإن غلبتني نفسي فغنيت في شعر استحسنته لا نسبته إلا إليك  
فطلب نفساً وارض عنى » .

فقال له معبد أو تفعل هذا وتني به ؟ قال مالك أي والله وأزيد .  
وكان مالك بعد ذلك عند وعده وعهده فإذا غنى لحناً جميلاً  
واستحسنه الناس وسألوه عنه قال : هذا لحن لمعبد ما غنيت لنفسى  
شيئاً قط .

وهكذا يضيف مالك إلى فضائله السابقة فضيلة الوفاء بالعهد  
ورعاية حرمة أستاذه .

أما منزلته في الغناء فقد بلغ منها الذروة الرفيعة ، وكاد يتقدم  
القافلة . حدثوا أن أمير المؤمنين الوليد بن يزيد تبرم يوماً بعلي  
الغناء في عصره معبد وابن عائشة فقال للأول لقد آذنتي ولولتكَ ،  
وللثاني قد آذاني استهلالك ، فانظرا لي رجلاً يكون مذهبه وسطاً  
بين مذهبيكما ، فأشارا عليه باستدعاء مالك بن أبي السمح فاستقدمه  
مع سائر مغني الحجاز المشهورين . ولم يكتب للملك النجاح في الجولة  
الفنية الأولى فقد هاب الخليفة ومقامه وهو الأعرابي البعيد عن قصور  
دمشق وحضارتها . ولما التمس الإذن عليه مرة أخرى غناه شعراً  
لم يكن في مدح الوليد بل في مدح مالك نفسه . أرأيت مثل هذا  
اعتزازاً من الفنان بقيمته وشعوراً بشخصيته !! فبدل أن يغني  
في وصف أمير المؤمنين غنى متفاخراً بقوله :

لا عيش إلا بمالك بن أبي الـ سـمـح فلا تلحنى ولا تلم  
أيض كالبدر أو كلها يلعب الـ سـبـارـق في حالك من الظلم

من ليس يعصيك إن رشدت ولا يهتك حق الإسلام والحرم  
يصيب من لذة الكريم ولا يجهل آى الترخيص فى اللهم  
يارب ليل لنا كحاشية الـ ببرد ويوم كذلك لم يدم  
نعمت فيه ومالك بن أبى الـ سسمح الكريم الأخلاق والشيم  
ففسى الوليد كل شىء إلا الطرب ، ونهض واعتق المغنى قائماً  
وأجزل له العطية عند انصرافه .

كان مالك من أعلام الطبقة الأولى فى الغناء حتى كان إسحق  
ابن ابراهيم الموصلى كثيراً ما يقول : نوابغ الغناء فيما مضى أربعة  
مكيان هما ابن محرز وابن سريج ومدنيان هما معبد ومالك .  
ولقد كان وفاؤه لمعبد ونسبة كل الحان إليه يعرضه للتهمة  
فى فنه وتأليفه أو أن ينتحل الحان غيره لنفسه . وقد قام إسحق  
الموصلى لتاريخ هذا الفنان بتفنيد هذه المزاعم حين قال : غناء مالك  
كله مذهب واحد لا تباين فيه ولو كان كما يقول الناس  
لاختلف غناؤه .

وقد عمر مالك حتى بلغ الثمانين ، ووافته المنية عام  
١٣٦ هـ (٧٥٤ م) فى أول عهد بنى العباس .

إبراهيم الموصلي

أحمد بن محمد بن إبراهيم  
عصر الدولة العباسية  
صحة

(١٣٢٥ هـ / ٧٥٠ م - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)

من امر يفتك ان يشتمه لا يفتك عن الإسلام والحرم  
نصف من لغة الكرم ولا يفتك عن أي الترخيص في العلم  
أنت ليل الأناكثية التي تفرق يوم حفظ الكرم يوم  
نست فيه ومالك بن أي الذي سمع الكرم الأخلاق والقيم  
نفس الوليد كما نرى إلا الغريب، ونهض واعتق المفق قائماً  
وأجرى له العطف على غيره.

كان مالك بن أنس من أعلام الطبقة الأولى في العلم حتى كان إسحق

# تيسير بيان ما في كتابه

في نهج وألقه أو أن يقتل ألمان غيره لنفسه . وقد كان إسحق  
الذي كان لا يفرق هذا الكتاب يقتضيه هذا الكتاب حتى قال : علم مالك  
(١٨٥٦/٩ - ٢٥٢٩ - ٥٥٧٩ / ٩ - ٢٦٦/٩) كان

تاريخه عازمه  
وهو عمر مالك حتى بلغ الثمانين . ورواه البيهقي علم  
١٢٦٦ هـ (١٨٥٥) في أول عهد بني العباس



## إبراهيم الموصلي

هو إبراهيم بن ميمون ، أو الفتي الموصلي . وهذه النسبة أطلقت عليه على سبيل الشهرة والتغليب . وإنما كانت حياته بالموصل حياة مغترب نازح فرّ من أهله وذويه ، ومن تزمت البيئة وقسوتها ، ملتمساً في الفضاء الرحب الفسيح هوايته الموسيقية . فهو كوفي المولد . ولعل بيته الفارسي قد نزح من بلاد العجم إلى هذه المدن العربية عند بداية الفتح الإسلامي أو مابعد قليل . ونحن نرى أن هذا النجم العالمي اللامع في سماء الموسيقى قد استقبلته الأحداث والكوارث المضنية منذ طفولته الباكرة . فها هي صدمة اليتيم الأليم تستنزل الدموع على خده الباسم ولما يتجاوز الثالثة من سنه . وقد كفله بعد موت أبيه آل خزيمة ابن خازم . وأقام مع أمه وأخواله حتى ترعرع . كان إبراهيم ينتمي إلى شرف بيت مجيد من بيوتات فارس ، فلما أحب الغناء وتطلعت إليه نفسه لقي حرباً ضروساً من أهله . ولما أودى في سبيل الفن لم يجد مناصاً من الرحيل عن البيت والقبيل إلى الحياة بالموصل ، وهي حياة مضطربة لا تجد فيها وجهاً

من وجوه الراحة . ولا يبدو لك أنه أصاب بها الدراسة المنظمة  
والبغية المنشودة ولكنه على كل حال وجد الحياة الحرة ، ووجد  
شيئاً من الغناء والطرب عند الصعاليك الذين كانوا يعلنون الحرب  
على القوافل ثم يأخذون منها طوعاً أو كرها ما يعيشون به عيشاً  
هو المرح والنشوة والغناء ، غير خاضعين في شيء للتقاليد  
والأوضاع . وأفاد إبراهيم من معاشرته هؤلاء ، فقد يكون فيهم  
مثله بمن ضاقت عليه بلاده وصادرته بيئته في تعلم الغناء ، فالتمس  
وجه الحيلة في التمتع بحريته مع أولئك المتصعلكين .

رأى إبراهيم في نفسه أن الموهبة آخذة في النمو والازدهار ،  
وأنة قد تفوق أولئك المغنين في الموصل ، وألا بد له من طلب  
المزيد ، فهذا القدر من الموسيقى ليس بالذي يشبع رغبة طامحة  
بعيدة المدى . فبدأ يهترب ، ويتنقل ، وتترامى به المدن والأنحاء ،  
حتى انتهى به المطاف إلى الري ، وهي مدينة تشغل من التاريخ  
العباسي على وجه خاص جانباً غير قليل في حضارتها ومدنيتها  
وعلمها وسياسة الحكومة فيها انقساماً والتساماً مع الخلافة .  
فالتقى بها إبراهيم صفوة من الموسيقيين والمغنين من عرب وفرس ،  
ومن ثم أخذ الغناء بنوعيه حتى مهر فيهما وبرع . وطالت  
إقامته فتزوج من دوشار ثم شاهك التي أنجب منها إسحق  
وبقية ولده .

وكان إبراهيم إذا لم يجد الشعر السليم التمسّه في تأليفه هو  
ثم لحنه . فكان المؤلف والملحن والمؤدى . ومن ذلك ما قاله  
في دوشار :

دوشار يا سيدتى يا غايتى ومنيتى

ويا سرورى من جميع الناس ردّى ستى

وليس لنا أن نمر بهذا مرور العجلة دون أن ننوه بأن عملية  
التكديس والتكويم والحشد هذه ليست من الأوضاع السليمة  
إلا في الوقت الذى يكون الفن فيه ساذجاً بسيطاً وغير ناضج في  
أية ناحية من نواحيه . وقراءة هذا البيت نفسه تقدم لك الدليل  
على ضعفه .

وبدأ نجم ابراهيم يلعب في الأفق ، ويتلقفه العلية والأشراف  
ثم الأمراء . فاستخلصه الأمير محمد بن سليمان . وأمر المهدي بعد  
ذلك بإشخاصه إليه ببغداد .

وقد عاتبه المهدي على الشراب وحبسه فكانت فرصة سانحة  
أجاد فيها القراءة والكتابة . ولكن ذلك لم يجده شيئاً إذ عاد إلى  
الشراب ومنادمة موسى وهارون ابني المهدي رغم منعه إياه من  
الدخول عليهما ، وقد أمر بضربه وقيده وحبسه . ثم خاف المهدي  
على حياة ابراهيم فأطلقه بعد أن استحلفه وأخذ عليه الموائيق  
ألا يعود إلى الدخول على ولديه .

ثم مات المهدي ، وكانما قد تواري معه إلى القبر العهد الأول  
من حياة إبراهيم ، ذلك العهد المليء بالشؤم والتعاسة والأكدار ،  
عهد اليتيم والغربة والنشرد والاختراب والضرب والقيود والحبس ،  
ليرى عهداً سعيداً في مجالسة الأمراء ومنادمة الخلفاء .

كان عهد الهادي بداية لسعادة إبراهيم . ولكنها بداية كاملة  
لم تسبقها مقدمات ولم تجر على سنة التدرج . بل نثر الخليفة عليه  
النعم حتى كاد يغرق في لجتها ، وحسبك من هذا أنه في يوم واحد  
أجازته بمائة وخمسين ألف دينار .

وكان الناس قبل إبراهيم يعلمون جوارهم الغناء على قدر لياقتهم  
واستعدادهم ، وكان ذلك مقصوراً على السود وأشباههم . وقد  
رفع إبراهيم قيمة هذه المدرسة فكان أول من علم الجوارى والقيان  
البيض هذا الفن فجمع لهن بين الجمال من طرفيه : حسن المنظر  
وحسن الشدو في النغم . وبذلك أعلى مكانة الموسيقى بقدر ما رفع  
من شأن القيان .

انقلب إبراهيم الفنان إلى متجر ماهر دون أن تتأثر موهبته .  
بل لعل هذه المتاجرة وتلك الأرباح مما شجعه على الاستزادة  
والابتكار ، وهو مع ذلك شحيح ضنين لا يزيده الكسب والثراء  
إلا رغبة فيهما وحرصاً على المزيد منهما . يشتري القينة بالثمن البخس  
فيضيف إليها من بارع الغناء ما يجعلها جديرة بالثمن الربيع .

وحدثوا أن ضيعة إلى جواره أعجبتة ، ولديه من المال ما يشتري ضياعاً ، ولكنه سخر الفن للحصول على ثمنها ، فأرسل تلميذه مخارقاً وقد لقنه لحناً في مدح الوزير يحيى بن خالد البرمكي ليلقنه بدوره إحدى جواريه . وقد سرّ يحيى بما سمع وأرسل إلى ابراهيم مائة ألف درهم ثمن الضيعة . ولكن ابراهيم أبى إلا أن يستمسك بالمال ويبحث عن ثمن الضيعة من جديد . فكرر القصة بعينها مرتين في لحنين قدم أحدهما للفضل بن يحيى والثاني لأخيه جعفر . وحصل ابراهيم على ستمائة ألف درهم لنفسه ، وتلميذه مخارق على ستين ألفاً . ولم يشتتر ابراهيم الضيعة ضناً منه بالمال . ولولا أن يحيى بن خالد قام بالإنقاذ وحل المشكلة بشراء الضيعة وإرسال صكها إلى ابراهيم ليتملكها ويريح نفسه والناس معه لضاعت بقية أموال الدولة في ضيعة ابراهيم .

وكان ابراهيم على هذا يضع الغث والسمين من الألحان ، وينشئ الغالي والرخيص منها ، فهو تاجر لا تستوى عنده السلع . ويمكن القول بأن كل من ينشئ ليبيع ويربح مستهدف لفقد الإلتقان والإجادة في كثير من حالاته ، ولن يكون إنتاجه على درجة واحدة .

قال إسحق الموصلي ابن ابراهيم لابنه حماد : « صنع جدك تسعمائة صوت ، فأما ثلثائة منها فإنه تقدم فيها الناس جميعاً ، وأما

ثلثائة فشاركوه وشاركهم فيها ، وأما الثلثائة الباقية فلهو ولعب .  
وكان إسحق يحاول إبعاد نسبة هذه الأصوات الأخيرة إلى والده  
ضناً بمقامه الفن مكتفياً بأن ينسب إليه تلحين ستمائة صوت فحسب .  
كان ابراهيم كما قلنا يعلم الحسان من القيان هذا الفن ليعلو  
بقيمة الغناء في طبقة هؤلاء المقربات إلى كبار الأسر . وأقبل مرة  
على ابنه اسحق رجل من تلك الطبقة الممتازة يريد تعلم الغناء ، فأبى  
اسحق لأنه شك في استعداده وقدرته ، فانتهره ابراهيم وأوهم  
الرجل أنه على ضد ما يقول إسحق ، ولما خلا بولده إسحق قال :  
« يا أحمق ما عليك أن يخزي الله مائة ألف من أمثاله ، هؤلاء أغنياء  
وملوك يهيروننا بالغناء فدعهم يسمعوا مثل هذا الرجل  
ليظهر فضلنا » .

استدرك إسحق في مجلس الرشيد على مخارق خطأ وقع منه  
في تقسيم غنائى فأعلن ذلك ، وكان ابراهيم بن المهدي حاضراً فأنكر  
أن يكون ثمت خطأ قد وقع في الأداء . فاستحضر الرشيد ابراهيم  
الموصلى عليلاً فجىء به محمولا على محفة ليكون حكماً . فلما أعاد  
مخارق الغناء حكم ابراهيم بما حكم به إسحق . واستكتهما الرشيد  
رقعتين بتسجيل موضع الخطأ فكان قولهما واحداً . وفي هذا  
ما يدل على أن أرباب الهواية الموسيقية مهما بلغوا من الدقة  
والمهارة والمعرفة فليس لهم أن يبلغوا درجة المحترفين المتخصصين

الذين وقفوا جهودهم على فهم ، مصدر حياتهم ومادة وجودهم .  
ومن ناحية أخرى تدل هذه الحادثة على مبلغ الدقة الفنية ، وأن  
الألحان قد بلغت من النضوج مستوى رفيعاً من التنظيم والتنسيق  
والتحديد حتى ليُدرك الخطأ في موضع واحد من ابراهيم وإسحق  
فيتحد فيه قولهما ورأيهما .

وقد لا يتحدان فيقع الخلف وتقوم الخصومة الفنية بينهما، فيناقض  
الابن أباه ، ولكنهما مع ذلك يتحاذيان إلى الفن والعقل والذوق .  
هذا إسحق يحدثنا أن أباه لحن أبياتاً لعمر بن أبي ربيعة فعاب  
صنعة أبيه فيها . وكان معقولا أن ينتهر إبراهيم ولده إسحق فيقف  
الأمر عند هذا . ولكن حرية الرأي الفني كانت من النضوج  
بحيث دفعت ابراهيم إلى الصبر ، فتحدى ولده بخير ما عنده من  
الألحان إلى جانب هذه المقطوعة التي لم يرقه لحنها . وتراضيا على  
التحاذي إلى أول مار بهما ، وكان طريقهما الصحراء . فأقبل عليهما  
رجل من النبط<sup>(١)</sup> يحتطب الشوك على دابته ، فاحتكما إليه ، وأسمعه  
كل منهما لحنه ، فكان الفوز لإبراهيم .

أما أبيات عمر فهي :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد      وشفّت أنفسنا بما تجدد  
واستبدت مرة واحدة      إنما العاجز من لا يستبد  
زعموها سألت جارتها      ذات يوم وتعرّت تبتدد

(١) النبط : واد بناحية المدينة .

أما ينعتني تبصرتني عمر كن الله أم لا يقتصد  
فتضحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود  
حسدأ حمائه من أجلها وقديماً كان في الناس الحسد  
ولعل هذه الأبيات على قصرها ، وقلتها ، تشف عن نواة  
القصة في الشعر العربي . ونرى فيها ابراهيم ملحناً مسرحياً ، وإن  
كان في صورة يلابسها الإيجاز والاختصار .. ألا إنها قصة شاعر  
يتحدث عن حبيبته وهي تسأل جاراتها عن مقدار صدق الشاعر  
فيما وصفها به من الحسن .

أما أغنية إسحق ففي هذين البيتين :  
قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا  
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاجبا  
وأروع من هذا وذلك أن يبلغ النضج الأدبي والفني هذا  
المستوى من الشعر المتخير والفكرة المنتقاة ، وأن يكون النقد فيه  
ميسوراً ومقدوراً لحطاب أو حمّال يستطيع أن يحكم حكماً مرضياً  
بين أعظم فنانيين في أزهي عصور الدول الإسلامية .

وكان ابراهيم يحسن الإفلات ويجيد الحيلة حين يضيق عليه  
الشرك ، أو حين يريد الكشف عن حقيقة فنية يجلبها على ما ينبغي لها :  
غنى ابن جامع ثلاثة ألحان أمام الرشيد تبعاعاً ، وادعى أنها  
من تراث الأقدمين . ولما سئل ابراهيم عنها قال لا أعرفها ، وكان



ذلك خذلاً نأله . فوجه ابن الرف ، أحد كبار المغنين ، في اليوم  
التالي إلى ابن جامع يتظاهر بتهنئته ويجهتد في أخذ تلك الألحان  
عنه . فنجحت الحيلة وحفظها عنه ابراهيم . وبكر إلى الرشيد  
وأظهر أمامه أنه كان يعرفها من قبل وإنما تظاهر بالجهل بها تحشياً  
واحتراماً لميل الرشيد إلى ابن جامع ورغبته في مناصرته . ثم غناها  
صوتاً صوتاً . فأقسم ابن جامع بأن ابراهيم لا يمكن أن تكون له  
سابقة علم بها لأنها من صنعته ولم يخرجها لأحد . فكان ذلك هو  
الاتصاف لإبراهيم لأنه ما كان يريد غير الوصول إلى هذه الحقيقة  
بين يدي الرشيد وهي نفي التقصير عنه بنفي كونها من التراث القديم  
الذي لا ينبغي لمثله أن يحمله .

على أن هذين العبقرين ابراهيم وابن جامع بلغا من المقدرة  
وسعة الإدراك وحدة الذهن ما تعد رواياته من الإعجاز . ولكن  
الغرابية يهون أمرها من مثلها إن كان لهما مثل :

زار ابن جامع يوماً إبراهيم فأخرج إليه ثلاثين جارية فضر بن  
جميعاً طريقة واحدة وغنين . فقال ابن جامع : في الأوتار وتر  
غير مستوي . فأشار إبراهيم لجارية من بين الجوارى وقال لها :  
شدّي مثناك<sup>(١)</sup> . فشدهته الجارية فاستوى . فعجب من حضر لفطنة  
ابن جامع لو تر غير مستوي في مائة وعشرين وترأ ، ثم ازداد عجبهم  
من فطنة ابراهيم للوتر بعينه .

(١) المثني الوتر الثاني من العود .

وكان إبراهيم رجلاً صريح التعبير جريئاً . ومن الناس من يفعل  
الخير ويسلك سبيل الفضيلة فيحوط نفسه بالكثير من الدعاوى ،  
بينما يصنع إبراهيم ذلك ثم لا يرى بأساً أن يصارحك بأنه صنع  
ما صنع خوفاً لا تعظفاً .

ومن حقنا أن نسأل إبراهيم عن الحالة النفسية التي يستوحى بها  
ألحانه . وها نحن نراه في حالة نعرفها عن أفذاذ العباقرة ، يفرغون  
أنفسهم من شواغل الحياة ويصبحون في حالة استغراق وتوجه في  
محض ، فإذا بهم يأتون بالعجب العجيب . سأله الرشيد يوماً كيف  
يصنع إذا أراد أن يصوغ الألحان فقال : « يا أمير المؤمنين أخرج  
الهم من فكري وأمثل الطرب بين عيني فتفتتح لي مسالك الألحان  
فأسلكها بدليل الإيقاع فأرجع ظافراً بما أريد » .

وقد أراد إبراهيم أن يكون له شيطان يعلمه ويلهمه . وما دام  
لأولئك الشعراء في الجاهلية شياطين ، وما دامت الجن في  
الغيران (١) والكهوف النائبة تلهم القصائد والمعلقات ، فليكن  
لإبراهيم واحد من أولئك . فالشعر والغناء متلازمان منذ  
قديم الزمن .

لقد خلا يوماً بحرمة وجواريه . وأمر خدمه وغلماؤه بأن  
يغلقوا عليه الأبواب فلا يأذنوا لأحد . وبينما هو كذلك أقبل

(١) المفرد غار .

عليه رجل وسيم تظاهر بالخبرة وراح يمتحن إبراهيم حتى استنفد ما عنده من فن ومن صبر. ثم أخذ هو العود فكاد ينطقه. ثم غنى أبياتاً وأبياتاً حتى ظن إبراهيم أن جدران المنزل وأبوابه تتجاوب معه من حسن غنائه. ثم قال له: هذا هو الغناء الماخوري فتعلمه أنت وجواريك. واختفى عنه ذلك الشيطان الذي زعم إبراهيم أنه إبليس اقتحم عليه داره والأبواب مغلقة، حتى ليقول «لقد هتف لي من بعض جوانب البيت أن لا بأس عليك يا أبا إسحق، أنا إبليس كنت جليسك ونديمك اليوم».

ويبدو لنا أنه كان يحاول التفوق على أنداده عند الرشيد بمثل هذه الابتكارات والمستحدثات. وما دام ابن جامع قد استباح أن يصطنع ألحاناً ويعزوها إلى القدماء فلم لا يطارحه إبراهيم غناء يعزوه إلى الشياطين الذين هم أقدم من أصحاب ابن جامع وأقدر من أساتذته. وإنما يحمل المغنين على مثل هذا ما كان للرواية من قيمة عالية في ذلك العصر، ولهذا يقول الأصفهاني: لعل إبراهيم صنع هذه الحكاية ليتنفق<sup>(١)</sup> بها.

ولقد كان من الخير لإبراهيم ألا يصطحب الشياطين ليستعين بهم وينسب إليهم ما حبته به الطبيعة من فن ساحر، كان ينتزع به الخلفاء والأمراء من وقارهم وهيبتهم:

(١) نفقت السلعة: كثر طلابها.

كان إبراهيم بحضرة الرشيد يوماً في صفوة من الفنانين فعزف  
زلزل بالعود، وزمر برصوم بالناي، وغنى إبراهيم. فطرب هارون  
حتى وثب من مكانه وقال: يا آدم لو رأيت من يحضرنى من ولدك  
اليوم لسرك. ثم استعاد هدوءه فجلس وقال استغفر الله.

وكان لإبراهيم ما الكثيرين من الفنانين من الدواعى العاطفية  
التي تثير أشجانها فتجعله شاعراً ملحناً. وقد هام بجارية تعرف بذات  
الخال كانت من أجمل النساء وأكملهن. وكان لشعره وغنائه فيها  
الأثر الكبير في شهرتها (١).

أما آخر لحن صاغه في آخر شعر قاله فهو ذلك:

مل والله طيبى عن مقاساة الذى بي  
سوف أنعى عن قريب له — دو وحبيب  
قال ذلك حين طال عليه المرض وانقطع عن خدمة الخليفة.  
ولكن كان حسبه أن يعود الرشيد في لحظاته الأخيرة. وقد سأله  
كيف أنت يا إبراهيم؟ فقال أنا والله يامولاي كما قال الشاعر:  
سقيم ملّ منه أقربوه وأسلمه المداوى والحميم  
فقال الرشيد إن الله، وخرج، فلم يتعد حتى سمع الناعية عليه.  
ومات إبراهيم سنة ثمانية وثمانين ومائة هجرية (٨٠٦ م).

\*\*\*

كان إبراهيم نابغة عصره لا ينافسه على مكاتبة الفنية في العصر  
العباسى سوى ولده إسحق.

(١) راجع ترجمة ذات الخال في هذا الكتاب.

وفيما قاله محمد بن الحسن عنه : كان لكل واحد من المغنين  
مذهب في الخفيف والثقيل فكان معبد ينفرد بالثقيل وابن سريج  
بالرمل وحكم الوادى بالهزج ولم يكن في المغنين أحد يتصرف  
في كل مذهب من الأغاني إلا إبراهيم الموصلي .

وقد جاءت حياة إبراهيم مصداقاً لنبوءة يونس الكاتب فقد  
أدركه إبراهيم وهو في شيخوخته فعرض عليه غناؤه فقال :  
إن عشت كنت مغنى دهرك .

وكان إبراهيم وابنه إسحق من أنصار القديم والمتعصبين  
لطرائق معبد وأسلوب المدرسة القديمة في الغناء . وظالما بذلا  
الجهود في الدفاع عن مذهبهما ، بحضرة الرشيد لمقاومة المدرسة  
الجديدة التي يتزعمها ابن جامع ، ويؤيدها إبراهيم بن المهدي  
أخو الخليفة بفضه ونفوذه .

وأما ثروته المالية فقد بلغ بها الملايين ، وقد أحصاها ابنه  
إسحق بأربع وعشرين مليون درهم ، حازها من هبات الخلفاء  
والأمراء والوزراء ، ومن ثمن القيان وأجور تعليم الجوارى .  
ولأول مرة في تاريخ التربية والتعليم الموسيقى عند العرب نرى  
مدرسة نسوية تلميذاتها ثمانون جارية بينهن بعوث من أصدقائه  
الذين وكلوا إليه تعليمهن ، فكانت باكورة الثمرات لأول مدرسة  
موسيقية في الإسلام .

# زلزل

في نهاية القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع ، وفي قمة العصر الذهبي من ملك بني العباس ومدنيتهم التي بسطت جناحيها على أعظم امبراطورية إسلامية ، ظهر منصور زلزل الضارب — أي العازف في لغتنا — من سواد أهل الكوفة . وقد تسنم غارب الشهرة الموسيقية في العزف حتى كان أشهر من وقع بالعود في دولة بني العباس . وتمتع بمكانة فنية قلما أتتحت لغيره ، وبقي اسمه لأمعاً إلى زمن طويل . وزلزل حين تقدمه يبدو لنا في لون آخر غير أولئك الأعلام الذين تحدثنا عنهم في هذا الكتاب ، فهو موسيقي عازف عالم مبتكر . وكان عزفه بعضاً من عليه . واطترن اسمه بأسماء بعض المقامات والنغمت ، فكأنما أصبح اسمه بحثاً وعلماً .

وقد اختلف علماء زمانه في موضع عفق نغمة السيكاه على العود ، وكانوا يسمونها « الوسطى » فعرفوا لها موضعين أطلقوا على أحدهما « الوسطى القديمة » وعلى الثاني « وسطى الفرس » . فلما جاء زلزل استحدث موضعاً جديداً لاستخراج هذا الصوت

يتوسط الموضعين المتقدمين وعرف « بوسطى زلزل » فيما بعد (١)  
ولم يقف ابتكاره عند تحقيق نغمات السلم الموسيقي والدقة البارعة  
في أدائها بل امتدت بحوثه البعيدة المدى إلى تحسين صناعة العود  
نفسها . قال إسحق الموصلي : إن زلزلا أول من أحدث العيدان  
الشبايط (٢) وكانت قديماً من عمل عيدان الفرس فجاءت عجباً من العجب .  
وناهيك برجل يبلغ من المكانة أن يكون أستاذ إسحق في  
العزف . فإذا كان هذا هو التلميذ فيما ارتقى إليه من شأو بعيد  
فكيف بمعلمه !! وقد تعصب له إسحق وفضله بحضرة الواثق على  
ملاحظ الذي كانت له الرياسة على جميع العازفين الحاذقين . وقد  
أثبت زلزل أنه حري بهذا التفضيل جدير بذلك التقديم .

غضب الرشيد يوماً على زلزل ، وكان قدراً مقدوراً أن  
يتجرع زلزل من الكأس المريرة التي يستهدف لها كل عبقرى  
يريد القدر به أن يكون شيئاً غير عادى . وقد دفعت به غضبة  
الرشيد إلى السجن وبقي فيه مدة غير قصيرة ... ومن أولى يانقاذ  
الفنان من الفنان ؟

هكذا صنع إبراهيم الموصلي حين قام الرشيد فى بعض شأنه  
وإذا بابراهيم يغنى فى شعر قاله فى حبس زلزل وهو :

(١) وتقدر وسطى زلزل بنسبة  $\frac{22}{37}$  من مطلق الوتر .

(٢) نسبة إلى « الشبوط » بتشديد الشين وتشديد الباء وهو سمك دقيق  
الذنب عريض الوسط لين المس صغير الرأس .

هل دهرنا بك راجع يازلزل أيام يبغينا العدو المبطل  
أيام أنت من المكاره آمن والخير متمسح علينا مقبل  
يا بؤس من فقد الإمام وقربه ماذا به من ذلة لو يعقل  
مازلت بعدك في الهموم مردداً أبكي بأربعة كأني مشكل

ودخل الرشيد وهو في ذلك مجلس في مجلسه ثم قال : يا إبراهيم  
أى شيء كنت تقول ؟ فقال خيراً ياسيدي . قال هاته . فتلكأ  
إبراهيم فغضب الرشيد وقال : هاته فلا مكروه عليك . فرد الغناء .  
فقال له أتحب أن تراه ؟ فقال إبراهيم : وهل ينشر أهل القبور ؟  
فقال الرشيد : هاتوا زلزلاً . فجاءوا به وقد ابيض رأسه ولحيته .  
فسرّ به إبراهيم . وأمر الرشيد زلزلاً فجلس يضرب وأمر إبراهيم  
فغنى وضرب عليه فزلزلا الدنيا . وأمر الرشيد بإطلاق سراح زلزل  
وأسنى جائزته ورضى عنه وصرفه إلى منزله .

أرأيت أروع من هذا ؟ . . . فإن ينقذ فناً بعد عشر سنين  
أونحوها . وإذا بنا نرى زلزلاً لم تنسه الحوادث والليالي السوداء  
والسنون المتعاقبة براعة العزف وحنق الضرب . ونرى بعد ذلك  
الفن يعيد للمغنى والعازف مكاتهما ويجزل في عطاتهما ومكافأتهما .  
وكم للفن من ثمار وثمار لو تعاون الفنانون في مودة وإخاء !!

وقضى زلزل نخبه عام ١٧٥ هـ ( ٧٩١ م ) . وكان له جارية قد  
رباها وعليها الضرب والغناء ، حتى حذقتها وبرعت فيهما ، وكان



يصونها من أن يسمعها أحد . فلها مات بلغ أسحق الموصلي أنها  
تعرض في ميراثه للبيع فسار إليها فغنت :

أفقر من أوتاره العود فالعود للأوتار معمود  
وأوحش المزمار من صوته فما له بعدك تغريد  
من للزامير وعيدانها وعامر اللذات مفقود

فأبكت عين إسحق وأوجعت قلبه . فارتد إلى الرشيد وحدثه  
بجديثها فأمر بإحضارها وقال لها : غنى الصوت الذى حدثني  
إسحق عنه . فغنته وهى تبكى فاغرورقت عين الرشيد وقال لها :  
أتجيبين أن أشتريك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين لقد عرضت على  
ما يقصر عنه الأمل ، ولكن ليس من الوفاء أن يملكنى أحد بعد  
سیدی فينتفع بي . فزاد الرشيد رقة عليها وقال : غنى صوتاً  
آخر . فغنت :

العين تظهر كتمانى وتبديه والقلب يكتم ما ضمنته فيه  
فكيف ينكتم المكتوب بينهما والعين تظهره والقلب يخفيه  
فأمر بأن تتباع وتعتق . ولم يزل يجرى النفقة عليها إلى أن ماتت .

هذه هى قصة الفن الوفى . لقد كان زلزل إذن يخفى كنزاً من  
الفن والجمال والسحر يرضن به على كل أذن أن تسمعه وعلى كل عين  
أن تراه ، ولكن القدر نكبه مرة أخرى فحبسه عن متعة قلبه وقررة

عينه بالموت . فهل نكب زلزل في الوفاء نكبته في الحياة ..؟ وماذا  
تستطيع جارية مملوكة موروثه في تركه أن تصنع إذا شاءت الوفاء ..؟  
لقد كان القدر رحيمًا ، وكرِيمًا في هذه الرحمة بذلك الفقيد فلم  
تفجع روحه في عالمها الأبدى بيد تمتلك من كانت في حياته  
مهجة قلبه .

وهكذا استطاعت جارية مملوكة أن تحتفظ بوفائها للفنان  
الراحل أمام خليفة بيده مفاتيح السعادة الماثلة التي تبهر النفوس  
وتخلب الألباب ، فقالت قولتها تلك ، وبقيت على الأمانة والوفاء  
كما بقيت ذكرى زلزل في سفر الخلود والبقاء .

## يحيى المكي

لم يمر بنا من قبل ولن يمر بنا في هذا الكتاب مثل شخصية يحيى المكي فهي غرابة وتعقيد وتنافر . ومع هذا فهو شخصية تعد غاية في فصاحة الفن وبلاغته . والأدباء كثيراً ما يرون في روايات الشعر والنثر على شخصيات مثل هذه فيرون فيها مجالاً خصباً للتحدث والنقد كما صنعوا مع حماد <sup>(١)</sup> الراوية ، وقلبا عشروا بين الغناء على مثل يحيى المكي . فهو حماد الموسيقى وراويها الذي لعب بالأجيال وسير ركب التاريخ كما شاء وشاء له الهوى .

اجتاز هذا الراوية الفنان دولا وعصوراً ، وشاهد انقلابات وانتقالات ، ورأى كيف شالت نعامة ملك بني أمية وتقلص ظلهم من دمشق ، وارتفع علم المدينة الإسلامية في بغداد بعدها . وسائر هذه القافلة في أزهي عصور بني العباس وشطر كبير من بداية اضمحلالها . وعاش يحيى قرابة مائة وعشرين عاماً كانت كلها أعوام جد وعمل ونشاط ، وتطور دائم مستمر ،

(١) شخص يضرب به المثل لكثرة ما رواه من الشعر.

يلاحق بعضه بعضاً ، ومواكب فنية من أعلام الموسيقى والغناء ،  
ومدارس منمشة من الموالى والقيان .

كل هذه المناظر تمر بيجي ويشاهدها في تعاقب السنين التي ملت  
من طول بقاءه وهو صامد للمناظر ثابت أمام المشاهد بين مر  
الغدوات وكر العشايا . وتجمع في رأسه إنتاج مائة عام أو تزيد .  
وقد واتاه الحظ بأن التدوين الموسيقى لم يكن قد استكمل عناصر  
بقاءه ومقدماته . كما أن الغناء بوصفه غذاءً روحياً شهيماً لم يكن  
ليجتذب عناية الناس بأمره من نواحيه العلمية الدقيقة ذات البحث  
الجاف والفض المعقد ، إنما الذي كان يعينهم من الأمر ناحية الطرب  
والجمال في الشعر والغناء معاً . وإذا كان تدوين الشعر ميسوراً  
وأكثر إمكاناً في الرواية والقراءة فشأن الغناء غير ذلك .

لهذا أمكن ليجي أن يتحكم بعمره الطويل وحياته المسهبة الممتدة  
فينسب الأغاني إلى أصحابها أو إلى غير أصحابها . وقد وجد مسوغاً  
جديداً هو أن الناس يحبون أن يتذوقوا طعم الفاكهة الغابرة وأن  
يتعرفوا كيف كانت الأذواق وكيف كان غناء أولئك الأبطال  
الذين تلع أسماءهم ولا يعرف غناؤهم من المتقدمين في العصر  
الأموي . وما دام أهل الأدب في ناحيتهم يذكرون أمثال كثير  
وجميل وعمر بن أبي ربيعة ثم يأتون بأشعارهم مع حوادثهم  
وتواريخهم فلماذا يذكر معبد والغريض وجميلة وابن سريج وأمثالهم

دون أن يعرف غناؤهم الذي هو لباب قصتهم في الحياة ؟ فليكن  
يحيى المكي إذن هو جعبة التاريخ وسجل أغاني أولئك الأعلام  
الذين انقضت عليهم عشرات الأعوام ، وتباعد بهم العهد وأصبح  
الشوق إلى فنه يساور كل نفس بعد ما بلغت شهرتهم عنان السماء .  
راح يحيى ينقل ما سمع في أمانة تارة وفي خلط تارة أخرى .  
ويغلب الظن أنه حتى في خلطه هذا جدير بالتخليد لأنه على الأقل  
كان ضرباً من التقليد . فلكي يصدق الناس روايته عن معبد مثلاً  
عليه أن يصوغ نفسه على صورة معبد ، وأن يتقن أسلوبه حتى  
يكون ما ينتحله له بعد ذلك نوعاً من الحكاية على أسلوب المروى  
عنه . وبذلك لا تكون تقولاته ورواياته كاملة التزييف والاختلاق  
في نظر الفن ، وإن كانت كذلك في نظر التاريخ . ولا أقل من  
أن انتحاله هذا يعطى للسامع لونا مفصلاً وصورة واضحة عما يرويه  
أو عمن يروى عنه . وليس ذلك بالعمل الضئيل .

أما نسبه فهو يحيى بن مرزوق مولى بني أمية . وكان يكتم ذلك  
لخدمته الخلفاء من بني العباس خوفاً من أن يجتنبوه ، فإذا سئل  
عن ولائه انتمى إلى قریش . ويكنى يحيى أبا عثمان .  
قدم مع الحجازيين الذين وفدوا إلى المهدي في أول خلافته .  
وكان يغني مرتجلاً ، ويحضر مجلس المعتمد مع المغنين فيوقع بقضيب  
على دواة . وكان ابن جامع وإبراهيم الموصلي وفليح يفرعون

إليه في الغناء القديم ويأخذونه عنه ويسابق بعضهم بعضاً بما يأخذه منه ، فإذا خرجت لهم الجوائز أخذوا منها ووفروا نصيبه . وله صنعة عجيبة نادرة متقدمة ، وكتاب في الأغاني ونسبها وأخبارها يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت ، وهو سفر كبير جليل إلا أنه كان كالمهمل عند الرواة لكثرة تخليطه في رواياته ، لذلك كان العمل على كتاب ابنه أحمد الذي صحح كثيراً مما أفسده أبوه وحقق ما نسبته من الأغاني إلى صانعه .

وكان إسحق الموصلي يقدم يحيى المكي تقديماً كثيراً ويصله ويقول : ليس يخلو يحيى فيما يرويه من الغناء الذي لا يعرفه أحد من أحد أمرين إما أن يكون محقاً كما يقول فقد علم ما جهلتم أو يكون من صنعته وقد نحلّه المتقدمين فهو أفضل وأوضح لتقدمه . وكان يقول أيضاً : لولا ما أفسد به يحيى المكي نفسه من تخليط روايته الغناء على المتقدمين وإضافته إليهم ما ليس لهم وقلة ثباته على ما يحكيه من ذلك لما تقدمه أحد .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : كان يحيى يخلط في نسب الغناء تخليطاً كثيراً ، وهو يصنع الصوت بعد الصوت يتشبه فيه بالغريص أو بمعبد تارة وبابن سريج أو بابن محرز تارة أخرى ويجهل في أحكامه وإتقانه حتى يشتمه على سماعه فإذا حضر مجالس الخلفاء غناه على أحسن صنعة ، مما لا يعرفه أحد . فإذا سئل عن ذلك قال أخذته

عن فلان وأخذه فلان عن يونس أو عن نظرائه من رواة  
الأوائل فلا يشك في قوله ولا يثبت لمباراته أو يقوم لمعارضته  
أحد . ودأب على ذلك حتى نشأ إسحق الموصلي فضبط الغناء  
وأخذه من مظانه ودونه وكشف عوار يحيى في منحولاته  
وبيّنها للناس .

قال إسحق يوماً الرشيد : أتجب يا أمير المؤمنين أن أظهر لك  
كذب يحيى فيما ينسبه من الغناء ؟ قال نعم . قال اعطني أى شعر  
شدت حتى أصنع فيه لحناً واسألني بحضرة يحيى عن نسبته فإنى  
سأنسبه إلى رجل لا أصل له ، واسأل يحيى عنه إذا غنيته فإنه  
لا يمتنع من أن يدعى معرفته . فأعطاه الرشيد شعراً فصنع فيه لحناً  
ولما حضر يحيى غناه إسحق . فقال الرشيد لمن هذا اللحن يا إسحق ؟  
فقال إسحق لغناديس المديني يا أمير المؤمنين . فأقبل الرشيد على  
يحيى وسأله : أكنت لقيت غناديس المديني يا أبا عثمان ؟ فقال يحيى  
نعم لقيته وأخذت عنه صوتين . ثم غنى صوتاً وقال هذا أحدهما .  
فلما خرج يحيى أقسم إسحق أن الله ما خلق أحداً اسمه غناديس  
وأنه وضع ذلك الاسم في وقته لينكشف الأمر .

غنى يحيى المكي صوتاً فسئل عنه فقال هذا للمالك ، ثم غنى  
لحناً للمالك فسئل عن صانعه فقال هذا لى . فقال له إسحق الموصلي  
وكان حاضراً : قلت ماذا فديتك ؟ وتضحك به ، وغنى الصوت ،

وذكر اسم صاحبه فحجل يحيى . ثم غنى بعد ساعة في الثقل الأول  
لحناً فسئل عنه فنسبه إلى الغريض فقال له إسحق : يا أبا عثمان  
ليس هذا من نمط الغريض ولا من طريقته في الغناء ولو شئت  
لأخذت ما لك وتركت للغريض ماله ولم تتعب . فاستحيا يحيى ولم  
ينتفع بنفسه بقية يومه . فلما انصرف بعث إلى إسحق بالآطاف  
كثيرة وكتب إليه يعاتبه ويستكف شره ويقول له : لست أنا  
من أقرانك فتضادني ، ولا أنا من يتصدى لمباغضتك ومباراتك ،  
ولأنت إلى أن أفيدك وأعطيك ما تعلم أنك لا تجده عند غيري  
فتسمو به على أكفائك أحوج منك إلى أن تباغضني فأعطى غيرك  
سلاحاً إذا حمله عليك لم تقم له ، وأنت أولى وما تختار . فعرف  
إسحق صدق يحيى وكتب إليه يعتذر ورد الآطاف التي حملها إليه  
وحلف لا يعارضه بعدها ، وشرط عليه الوفاء بما وعده به من  
الفوائد ، فوفى له بها وأخذ منه ما أراد من غناء المتقدمين . وكان  
يحيى بعد ذلك إذا سئل عن غناء في حضرة إسحق صدق فيه وإذا  
غاب إسحق خلط فيما يسأل عنه .

وقال أحمد بن سعيد : إن الاختلاف الواقع في كتب الأغاني  
إلى الآن من بقايا تخليط يحيى .

وسئل أحمد بن يحيى المكي عن صنعة أبيه فقال الذي صح  
عندي منها ألف وثلثمائة صوت ، منها مائة وسبعون صوتاً غلب  
فيها على الناس جميعاً من تقدم منهم ومن تأخر .



ومهما يكن القول في يحيى فقد طبقت شهرته الأوساط الفنية  
والآفاق الغنائية في زمنه الطويل . فليكن راوية أو مؤلفاً أو مغنياً  
فحسبه أن يتتلذذ له نجوم ذلك العصر وفي مقدمتهم ابن جامع  
وابراهيم الموصلى وفليح . بل بحسبه أن يهادنه إسحق ليزداد من  
علمه وليأمن عداوته . وحسب يحيى من الدنيا أن يدع تراثاً فنياً  
يضم الألوف من مروياته ومؤلفاته ، وأن يحظى بمجالس الخلفاء  
من المهدي إلى الرشيد إلى المعتمد ، ثم يترك الدنيا بعد مائة وعشرين  
عاماً قويم العقل صحيح السمع والبصر .

## ذات الخال

فتاة خلوب تستهوى الأرواح وتعبث بالقلوب ، وفي مقدمتها  
قلب أستاذها ومعلمها إبراهيم الموصلي . لقد ذهبت إليه تتعلم الغناء  
فكانت أغنية معلمها وحيرة أستاذها . أرسل فيها شعره وغناؤه ،  
وشهرها بل شهر معها نحاسها أبا الخطاب المسمى بقيرين من موالى  
العباسة شقيقة الرشيد وكان يتجر بالجوارى المولدات والإماء  
الفنانات . قال إبراهيم في ذات الخال :

إليك أشكو أبا الخطاب جارية      غريرة بفؤادى اليوم قد لعبت  
وأنت قيمها فانظر لهاشقتها      ياليتها قربت منى وما بعدت

ويبدو لنا أن إبراهيم قد اشترى ذات الخال هذه وسعد بها  
سعادة قصيرة ، فقد جنى عليه شعره فيها وتشبيهه بها حيث وصل  
غزله في محاسنها إلى سمع الرشيد فاشتراها وأغلى فيها القدر ولم  
يضن على ثمنها بسبعين ألف درهم . إلا أنه وقد احتازها في قصره  
لم يجد فيها شفاء صدره فقد اعتقد أنها ليست خالصة له . وكيف  
يستخلص لنفسه ويستصفي لأنسه من تغزل فيها إبراهيم ، وقد يكون  
غير إبراهيم قد أحبها أو أحبته !!

أمام هذا القلق الثائر لم يكن صعباً على الرشيد أن ينزل عنها هبة لحمويه الوصيف . وما أن غربت الشمس عليها خارج قصره حتى أجنَّه الليل فازدحمت عليه الخواطر والهموم من أجلها . لقد اشتاق إليها وإلى عذب غنائها ، فأخذ يتساءل : كيف سمحت نفسي بأن يضيع هذا الكنز الثمين من يدي !! لقد ألقيت بها طوعاً وتنازلت عنها اختياراً ووهبتها هبة رخيصة كأنما ضاقت بها نفسي ذرعاً !! أهكذا تشور بي الغيرة فأنتزع من يدي خاتماً لؤلؤيا كان متعة ناظري وأنس روحي !!

وفي ساعة من ساعات الصفاء قال الرشيد لحمويه الوصيف : ما صنعت الأقدار بذات الخال عندك ؟ قال حمويه : إنها قررة العين ومتعة السمع والبصر . قال الرشيد : ويالك يا حمويه وهبنك الجارية على أن تسمع غنائها وحدك ؟ أجاب حمويه : يا أمير المؤمنين مر فيها بأمرك . قال الرشيد : نحن عندك غداً ..

وفي أصيل اليوم التالي وقد انحدرت الشمس إلى مغربها مر سلة تلك الأشعة الذهبية التي يلهو بها الناس فينسون فراق الشمس وهي خلف رداء الشفق أقبل الرشيد إلى بيت حمويه ليرى ذات الخال ، فإذا بها فوق خياله... لقد رآها تميز في عقود من الجوهر، وتخطر في حلي وحلل تربو قيمتها على اثني عشر ألف دينار . وهنا يشوب الرشيد إلى رشده فينسى ما كان يتصباه من الجمال وما هو مشوق

إليه من الاستمتاع بسمع ذات الخال . فقد رأى الرشيد عقوداً  
وجواهر لا قبل للوصيف بها ، وما كان له أن يشتريها إلا حين  
يكون ثمنها غير حلال ..

ها هو ذا الرشيد ينظر إلى الوصيف شذراً ويحملك في وجهه  
غاضباً : ويلك يا حمويه ، من أين لك هذا ، وما وليتك عملاً  
تكسب فيه مثله ولا وصل إليك مني هذا القدر ؟

لقد كانت الجواهر مستأجرة لاستقبال الخليفة على حال تليق  
بعضمة مقامه . ولم يكن الوصيف قد اشتراها . كما أنه لم يتوقع أن  
أمير المؤمنين سائله ومعرض به لخطر داهم أقل ما فيه عقاب على  
سرقة أو غضب . ولكنه كشف القناع عن المتاع فإذا به قد  
استأجره إلى حين . وكانت مكافأة الأمانة وجزاء الصدق أن أصبح  
المستأجر ملكاً حيث دفع أمير المؤمنين قيمة الجواهر وأهداها  
إلى ذات الخال .

ثم يلوح لنا بعد ذلك أن تلك الفنانة الموهوبة للوصيف قد  
آن لها أن تسترد وترتجع . ولا بد ثمت تعويض يرضى عنه حمويه .  
وقد تكفلت له به ذات الخال نفسها حين طلبت إلى الرشيد أن  
يوليه الحرب والخراج بفارس سبع سنين . ففعل ذلك ، وكتب له  
وثيقة به وشرط على ولي العهد بعده أن يتمها له إن لم تتم  
في حياته .

وحفل قصر الرشيد بعد ذلك بذات الخال وكانت لها فيه ليال  
باسمة كإشراق الربيع . فهي إحدى ثلاث استولين على قلب  
الرشيد ، كان لهن معه ألوان من الدعابة والحوار والتجنى والتدلل .  
أما أولئك الثلاث فهن : سحر ، وضياء ، وخنث ذات الخال .  
وقد جاء فيهن قول نسب إلى الرشيد :

ملك الثلاث الأنسات عناني      وحللن من قلبي بكل مكان  
مالي تطاوعني البرية كلها      وأطيعن وهنّ في عصياني  
ماذاك إلا أن سلطان الهوى      وبه قوين أعز من سلطاني  
لقد عاشت ذات الخال في أعظم قصور الشرق وفي رعاية  
أجلّ ملوكه شأنًا وأعظمهم قدرًا ، وهي أشبه بالنسيم الحالم والطيور  
المدلل . وأصبحت وقد استردها الرشيد شاعرة بمكاتها ، تغار  
وتغضب وتثور وترضى .

ها هو ذا الرشيد يعدها أن يسمر على سماع صوتها ، فإذا بحظ  
إحدى الجوارى يقطع عليها الطريق فينتزعه منها قبل أن يصل  
إليها ، ويقنع الرشيد بمسامرة غيرها . ولكن ذات الخال قد  
أدركها الغضب ، وانتقدت نيران الغيرة في صدرها . وماذا هي  
صانعة بالرشيد إذا أرادت أن تتأثر لحظ ليلتها !! إنها القينة الضعيفة  
وهو أمير المؤمنين صاحب السطوة والسلطان . إنها لا تستطيع  
أن تمتد إلى نفسه بفعل أو قول يشفي غيظها إلا أن تجعل جمالها

موضع الانتقام والعقاب . لقد قامت بنزع الخال وهو كنزها  
الذي طالما خلبت به الألباب ، وجمالها الذي تألقت به بين الأتراب ،  
فلقد كانت أنضر الحسان وجهاً ولها خال على خدها لم ير الناس  
أحسن منه في موضعه . فما أن علم بذلك الرشيد حتى نسي ما كان  
فيه من الأسفار بما طالعته من الأكدار . لقد جنت على قلبه  
قبل أن تجنى على وجهها ، وسطت على حبه قبل أن تسطو  
على حسنها . وكأنما اقتطعت بذلك شريحة من قلبه حين مدت  
المقراض إلى الخال فمحت به آية الجمال . وما لبث الرشيد  
أن ترك ما هو فيه وأقبل عليها . وكان ليلتئذ بحاجة إلى دواء  
يخفف بعض ما أصاب قلبه الجريح ، ولم يكن ذلك غير شعر الغناء  
أو غناء الشعر فهو قيثاره الروح التي ترفه عن الحزون وتصور  
الآلام فتخفف الشجون . سأل الرشيد : من بالباب من الشعراء ؟  
فقبل له عباس بن الأحنف . فأدخل عليه فرسم له الرشيد هذا  
المعنى فنظمه كلاماً ، ثم صوره إبراهيم الموصلي أنغاماً :

تخلصت بمن لم يكن ذا حفيظة      وملت إلى من لا يغيره حال  
فإن كان قطع الخال لما تعطف      على غيرها نفسي فقد ظلم الخال

هذا هو الفن الساهر في العصر الزاهر . كان الفن مستيقظاً  
إلى جانب يقظة الدولة وسعادتها ، فما تألم الرشيد حتى كان الشعر  
والغناء خير دواء .

ومضت ذات الخال تسعد ليالى الخليفة بصوتها العذب الخنون  
وروحها المرحة الجميلة ، وتضيف إلى أفراحه وأبهة ملكه نعيماً  
روحياً من عذوبة موسيقاها وبراعة لحنها . واشتد إعجاب الرشيد  
بها إلى حد أنه يعرض غناءها على إمام الغناء في عصره إسحق  
الموصلى . ففي إحدى الليالى دعى بها الخليفة وأدناها وأمرها  
أن تأخذ سبيلها إلى سحر الفن ، فأنشدت في وصف الروميات  
على سبيل الإغراب والإطراف بملاحتهن :

جئن من الروم وقاليقلا (١) يرفلن في المرط ولين الملا  
وكأنى بها تصف السبايا اللواتى يقبلن مع أبطال الحروب  
وعلين زينة بلادهن ومدنية شعوبهن .

ولكن ما ذنب هذا الشاعر المسكين ، الذى جرى به ليصور  
نفس الرشيد للرشيد وليترجم عن مشاعره ، فإذا به ينقلب صباً  
والهاً بها هو الآخر ، ويصبح فى عداد محبيها المأخوذىين بسحرها  
المتشبين فى مفاتها !!

لقد كانت ذات الخال تحمل تياراً كهربائياً ، فى درجة أخاذة،  
يصعق جماها من رآها بعينه أو اخترق ألحانها شغاف قلبه ، حتى  
لكأنه يردد مع عباس بن الأحنف ما أنشده فيها ، بما غناه له  
إبراهيم . وقد جاء فى البيت الأخير من أبياته بتقسيم عذب ملء  
بالإبداع والإمتاع :

(١) لعل الشاعر يقصد مدينة قليقلا .

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى  
عُشير الذي ألقى فيلتم الشعب

إذا رضيت لم يهنى ذلك الرضا  
لعلى به أن سوف يتبعه عتب

وأبكي إذا أذنت خوف صدودها  
وأسأها مرضاتها ولها الذنب

وصالكم هجر وحبكم قلى  
وعطفكم صد وسلمكم حرب

ولئن استهدف ابن الأحنف وغيره لثوقوع في شرك جماها  
وسحر دلالها وبديع غنائها فذلك شأن كل شاعر أو كل مغن  
اتصلت حباله بجبالها . فإذا رآها المغنى كانت أغنيته ، وإذا رآها  
الشاعر كانت قصيده ، وماهى إلا نظرة وابتسامة حتى يقع المأخوذ  
فيقول عنها مع القائل :

جزى الله خيراً من كلفت بحبه      وليس به إلا المموه من حبي  
وقالوا قلوب العاشقين رقيقة      فما بال ذات الخال قاسية القلب  
وقالوا لها هذا محبك معرضاً      فقالت أرى إعراضه أيسر الخطب  
فما هو إلا نظرة بتبسم      فتلشب رجلاه ويسقط للجنب



## بذله

كانت بذل من أولئك الجوارى الساحرات اللاتي امتلأ بهن هذا العصر الذهبي من عصور الإسلام ، إن لم يكن هو أزهي عصوره وأنضر عهوده ، وهو عصر بني العباس الأول . وأنت تسمع أحاديث أولئك الجوارى فتتطرب لطرائف أخبارهن وما نقلت الآثار التاريخية عنهن . وأنت تجد في كل واحدة منهن مزية لا تجدها عند الأخرى . فكأنك إذ تمر بتاريخ أولئك الحسان إنما تطوف بروضة فيحاء ، في كل دوحة منها فاكهة امتازت بها عن سواها من الدوحات والأشجار . فإذا عند « بذل » ، مما يستهوى القارئ والمطلع ، وبما هو عبرة المبتدى والمنتهى ؟ ... إنه شيء هام إلى الغاية .. أعنى الرواية والحفظ . فمن لا يحفظ عن غيره لا يحفظ عنه ، ومن لا يعرف ما عند الناس فهو خليق بالألا يعرف الناس عنه شيئاً . فالرواية هي أساس كل محصول علمي فني . وما ضعف إنتاج العصور المتأخرة إلا بفقدان الاهتمام بالنقل والحفظ .

وإننا لنعجب حين يقال لنا إن المتنبى أو غيره كان يحفظ عشرات الألوف من الأراجيز وأبيات القصيد ، لأننا نجد أنفسنا

قاصرين عن هذا المدى ، نفرّ من النصوص والمحفوظات باللغة ما بلغت من القلة واليسر !! ولو أننا كنا قد أخذنا أنفسنا بشيء من هذا التراث لكان علينا أن نصدق أن « بذل » حفظت ثلاثين ألف صوت . ولعل بما يقرب هذا إلى الذهن ويجعله أمراً مقطوع التسليم به أن علماء الحديث قد اصطالحوا على أسماء خاصة لجماعة الحفاظ وجعلوهم طبقات ومراتب لكل من يحفظ نصاباً خاصاً ، لعشرة آلاف إلى مائة ألف من الأحاديث ذات المتن والأسانيد . وهذا شائع معروف عند علماءهم . وإن كتاب أبي الفرج الأصبهاني موسوعة الأدب والغناء العربي يقع في أكثر من عشرين مجلداً وهو من رواية رجل واحد ومن إنتاج حفظه وجمعه .

هكذا كانت بذل راوية عجيبة . وهى فى الأغاني والأصوات كحماد الرواية فى الأدب العربى . وإن احتفظ التاريخ بمرويات حماد فلقد ضن علينا بما ثورات بذل لأن موسيقى تلك العصور قامت على التلقين لا على التدوين ، مع أن بذل لم تقتصر على ما حفظت ولقنت ، بل لقد ألقت كتاباً فى الأغاني المنسوبة إلى أصحابها ، بلغت فيه اثني عشر ألف صوت .

وكانت تجمع بين الغناء والعزف ، وبلغت فى ذلك منزلة كانت تطارح فيها كبار المغنين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم . فهى تعارض إسحق الموصلى ، وتناهض إبراهيم بن المهدي ، وحسبك بهما من زعيمين لأكبر مدرستين فى ذلك العهد .

وكانت بذل مع ما تجمع من الغناء والعزف والنقل والرواية  
جميلة وسيمة خفيفة الروح لها جمال ساحر وعاطفة تسمو بها  
إلى حياة راقية في ظل الخلافة وأمراءها . اشتراها جعفر  
ابن موسى الهادي ثم سطا عليه محمد الأمين وانتزعها منه انتزاعاً  
كما تنتزع القطرة السائغة من فم شاربها وهو ظمآن . وأرسل إليه  
على كره منه عشرين ألف درهم ثمناً لها . وناهيك به من ثمن  
يدل على ما بلغت هذه الجارية من نفس مشتريها ، وقد رأى فيها  
الكنز الذي تهون في سبيله جميع الأموال . وما زالت عند الأمين  
مدة خلافته بعد أبيه حتى قتل . وقد خلف لها تركة من الجواهر  
كانت تعيش بما تبيع منها عيش يسر ورخاء ، حتى قضت أيامها  
ولا تزال لديها منها بقية وافرة .

تتلذت بذل على دحمان ، وفليح ، وابن جامع ، وابراهيم  
الموصلى ، ومن في طبقتهم من أعلام هذه الصناعة في ذلك العصر .  
وبلغت منزلة فنية حيرت فيها الأقطاب المقدمين ، وناظرتهم  
وتركتهم في حيرة من أمرها ...

قال المؤرخون إن إبراهيم بن المهدي كان يعظمها ويتعصب  
لها فيتودد إليها . ثم تغير عليها إعجاباً بما بلغه من مكانة في الغناء ،  
ظناً منه أنه قد أصبح عنها في غنى . فسارت إليه لتعلمه درساً في  
التواضع لعظمة الفن وجلاله ، وطلبت عوداً وغنت أمامه

— كما يقولون — في طريقة واحدة وإيقاع واحد وإصبع واحدة  
مائة صوت لم يعرف إبراهيم منها صوتاً واحداً، ثم وضعت العود  
وانصرفت . ولم تعد إلى داره بعد ذلك حتى ألحَّ عليها في الرجاء  
والتودد إليها والاعتراف بفضلها .

وحدث أن إسحق — وتلك شنشنته وخليقته — خالفها في  
نسبة صوت غنته بحضرة المأمون . فأمهلت ساعة . ثم غنت ثلاثة  
ألحان من الثقيل الثاني واحداً بعد واحد وسألت إسحق عن  
مصدرها . فلم يجد طريقاً إلى الجواب . فقالت للمأمون : يا أمير  
المؤمنين هي والله لأبيه أخذتها من فيه فإذا كان هذا لا يعرف  
غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره !! فاشتد ذلك على إسحق  
ورؤى ذلك على وجهه . وهو خليق هذه المرة بتلك اللطمة فطالما  
أثار الجدل في مجلس الخلفاء حول المزينين والمغنيات ونسبة  
الأصوات فحوّل مجالس الطرب إلى حلقة بيزنطية أو سفسطة فنية  
كان يمكن الاستغناء عنها في مثل هذه الحال .

وليس أحد ينكر علم إسحق ، إلا أن إعجاب العلماء بأنفسهم  
أحياناً ومحاولتهم التفرد بالعظمة والانتصار على حساب انتقاص قدر  
غيرهم ، هذا العمل من شأنه أن ينزل بأقذارهم بدلاً من أن يعلو بها .  
فلو أن أهل العلم أضافوا إلى علمهم سماحة الخلق والتحلّي بالتواضع

وتشجيع من هم أقل منهم تجربة وتحصيلاً ، لأضافوا إلى علمهم  
فضلاً يزين العلم ويجلوه .

على أن إسحق كان يطرب لسماع بذل حتى لقد روى ابنه حماد  
قال : غنت بذل يوماً بين يدي أبي :

إن ترينى ناكل البدن فلطول الهم والحزن  
كان ما أخشى بواحدتى ليته والله لم يكن  
فطرب أبى والله طرباً شديداً . . .

وكانت بذل عزيزة ، كريمة النفس ، وفيّة لماضيها وكرامتها .  
فلم تقبل أن تقترن بكبار القواد والعطاء الذين تقدموا إلى خطبتها .  
وكانت محتفظة بكل ما للفنان العالم من ذاتية وقدر . وحسبك  
أن تشير فى على بن هشام على سمو مكاتته عاطفة يغلى مرجلها  
بهذه الآيات :

تغيرت بعدى والزمان مغير  
وخست بعهدى والملوك تخيس  
وأظهرت لى هجراً وأخفيت بغضة  
وقربت وعداً واللسان عبوس  
ومما شجاني أننى يوم زرتكم  
حجبت وأعدائى إليك جلوس

وفي دون ذا ما يستدل به الفقي

على الغدر من أحبابه ويقيس

كفرتُ بدين الحب إن زرتُ بابكم

وتلك يمين ما علمت غموس

فإن ذهبت نفسي عليكم تشوقاً

فقد ذهبت للماشقين نفوس

لقد كانت هذه الفنانة مثال البذل والسخاء ، بل مثال النبيل

والوفاء . وتركت من صفاتها لحناً تاريخياً إذا ذهبت ألقانها

من التاريخ .

## عُلَيَّةُ بِنْتُ الْمَهْدِيِّ

كثيرون من المغنين والمغنيات نقلوا الفن الغنائى تراثاً انحدرت به الدماء من آباء وأمهات وذوى قربي . وقد لاحظنا ذلك كثيراً في معاصرنا . وهما نحن نجد في « عُلَيَّة » بنت المهدي ، فأما مكنونة المغنية ، جارية أمّ ولد . واعلمها كانت في شببتها أنضرت جوارى المدينة وجهاً وأسمحن منظراً . وقد اشتراها المهدي في حياة أبيه بمائة ألف درهم . ولقد وهبها من قلبه أكثر من هذا المال ، وشغف بها ، وغلبت على نفسه حتى اشتعلت الغيرة في قلب الخيزران فراحت تقول : ما ملك المهدي امرأة أغلظ علىّ منها . وقد أخفى المهدي أمرها حتى وفاة المنصور فولدت له « عُلَيَّة » .

وقد نشأت « عُلَيَّة » أميرة تستقبل خلافة بعد خلافة ، فمن خلافة الأب والجد إلى خلافة الأخ وابن الأخ . فشبت زهرة يانعة مدللة بين مقاصير الذهب واللؤلؤ وبسط الحرير والديباج . وثقفت بما هو جدير بأمثالها من نيرات الخلافة والملك . تقول الشعر الجميل ، وتصوغ لحناً أجمل منه ، وتؤديه بأعذب صوت وأبرع أداء . ولها إلى جانب ذلك ملاححة طبع وإيناس روح وجمال دعابة . وكانت

لسعة جبينها أول من اتخذت العصائب المكحلة بالجواهر لنستر بها  
جبينها . وقد تأنقت في ذلك إلى حد قلدها فيه كثيرات غيرها .

وقد جمعت «علية» بين شخصية الفنانة البارعة وصفات المتعبدة  
المصلية . فما تكاد تنال نصيبها من الغناء حتى تنصرف إلى تلاوة  
القرآن والصلاة وقراءة الكتب . وإنك لتعجب إذا علمت أن  
هذه الموعظة الجميلة القصيرة قد صدرت عن هذه الموسيقارة  
الشاعرة المبدعة حيث قالت : « ما حرّم الله شيئاً إلا وقد جعل  
منه عوضاً ، فبأى شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته . وكان إيمانها  
بطهارة تاريخها ينطقها بهذا الاعتزاز والفخر إذ تقول : « لا غفر  
الله لي فاحشة ارتكبتها قط » .

ولعلنا نجد من شعرها ما قد يخالف ذلك ، إلا أن أشعارها  
تلك لم تكن إلا ضرباً من عبث الشعراء . وقد نجد في ألقامهم  
وأبعدهم عن الشبهات وصفاً للخمر يعجز عن مثله النشأوى  
والندمان . وكما قالت هي عن نفسها : « ولا أقول في شعري  
إلا عبثاً » .

وقد اطلعنا على الكثير من أبناء أخيها إبراهيم ومكانته التي  
سامى بها إسحق وأباه إبراهيم ، وما كان له من براعة في الخلق  
والابتداع والإنشاء والغناء حتى كاد يصبح مدرسة مستقلة ،  
وها نحن أولاء نرى المؤرخين يقدمون «علية» على أخيها فيقولون :



« ما اجتمع في الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناءً من ابراهيم  
ابن المهدي وأخته عليّة ، وكانت تقدم عليه » .

وإنما كانت غلبة إبراهيم عليها في الشهرة لأنه أكثر ظهوراً في  
المجالس والمناظرات ، وهو يستطيع التنقل في حرية وانطلاق .  
بينما هي محصنة لا تغنى إلا حين يطلب إليها الخليفة ، وهي كثيرة  
التعبد ، غنية عن الشهرة والذبوع ، وليست بحاجة إلى أن يسمعها  
الناس أو يعرفوا عنها تلك المكانة في الغناء .

ولها شعر انتحلت فيه اسم « طل » واتخذته موضعاً لغزلها .  
فمن هو طل هذا ؟ ... لست أرى إلا أن يكون هذا الاسم ضرباً  
من رفاهية هذه الشاعرة . فهي تتلاعب بهذا الاسم ، وتصحّفه  
وتغير فيه ما شاءت . وهو اسم مكون من حرفين لا يكلف  
كثير غناء في النطق به مع ما فيه من موسيقى اللفظ . . . فلم يكن  
« طل » هذا سوى واحد من ألوف الأسماء التي امتلأت بها دواوين  
الشعراء قديماً وحديثاً ، كأسماء سعاد وزينب وسلمى وغيرهن ممن  
استهل الشعراء بهن القصائد وعمّروا بأسمائهن الدواوين  
والمعلقات !!

ومن قول « عليّة » في طل المزعوم وقد صحّفت اسمه في

البيت الأول :

أيا سرورة البستان طال تشوقى  
فهل لى إلى « ظل » لديك سبيل  
متى يلتقى من ليس يقضى خروجه  
وليس لمن يهوى إليه دخول  
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا  
فياقنى اغتباطا خلة وخليل  
ومنه أيضاً :

سلم على ذاك الغزال الأغيد الحسن الدلال  
سلم عليه وقل له يا « غل » الباب الرجال  
خليت جسمى ضاحيا وسكنت فى « ظل » الحجال  
وبلغت منى غاية لم أدر فيها ما احتيال  
وهذا مؤتمر موسيقى ينعقد اجتماعه بحضرة الخليفة المعتصم  
وقد تألف من أكابر المغنين أمثال مخارق وعلويه ومحمد بن الحرث  
وعقيد ، فتغنى عقيد :

نام عذالى ولم أنم واشتقى الواشون من سقمى  
وإذا ما قلت بى ألم شك من أهواه فى ألمى  
فطرب المعتصم لشعر رقيق وغناء أرق ، فقال لمن الشعر  
والغناء ؟ وحق له أن يسأل . فسكتوا ولم يجدوا سهلاً عليهم أن  
ينسبوه إلى عمه أبيه . فتسرع محمد بن اسماعيل بن موسى المهدي

وقال إنه لعلية . ثم ما لبث أن أدرك خطاه حيث أسرع إلى إظهار ما حاولوا إخفائه وهم به عالمون . ولكن الخليفة يسر عليه الخطب وقال له : « لاترعب يا محمد فإن نصيبك فيها مثل نصيبي » .

ولعل فضل « عليية » على الفن وأهله كان من ناحية القيمة التي سمت إليها ألحانها وعلا فيها اقتدارها . ولكن شيئاً أجدى من ذلك كله على الموسيقى وأعلامها هو أن « عليية » أضفت من مكاتها على هذه العشيرة ، وأسبغت عليها من جلال قدرها أكثر مما أسبغت من جمال اقتدارها . فهذا هو « البنان » يغني لحناً بديعاً من خفيف الرمل في حضرة المعتصم فيتسم أحد أقطاب الفن عن شهدوا ذلك المجلس ، فيسأله المعتصم عن بواعث ابتسامه ومصدر تعجبه ، فيجيب أن سببه هو اجتماع الشرف من ثلاث جهات على هذا الشعر : في قائله وملحنه ومستمعه ، أما قائله فالرشيد وأما ملحنه فعلية بنت المهدي وأما مستمعه فأنت يا أمير المؤمنين . ولم يكن اللحن في جملة سوى هذين البيتين :

يابنة المنزل بالبرك      وربة السلطان والملك  
تحرّجى بالله من قتلنا      لسنا من الديلم والترك

ونحن لا نستطيع أن نتجاوب مع هذين البيتين فيما يكون بهما من جمال وروعة لأننا لا نلم كثيراً بأحاسيس ذلك العصر نحو الترك والديلم ، وإنما يعنيننا هذا التوافق العجيب والانسجام الذي

جری به القدر صدقة فی حظ هذین البیتین فرفع مقامهما تألیفاً  
وتلحیناً وسماعاً إلى أرفع أوج وأسمى منزلة .  
وهو من ناحية أخرى یضع أیدینا على المستوى الذی ارتفعت  
إلیه الموسیقی فی ذلك العصر الزاهی وتلك الدولة التي هی قمة مجد  
العروبة والإسلام فی عصورها المتعاقبة .

ثم نعود إلى أمر إسحق الموصلی وحياته الجدلية الصاخبة  
من المخبين وشأنه معهم . فلقد قبلنا منه أن یطرح أصحاب الغناء  
ویناضلهم ویحاول التفوق علیهم أو التتقیص من شأنهم حين یتهمهم  
بالتحریف أو التزیّد فی مرویاتهم عن أبيه أو غیر أبيه . ولكنه  
الآن بصدد لون جدید یفوق ما سبقه من ألوان الادعاء والانتحال .  
فقد غنی لحناً لعلیة بحضرة المأمون ، فصادت بالخليفة ذکریاته  
إلى أنه قد استمع إلیه من عمته قبل وفاتها . وسأل إسحق عن ذلك  
فأدرك فی الحال أن قد أسقط فی یده فراح ینتحل اللحن وأنه  
هو الذی صنعه لها أيام الرشید . وجرى فی ذلك على قصص  
لا یستقیم أوله مع آخره فی منطق التاريخ والوقائع . فقد ادعی  
أنه عند ما كان یسیر بهذا اللحن لیباکر به الرشید تلقفته رسل  
« علیة » من الطریق وسألته « علیة » بادیء ذی بدء عن اللحن  
الذی وضعه وأنها ترید سماعه وإجازته ، ثم راحت تساومه على  
شأنه بعد أن تعلته وأجادت أداءه ومنحته عشرين ألف درهم

وعشرين ثوباً مضاعفة ، وهددته ، وبماذا ؟ . . بالقتل إن هو أظهر  
أنه صاحبه ، إذ أصبح هذا اللحن منذ اليوم من تأليفها ومن صناعتها .  
ثم يذكر أنه قبل ذلك على مضض وانتظر بها وباللحن حتى قضت  
نحبها . وما كان هذا القصص بما فيه من ادعاء ظاهر وتكلف واضح  
لتخفي وقائمه على مثل المأمون في حصافته وذكائه ودقته فأنب  
إسحق على إفشاء سر ونقض عهد والخيانة في شيء تسلم ثمنه  
لوصحت القصة .

وليسمح لنا إسحق ، غير مجحود الفضل ، أن نسمعه من  
خلال سجف القرون والأحقاب أن المروءة قد خجلت من قضية  
أجحف فيها بحق « عليّة » في وقت لا تستطيع فيه الدفاع عن نفسها  
ولا فنها . وعلى التاريخ أن يحتفظ بالحق لعليّة مادام المدعى قد قعد  
عن التصريح والإعلان عما يعتقد في حياتها .

أما البيتان المتنازع على ملكية لحنهما فهما :

سقيا لأرض إذا مانت نهنى بعد الهدوء بها قرع النواقيس  
كأن سوسنها في كل شارقة على الميادين أذئاب الطواويس  
ولقد كانت « عليّة » في جنة وارفة الظلال من غنائها العذب ،  
فبقدر ما كانت أختاً لإبراهيم في النسب فلقد كانت شقيقته الفنية  
التي تستمرىء معه ذلك الغذاء الشهى من معاني الشعر الملحن . فإذا  
فاضت كأسها الرويّة سقت من رحيقها عشيرتها وأسرتها ، وقدمت

في كرمها مع الطعام والشراب ألعانها محمولة في أكواب من حناجر  
جواربها الحسان ، كما صنعت ذلك في مجلس ضم أخويها الرشيد  
والمنصور حتى إذا سمعا وطربا كتبت إليهما في رقة تحييهما  
وتقول لهما :

« لقد صنعت ياسيديّ أختكما هذا اللحن اليوم ، وألقيته على  
الجواري واصطبحتُ فبعثتُ لكما به وبعثتُ من شرابي إليكما ومن  
قيناتي وأحزق جواري لتغنيكما ، هنا كما الله وسركما وأطاب عيشكما  
وعيشي بكما . »

ولعلها وهي بارة بأهلها ، كريمة بفنها وفيضها ، كانت أغزر  
براً ، وأندى كرمأ ، وأوفى عطفأ ، وأنبل معنى ، حين رأت أم  
جعفر زوج الرشيد وهي والهة حيرى شاردة البال ، فإن ثمت  
جارية قد استأثرت بقلب الرشيد وشغلت منه يوماً نسي فيه كل  
شئ سواها إذ كانت غاية في الجمال وبدعة في الكمال ، وكان من  
حولها حشد من الجواري . وإذ ذاك استنجدت أم جعفر بعليّة  
فكانت خير مواس لها في محنتها النفسية وقالت في شجاعة وحزم  
وثقة بمقدرتها : « لايهولنك هذا فوالله لأردنه إليك » . ثم صنعت  
شعراً ، وصاغت للشعر لحنأ ، ووضعت له منهجأ خاصأ من الأداء  
لم ير مثله الرشيد ولم يسمع بمثله الخلفاء في قصور دمشق  
ولا بغداد . فجمعت جواربها وجواري أم جعفر وبقيّة جواري

القصر من المغنيات ، في أجمل الثياب وأبهى الحلى وأثمن الجواهر  
وأبداع المناظر . وما هي إلا ساعة حتى فوجئ الخليفة بعد صلاة  
العصر بموكب لم يعرفه ومشهد لم يألّفه ... عدد لا يحصى من الجوارى  
المغنيات يطالعهن وفي طليعتهن « عليّة » من جانب و « أم جعفر »  
من جانب آخر يرددن جميعاً في صوت واحد من شعر « عليّة »  
وتلحينها :

منفصل عنى وما قلبي عنه منفصل  
يا قاطعى اليوم فمن نويت بعدى أن تصل

فملك الطرب عنان الرشيد ، وأقبل كالمعتذر إلى أم جعفر  
وعليّة ، وأخذ يكلل جبين هذا اليوم بنثر العطايا . وكأنه شاء أن  
يدفع ثمناً لهذا السرور وأن ينسى بمنظر الجود والكرم وحشة  
أم جعفر .

والعبرة في هذا أن « عليّة » قد انتهى برها إلى ما يفوق النهاية ،  
وهي فيه مؤلفة الشعر ، وواضعة اللحن ، ومعلمة الفرقة ، ورئيستها .  
وكل هذه الظواهر تدلنا على أن « عليّة » قضت أكثر حياتها  
والفن متعة روحها وغذاء قلبها ، تذيعه في وسطها الملىّ بالنعمة  
والبهجة . ولعلّ مما شجعها على رسالتها تلك وتنسيق حياتها فيها أنها  
لم تكن اللؤلؤة اليتيمة في عقد من الخرز بل كانت جوهرة بين  
جواهر وفنّانة بين فنّانين . فلندع غريب المغنية تروى لنا هذه القصة

فتنقلنا بالخيال لحظة سعيدة نرى فيها صورة مصغرة هي إحدى  
ألوف الصور من الجو الفنى الذى كان يحيط بها . قالت عريب :  
« أحسن يوم رأيته وأطيبه ، يوم اجتمعت فيه مع ابراهيم بن  
المهدى عند أخته علية ( وهى تغنى ) وأخوها يعقوب يزمر عليها :

تجب فإن الحب داعية الحب  
وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

وغنى ابراهيم فى صنعته وزمر عليه يعقوب :  
يا واحد الحب مالى منك إذ كلفت  
نفسى بجمك إلا الهم والحزن  
لم ينسينك سرور لا ولا حزن  
وكيف لا كيف يُنسى وجهك الحسن  
ولا خلا منك قلبى لا ولا جسدى  
كلى بكلك مشغول ومرتهن  
نور تولد من شمس ومن قمر  
حتى تكامل منه الروح والبدن

فما سمعت مثل ما سمعته منهما قط ، وأعلم أنى لن أسمع مثله أبداً .  
ولقد ابتدعت « علية » ألحاناً تفوق الحصر والعد ، وما دامت  
هى فنانة نفسها وقصرها فليس يعنىها فى شىء أن يحفظ الناس عنها  
أو يعدوا مصنفاتها . وما كانت « علية » كأولئك المحترفات اللاتى



يعشّين المجالس فيُحفظ عنهن ما أنشأن وما ألفن ، ولكنها كانت  
تلحن خلف الحجاب المصون دون أن تعنى بما يروى عنها . ولذا  
فنحن لا نشك في أن ألحاناً كثيرة من صنعها قد ضاعت ، وذلك  
لم يحل دون التحدث عن عدد الأصوات التي نسبت إليها . وقد  
تجاوز في شأنها عريب وخشف الواضحة ودار الحوار بينهما  
حتى قدراً ما صنعته من الألحان بنيف وسبعين صوتاً . وأخيراً  
نرى خشف تطالعنا برواية صوت جديد عنها ، ولكن أين ومتى ؟  
في عالم الأحلام والرواى بعد موت « عليّة » لا في عالم اليقظة  
في حياتها . وهذه هي الأبيات التي نسب إليها شعرها وتلحينها :

بُنِيَّ الحُبِّ على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمح  
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج  
وقليل الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثير قد مزج

وحسب منها شرفاً أن يحاكي ويقلد بعد وفاتها . وهذا من ناحية  
البحث العلمي يدلنا على أن « عليّة » كانت في فنها ذات طابع خاص  
وأسلوب معين وطريقة محدودة واضحة يمكن انتهاجها والسير عليها  
وحكاية صداها والنقر على وترها .

على أن هذه الأبيات وسواها من أبيات آخر لم تكن روايتها  
في عالم الأحلام والأوهام ، على ما روته خشف ، بل في عالم اليقظة وفي  
دنيا الحياة . ولعل خشف لم تعلم أن الرشيد استيقظ يوماً على غير

عادته وقصد منزل ابراهيم الموصلي قرب السحر فاستمع عنده إلى  
جارتين غنته إحداهما هذه الأبيات عينها التي مطلعها « بنى الحب .. »  
فسألتها الرشيد لمن الشعر والغناء فقالت لستى . قال ومن ستك ؟  
فأجابت على استحياء إنها « عليّة » بنت المهدي . وسمع من الثانية لحناً  
آخر في أبيات ، شعرها وغناؤها لعلية أيضاً . فأسرع الرشيد إلى  
أخته واستعاد منها هذه الألحان فأعادتها بعد تدلل وتجن وإنكار .  
فقال لها ياسيدي أعندك كل هذا ولا أعلم ؟ ..

وإذن فقد تبين في جلاء أن لعلية ألحاناً لم تكن متداولة  
ولا يدرى بها أقرب الناس إليها ، وأن لها من الألحان أكثر مما  
عدّ الرواة لها . كما اتضح أنها كانت تبادل ابراهيم الموصلي بدائع  
الابتكار منه أو منها عن طريق هؤلاء البعثات المؤلفة من جواريتها .  
وكان من أشعارها وألحانها التي سمعها الرشيد وأعجب بها قولها :

تحب فإن الحب داعية الحب

وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

تبصر فإن حدثت أن أخوا هوى

نجا سالماً فارحُ النجاة من الحب

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا

فأين حلاوات الرسائل والكتب

وقولها :

يا مورى الزند قد أعيت قوادحه

أقبس إذا شئت من قلبي بمقباس

ما أقبح الناس فى عيني وأسمجهم

إذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

ومما يزيد الأدلة السابقة قوة وبرهانها على فقدان الكثير من

ألحانها أن الرشيد أسمع بعض المقرئين إليه غناءها من وراء

الأبواب ، ثم قال له بعد أن ملك الطرب عنانه إنها « عليّة » بنت

المهدي ووالله لئن لفظت بين يدي أحد باسمها وبلغنى لأقتلنك .

وهل ترى دليلاً أوضح وأصدق على غزارة مادتها وسعة

ابتكارها وعظيم مقدرتها وسرعة إنجازها من أنها تؤلف الشعر

ارتجالاً وترتجل اللحن ابتداءاً فتأتى فيهما بالمعجزة !!

هذه هي « عليّة » وقد زارها أخوها الرشيد وطلب إليها الغناء .

فقال له إننى سأغنى ولكن شعرى وغنائى مما أكرمك به بديهة

وارتجالاً . وراحت تغنى هذه الأبيات :

تفديك أختك قد حبوت بنعمة

لسنا نعد لها الزمان عديلاً

إلا الخلود وذاك قربك سيدى

لا زال قربك والبقاء طويلاً

وحمدت ربي في إجابة دعوتي

فرأيت حمدي عند ذاك قليلاً

وقد عاشت «عليّة» في صون حجابها على معهود عصرها ،  
مغنية عازقة شاعرة مبتكرة معلمة متعلمة . وكانما قد عاشت ناسكة  
في صومعة فيها وخلوة عبادتها ، فقد صامت وحجت ورتلت  
القرآن ، ثم قالت الشعر الرقيق السهل الممتنع ، وأرسلت الغناء الذي  
إن لم نسمعه فقد سمعنا عنه ما كفى .

وقضت «عليّة» سنة عشر ومائتين من الهجرة (٨٢٥ م) ، ولم  
تتجاوز الخمسين ربيعاً . . . حياة كلها صبا وشباب ، عاصرت فيها  
الرشيد ، وقاطعت بعده الغناء ودواعيه حزناً عليه . ثم ألح عليها  
الأمين في خلافته فتكلفت . وبعد أن قتل الأمين وانتصر المأمون  
عادت أيضاً إلى الغناء على قلة حتى ماتت بين يديه وصلى عليها بنفسه .  
وفضلاً عن مكاتبتها الغنائية الرفيعة فأنت ترى أن مامرّ بك  
من شعر «عليّة» يدل على أصالتها في الأدب وقدرتها في البيان .  
ولقد كانت جديرة أن تذكر بين أعلام الشعراء كما ذكرت بين  
نحوم الغناء .

## دنانير

اشتهر هذا الاسم في تاريخ الغناء ، وزاده شهرة ولمعانا أنه مر بالأفلام المصرية في لون من الغناء المسرحي . وكان من حق دنانير علينا في عصر الموسيقى والمسرح أن نذكرها وقد استعير اسمها وشخصيتها في هذا الجليل حتى أصبح لها وجود معنوي يفيد منه نجوم النهضة الموسيقية الحاضرة .

ودنانير هي المغنية المبدعة ، والمطربة المؤلفة ، والملحنة الملهمة والحافظة الراوية ، والشاعرة المثقفة ، وأخيراً الأبية الوفية . وهي الجامعة في مزاياها بين جمال وجهها وحسن ظرفها وكمال أدبها . وهذه صفات وحقائق امتازت بها دنانير فأحلتها قصور الوزراء ومجالس الأمراء ، وكادت تلعب بقلب الرشيد لعب سلامة وحجابة بقلب يزيد لولا ما بين العهدين من فوارق وظروف وما بين الخليفتين من اختلاف في أسلوب الحياة .

كانت دنانير مولاة لرجل بالمدينة . فاشتراها منه يحيى بن خالد البرمكي وما لبث أن أعتقها . وقد تنقلت في ثقافتها الفنية بين كبار أعلام الفن الغنائي في العصر العباسي فتقفت أصول الغناء على أستاذتها

« بذل » وتلمذت لفظاحل المغنين كإبراهيم الموصلى وابنه إسحق  
وابن جامع وفليح . وكانت تجيد العزف إجادتها الغناء ، فقد تتلمذت  
في العزف بالعود على « زلزل » وهو من هو في البراعة والابتكار  
وخلق الأنغام . وانتهى بها الأمر إلى أن يساجلها علهان من أعلام  
الغناء في ذلك العصر هما يحيى المكي وابن جامع فتغلبهما في كثير  
من الأحيان وتحرز قصب السبق في الميدان .

وألفت دنانير لحناً من ألحانها الساحرة فأعجبت به ، وكثيراً  
ما يعجب الفنان بأثاره ، وقد يكون محقاً ، وقد يكون ذلك غروراً  
منه بنفسه أو مجاوزة لما ينبغي . وأبلغت دنانير مولاها يحيى خبر  
هذا اللحن فخشي أن تكون قد بلغت في تقدير إنتاجها فقال  
لابراهيم الموصلى أستاذها : إن ابنتك دنانير قد عملت صوتاً  
وأعجبت به فقلت لها لا يشتد إعجابك حتى تعرضيه على شيخك  
فامض إليها كي تعرضه عليك . فمضى ابراهيم إليها وإذا الستارة قد  
نصبت فسلم عليها من وراء الستارة فردت السلام وقالت : يا أبت  
أعرض عليك صوتاً قد تقدم لا شك إليك خبره ، وقد سمعت  
الوزير يقول إن الناس يفتنون بغنائهم فيعجبهم منه ما لا يعجب  
غيرهم وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك . فقال ابراهيم  
هات . فأخذت العود وتغننت بالصوت فأعجب ابراهيم غاية العجب  
واستخفه الطرب واستعاده طالباً فيه موضعاً يصلحه ويغيره عليها

لتأخذه عنه فما استطاع إلى ذلك سبيلا . فقال لها أعيديه الثالثة فأعادته  
فإذا هو كالذهب المصفى . فقال لها أحسنت يا بنية وأصبت . ثم خرج  
فلقبه يحيى بن خالد فقال كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير ؟ قال إبراهيم  
أعز الله الوزير والله ما يحسن كثير من حذاق المغنين مثل هذه  
الصنعة ، ولقد قلت لها أعيديه فأعادته مرات كل ذلك أريد إعانتها  
لأجتلب لنفسي مدخلا يؤخذ عنى وينسب إلى فلا والله ما وجدته .  
فقال له يحيى والله سررتنى وسأسرك . ووجه إليه بمال عظيم .

وهذه القصة على بساطتها تكشف عن القيمة العليا التي بلغتها  
دنانير ، وقد استكثرها عليها الوزير وحسدها عليها الفنان ،  
ثم أصبح كل منهما شاهداً بنوعها ، يتبادلان الحكم لها والثناء عليها .  
وحسبها أن إبراهيم الموصلى أمير المغنين في زمانه بلغ من إعجابه  
بلحنها أن حاول وضع بعض الكسوة والصياغة عليه ليرده إليها  
منسوباً إليه ولو على سبيل أنه حسن فيه وأصلح منه ، ولكنه  
ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما صنع سوى أن زاد اللحن قيمة  
والملحن قدراً .

وكانت دنانير تسجل في ذاكرتها إنتاج إبراهيم الموصلى وتعيد  
ما تسمعه منه فتحكيه في أمانة وتؤديه في صدق وبراعة كأنه تكرر  
لصوت صاحبه ، حتى قال إبراهيم ليحيى البرمكي : متى فقدتني  
ودنانير باقية فما فقدتني .

وغنت بحضرة الرشيد فسحرتة بغنائها . وكان لما استولى عليه  
من فنونها البارعة ورقة ظرفها وبديع محاسنها أن زاد كلفاً بزيارة  
مولايها وبالغ في الإكثار من هذه الزيارة والإفراط في الاستماع  
إلى دنانير حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته فعاتبوه على ذلك .  
وبلغ من مكانة دنانير عند مولايها يحيى أن كان يخرج عنها  
كفارة الصوم في شهر رمضان عن كل يوم ألف دينار . وهذه  
المبالغة في الفدية دليل على ما كان لها من القيمة عنده حيث تبلغ  
النفقة عليها في شهر واحد ثلاثين ألف دينار وهو من الكثرة بما  
لا يعرف له نظير ولم نسمع به لغير دنانير . ولم يكن إفطارها  
في رمضان عن استهتار أو تهاون إنما سببه مرض معوى أصيبت  
به فجعلها لا تصبر عن تناول الطعام مدة طويلة .

وعلى الرغم من أن يحيى البرمكي أعتقها فقد لازمت البرامكة  
وغنت ليالي أفراحهم ، فكانت متعة أسما معهم وأرواحهم وأبصارهم ،  
حتى نسبت إليهم فلقت بدنانير البرمكية . وظلت فيهم حتى شهدت  
نكبتهم التاريخية المشهورة التي نكبتهم بها الرشيد .

وبعد هذه الكارثة دعاها الرشيد وأمرها بالغناء فأبت وقالت  
يا أمير المؤمنين إني آليت ألا أغنى بعد سيدي أبداً ، فغضب  
الرشيد وأمر بصفعها فصفعت ، وأمرت بالوقوف ، وأكرهت على  
أن تمسك بالعود فما كادت تفعل حتى غلب على غنائها البكاء وهي تنوح :



يا دار سلمي بنازح السند بين الثنايا ومسقط اللبد  
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يعد  
ويظهر أن نعمة الوفاء الصادرة من قلبها الجريح ، في إبانها ،  
ثم في غنائها ، أثارت في قلب الرشيد عطفاً عليها فأمر بأن تترك  
وشأنها ، فما جفّ لها دمع حتى لحقت بالبرامكة .  
وقد هام بها الشعراء وتغنى بها منهم أبو حفص الشطرنجي حيث  
يقول في شعر مطلعته :

هذي دنائير تنساني فأذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها  
ولم يكن شأن دنائير موقوفاً على الطرب والغناء من حيث  
الأداء بل كان ذلك شأنها أيضاً في التأليف فقد صنفت كتاباً  
في الأغاني دل على مكانتها العلية وعلى سمو قدرها الفني . فهي  
لم تكتف بمثل ما صنعه نظراؤها من التغنى أو العزف والتطريب  
بل سمت إلى مقام التأليف فجمعت خلاصة مدرسة فنية كبيرة كان  
أساتذتها أعلام العصر كله ، وإن كنا نأسف لضياح هذا الأثر  
القيم من حوزة التاريخ .

ولعل الذي سماها دنائير قد أصاب التفاؤل وبلغ فيه المنتهى .  
فلقد كانت دنائير ثروة وكنزاً ورأس مال لا من الذهب الذاهب  
الفاني بل من الفن الرفيع الباقي .

## مِثْلُ الْهَشَامِيَّةِ

نجمة متألقة بين نجوم عصر بني العباس ، ابتسمت قصتها في  
مطلع فجر الحياة ، وما زالت تلك البسمة تملو حتى صارت ضحكا  
عالياً وسعادة مشرقة ومجداً عريضاً وغنى وثراءً ونعيماً . ثم تجهمت  
لها الأقدار فغمرها الشقاء بعد السعادة ، ولازمتها المحنة بقية حياتها .  
ولكنها محنة الأوفياء الذين يعيشون من فضيلة حفظ العهد بما قد  
يسرى عنهم الدمع المسكوب والشجن الأليم .

كانت مقيم للبانة بنت عبد الله بن اسماعيل المواكبي مولى  
عريب . فاشتراها علي بن هشام منها بعشرين ألف درهم — وإليه  
نسبت فقيل الهشامية — وكانت في سن مبكرة . وما كان لعلي أن  
يرتفع بقيمة جارية في حدائة سنها إلى هذا القدر من المال  
لولا ما كانت تشف عنه مخايلها من دلائل النبوغ والعبقرية .  
وكان علي عامل المأمون على أذربيجان وما يتاخما . وعلم المأمون  
أنه يسير في الرعية سير المعتصب الظالم من أخذه الأموال وقتله  
الرجال فأمر بقتله .

وكانت مقيم أحظى جوارى علىّ عنده ، وأحبهن إليه ،  
وآثرهن لديه . وهي أم ولده جميعا .  
أما هي فكانت من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتعلت  
فنون الأدب والغناء . ثم تتلمذت لإسحق الموصلي وأبيه ابراهيم  
ومن في طبقتهما من المغنين . وكانت أستاذتها الدائمة « بذل »  
المغنية ، تخرجت في الغناء على يدها واعتمدت على ما حفظته عنها .  
كما أفادت كثيراً من أعلام المغنين الذين كانوا يقدون على مولاها  
على بن هشام ، وحفظت عنهم كل مبتكر جديد من ساحر العزف  
وطريف الأغاني .

ولم تكن مقيم بارعة الغناء فحسب ، بل ضمت إلى ذلك براعة  
الحسن والأدب والثقافة والتأليف . أدركها عبد الله بن العباس  
الريعي ، وكان من فحول المغنين ، فلما سئل من أحسن من  
أدركت صنعة ؟ قال : إسحق ثم علويه ثم مقيم ثم أنا . فلما بدا  
عجب السائل من تقديمه مقيم على نفسه قال : الحق أحق أن يتبع ،  
وما أحسن أن أصنع كما صنعت مقيم في لحنها :

فلا زلن حسرى ظلُّعا لم حملنها

إلى بلد نام قليل الأصادق

وإذا كان من القضايا المسلم بها أن كثرة من أهل هذه الصناعة  
خاصة كثير والتحامل بعضهم على بعض ، شديدو النفاسة على

ما يصنعون من أصوات وألحان أدركنا ما لشهادة عبد الله  
ابن عباس من قيمة وتقدير .

أهدى إلى علي بن هشام برذون<sup>(١)</sup> أشهب قرطاسي<sup>(٢)</sup>. وكان  
في النهاية من الحسن والفراهة . وكان عليّ به معجبا وإسحق  
الموصلى يرغب فيه رغبة شديدة ، وعرض لعلّي بطلبه مراراً  
فلم يرض أن يعطيه له ، فسار إسحق إلى عليّ يوماً بعقب صنعة  
متميم « فلا زلن حسرى » فاحتبسه عليّ ، وبعث إلى متميم أن  
تجعل صوتها هذا في صدر غنائها ففعلت ، فأطرب إسحق إطراباً  
شديداً ، وجعل يسترده فترده وتستوفيه ، ليزيد في إطرابه  
إسحق وهو يُصنئ إليها ويتفهم لحنها حتى صح له . ثم قال لعلّي :  
ما فعل البرذون الأشهب ؟ قال : علي ما عهدت من حسنه وفراسته  
قال : فاختر الآن منى خلة من اثنتين : إما أن طببت لى نفساً به  
وحملتني عليه ، وإما أن أبيت فادعى والله هذا الصوت لى وقد  
أخذته ، أفتراك تقول إنه لمتميم وأقول إنه لى ويؤخذ قولك ويترك  
قولى ؟ قال : لا والله ما أظن هذا ولا أراه ، يا غلام قد البرذون  
إلى منزل أبي محمد بسرجه ولجامه ، لا بارك الله له فيه .

وإن هذه الدعابة لتحمل في هزلها الجمد كل الجمد ، وتنطوى  
على شهادة من إسحق الموصلى ومكانته من الموسيقى علومها وفنونها

(١) البرذون: الدابة . (٢) القرطاسى : الأبيض الذى لا يخالط بياضه شية .

مكانته ، واعتراف منه وهو علم الغناء في العصر العباسي لم يتم .  
فما كان له أن يقبل نسبة اللحن إليه وادعاه إياه لنفسه مجرد رغبته  
في البرذون . ولو أنه كان لحناً دون منزلته في هذا الفن لما قبل  
أن يدعيه . بل لقد وجد فيه الإعجاز فحفظه ووعاه ، ورأى في نسبته  
إليه تشرiffاً ، وأن مقيم بلغت من النضوج ما يصح معه أن ينسب  
فنها إليه . ولولا ذلك ما قبل لنفسه أن ينسب اللحن إليه حتى ولو  
كان معه برازين بغداد جمعاء .

ولا أدل على اعتراف إسحق بقدر هذه الفنانة من قوله لها  
عندما سمع هذا الصوت الذي تقدم : أنت أنا ، فأنا من ؟ يريد  
أنها قد بلغت منزلته وساوته .  
أرأيت مكانة أسمى من هذه المكانة ؟ ومقاماً فنياً يُتطاول إليه  
كهذا المقام ؟

وهذا ابراهيم المهدي سمعها تغني في مجلس المعتصم :

لزئيب طيف تعتريني طوارقه

هدواً إذا ما النجم لاحت لواحقه

فحاول استعادته ، على نحو ما صنع إسحق من قبل ، وكانت هي  
أحرص على نفسها من أن تلدغ من جحر مرتين فأبت . ولكن  
ابراهيم ما زال يخالس منها الفرصة حتى سمعها وهي في منظره لها  
مشرفة على الطريق تغني هذا الصوت على جوارى على بن هشام .

فتقدم إلى المنظرة وهو على دابته فتناول حتى أخذ الصوت . ثم  
ضرب المنظرة بمقرعته وقال : قد أخذناه بلا حمدك .  
ولقد كان علي بن هشام كفاً بها لا يستطيع صبراً على فراقها  
أو على طول دلالها . وله في ذلك قصص تدل على عظيم تقديره  
لها وتعلقه بها .

فمن لطائف ما حدث له معها أنه كلما يوماً فأجابته جواباً  
لم يرضه فدفعها بيده ، فغضبت ونهضت . وتناقلت عن الخروج  
إليه . فكتب إليها :

فليت يدي بانث غداة مددتها إليك ولم ترجع بكفٍّ وساعد  
فإن يرجع الرحمن ما كان بيننا فليست إلى يوم التنادى بعائد  
فصنعت فيه لحنا صرع القلب وأذهل اللب . وغنته فكان شفاء  
النفس وغذاء القلوب والحس .

وعتبت عليه مرة قتمادي عتبها ، وترضاها فلم ترض ،  
فكتب إليها : الإدلال يدعو إلى الإملال ، ورب هجر دعا إلى  
صبر . وإنما سُمي القلب قلباً لتقلبه . ولقد صدق الأحنف  
حيث يقول :

ما أراني إلا ساهجر من ليس يراني أقوى على الهجران  
قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ما أضر الوفاء بالإنسان  
فخرجت إليه من وقتها ورضيت .

وهنا نقف وقفة قصيرة أمام تلك البيئة التي عاشت بها فنانتنا  
الفاتنة، فهي بيئة الثروة والحكم والنفوذ والقصور والملك العريض.  
فلم لا تنطلق بلبلة كمتيم لتملأ هذه الجنة كلها عبقرية وجمالاً وتغمرها  
سحراً ودلالاً !! ولم لا تتجاوب مع كل لون من ألوان تلك  
السعادة بالحن تبتدعها وأغان تبتكرها !! وهي أيضاً بيئة ذكاء خارق  
وفطنة بالغة وفراصة عجيبة. فلنستمع إلى عليّ حيث يحدثنا فيقول:  
لما قدمت عليّ جدتي من خراسان، قالت اعرض جواريك عليّ  
فعرضتهن عليها. ثم جلسن علي سمر وغنننا متيم وأطالت جدتي الجلوس  
فلم أنبسط إلى جوارى كما كنت أفعل. فقلت هذين البيتين:

أبقى علي هذا وأنت قريبة وقد منع الزوارُ بعض التكلم  
سلام عليكم لا سلام مودّع ولكن سلام من حبيب متيم  
وكتبتهما في رقعة ورميت بها إلى متيم فأخذتها، ونهضت إلى  
الصلاة. . ثم عادت وقد صنعت فيه اللحن الذي يغنى فيه اليوم.  
فغنت وطربت. فقالت جدتي: ما أرانا إلا ثقّلنا عليكم اليوم،  
وأمرت الجوارى فحمنن محفتها. وأمرت بجوائز للجوارى،  
وساوت بينهن. وأمرت لمتيم بمائة ألف درهم. وهذا ظرف من  
عليّ، وفطنة من جدته، وعبقرية من متيم.

وكانت متيم شديدة الوفاء لعلی بن هشام. وقد ظلت علي  
وفائها له حتى بعد مماته. وصنعت فيه نوحاً أذهل النوايح حتى

قالت « زَيْن » زعيمتهن : رضى الله عنك يا مقيم ، كنت علماً في  
السرور وأنت علم في المصائب .

وقد مرت يوماً نسوة وهى مستخفية بقصر على بن هشام  
بعد أن قتل ، فلما رأت بابه مغلقاً لا أنيس عليه ، وقد علاه  
التراب والغبرة ، وطرحت في أفنيته المزابل ، وقفت عليه تغنى :

يا منزلاً لم تبل أطلاله      حاشا لأطالك أن تبلى

لم أبك أطلالك لكنى      بكيت عيشى فيك إذ ولى

قد كان لى فيك هوّى مرة      غيبه الترب وما هلا

فصرت أبكى جاهداً فقدته      عند ادكارى حيثما حلا

فالعيش أولى ما بكاه الفقى      لا بد للمحزون أن يسلى

ثم بكى حتى سقطت من قامتها ، وجعل النسوة يناشدنها ويقلن :  
الله الله فى نفسك فإنك تؤخذين الآن . وبعد لآى ما ، حملت  
تعثر بين امرأتين حتى تجاوزت الموضع .

ودعيت مقيم إلى مجلس المعتصم ، وهى فى وقت محنتها ،  
فأنشدت شعراً محزوناً فتشامم الخليفة ، وطلب أن تبدل غنائها ،  
فغنت على نحو غنائها الأول حتى ضجر بمكانها . ولم تستطع بعد  
المرّة الرابعة أن تغير نفسها المحزونة المكتئبة لتخلق شيئاً ليس فيها .  
فقدر الخليفة وفاءها ، ولم يحشمها ما ليس فى طاقتها ، وأذن لها  
فى الخروج دون أن يناهها بسوء .



ومن العجب أن نرى هوية بعض الأزهار تتجلى في عباقرة ذلك العصر وفنانيه ، فإن كثيرين منهم كان لهم بألوان وأنواع خاصة من الزهر ميول وكاف ، كما تحدثنا بذلك القصائد التي وصفت لنا الكثير من هذه الزهور . ومن ذلك أن مقيم كانت مغرمة بزهر البنفسج ، وقد وجدت فيه راحة القلب وهدوء النفس ، فكان لا يفارقها . ومن تتبع زهرة البنفسج وجد لها عشاقاً من أرباب المواهب الفنية ، كأن تلك الزهرة صورة من أذواقهم التي تعيش في مثل هدوء البنفسج وعطره البديع .

وقد ماتت مقيم في عصر المعتصم ، وأحدثت فراغاً عظيماً في ذلك الجو . ومات وإياها في وقت متقارب إبراهيم بن المهدي وأستاذتها بذل . ومن الفكاهات التي تلتطف حدة الشعور بخسارة ذلك العصر لهم تلك الطرفة التي يرويها المؤرخون :

لما ماتت مقيم وإبراهيم بن المهدي وبذل تقدمت إحدى جواري المعتصم وقالت : يا سيدي ، أظن أن في الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء إليه . فنهاها المعتصم عن هذا القول وأنكره . فلما كان بعد أيام وقع حريق في حجرة هذه القائلة ، فاحترق كل ما تملكه . وسمع المعتصم الجلبة فقال ما هذا فأخبر عنه فدعا بها فقال : ما قصتك ؟ فبكت وقالت يا سيدي احترق كل ما أملكه . فقال لا تجزعي فإن هذا لم يحرق وإنما استعاره أصحاب ذلك العرس .

## فريدتان

لم نتعود أن نضع في هذا الكتاب ، وربما في غيره كذلك ،  
عنواناً أو موضوعاً لعلمين اثنين معاً في إطار واحد . وإنما ألقانا  
إلى ذلك الآن دفع التشابه والالتباس في الأسماء ، فكثيراً ما يقع  
الخلط فيما تألف فيه الأسماء وتشابه العناوين والألقاب . ودفع  
بنا إلى هذا شيء آخر هو أن كتي الفريدتين قد جمعتهما عصر واحد  
وفن واحد وقصر واحد ، فقد ظهرت كل منهما في العصر العباسي .  
ولم يكن الذي وحد بينهما العصر وحده بل الفن الخالد ، والغناء  
الساحر ، وأنها من جوارى الخلفاء . ونحن آخذون في الحديث  
عن هاتين الزميلتين في الاسم والعصر والصناعة والمكانة .

أما فريدة الأولى ، التي ظفرت لتقدمها الزماني باسم فريدة  
الكبرى ، فهي من المولدات اللائي نشأن في الحجاز . وقد امتازت  
بجمال الصوت من مستهل حياتها . فلما صارت إلى آل الربيع فطنوا  
إلى موهبتها الصوتية واستعدادها الموسيقي فعهدوا بها إلى من أتقن  
تعليمها وأكمل ثقافتها الفنية . وارتفع بها شأنها إلى البرامكة  
فصارت إليهم وسكبت رحيق أغانيها في قصورهم ، فلما قتل جعفر

ونزلت بهم كارثة القضاء المحتوم لاذت بالفرار . وحاول الرشيد  
أن يستحضرها إلى قصره فأعياه الطلب . ثم صارت بعد ذلك إلى  
الأمين ، حتى إذا قتل تزوجت بعده مرتين . وقد أنجب ولدأ  
كان ثمرة الزوجية الأولى .

وكانت تتخير لغنائها جيد الشعر ومليح القافية . ومن ذلك  
غناؤها في قول جميل :

ألا أيها النوام ويحكمو هبوا  
نسائلكم هل يقتل الرجل الحب  
ألا رب ركب قد وقفت مطيهم  
عليك ولولا أنت ما وقف الركب

\*\*\*

أما فريدة الأخرى ، أو الصغرى ، فلقد كانت أقدر الفريدتين  
وأظهرهما فناً ، وأنضرها وجهاً ، وأحسنهما صناعة . تعلمت ألوان  
الغناء ومهرت فيها اختراعاً وابتكاراً . وحسبك من هذا أن يختار  
لها إسحق الموصلي صوتاً فيما كان يختاره للوائق من مائة صوت  
مشهورة . وإسحق حين يتخير فإنما يتخير عن عبقرية وعلم وخبرة .  
وإن اختيار إسحق لحناً لفريدة لما يدل على أنها بلغت مكانة فنية  
جعلتها في صف مقيم الهشامية التي فازت هي الأخرى من إسحق  
بمثل هذا الاختيار .

كانت فريدة مكينة عند الواثق ، مقربة إليه ، حظية لديه ، حتى  
ما تكاد تذكر إلا مصحوبة بلقب « جارية الواثق » . فهي مغنيته ،  
ومالكة قلبه . تسكن إليها نفسه ، ويغار عليها حتى من الغيب  
المجهول والمستقبل الموهوم .

وقد اشتهر في عصرها ثلاث من المغنيات هن مقيم وعريب  
وشارية . وتناظر فيها وفيهن « ريق » و « خشف الواضحة » فيمن  
لها قصب السبق بين من سمعتا من المغنيات . فما لبثتا أن استقر  
أمرهما على تساوي هؤلاء الأربعة وأن لكل فضلها ومكانتها : فمقيم  
في الدقة والصناعة ، وعريب في الغزارة والكثرة ، وشارية وفريدة  
في الطيب وإحكام الغناء .

وقد ربيت فريدة مع صاحبة لها تدعى « خِل » في كفالة  
عمرو بن بانة بمن حذقوا الغناء . ولما ترعرت في تعهده الفنى وتقويمه  
تجلت فيها ثلاث خلال هى خير ما تحمد من أجله جارية تحظى  
بقلوب الخلفاء والأمراء وهى : نضارة الوجه ، وإشراق الذكاء ،  
وبراعة الغناء . وهذه الصفات هى التى حملتها على أجنحتها من المحيط  
الضيق فى ظل عمرو بن بانة إلى الفضاء الرحيب والنعمة الفارحة  
والظل الممدود فى قصر الواثق .

وقد فازت عند الواثق بما لا يتسع له القول من إعزاز  
وتكريم ، فقد عدت فى ملكه عروس الفن المحببة وفريدة عقده

المتألقة . فكان حلو غنائها يحقق ركنا من سعادته ويتكفل بأوفر  
قسط من هناعته . وهي مع هذا النعيم كله ، لم تنس زميلتها « خل »  
في مدرسة الفن وفي بيت المربي ، فإن عمرو بن بانة غنى الواصل  
يوماً هذا البيت :

قلت خليّ فاقبلي معذرتي ما كذا يجزي محباً من أحب  
فقال الواصل له تقدم إلى الستارة فألقته على فريدة . فألقاه  
عليها . فقالت له : هو خليّ أو خِل ، كيف ؟ فأدرك عمرو أنها  
لم ترد هذا الإشكال اللفظي لذاته وإنما أوردته لتذكر اسم صاحبها  
« خِل » وتساءل عنها في لباقة وحذر .

وهي بهذه القصة أطلعتنا على لون من أدب اللياقة في عرف  
حياة القصور حيث لا ينبغي أن تسأل جارية عن زميلتها في صراحة  
بمشهد من أمير المؤمنين .

وهي في ذات الوقت لا يفوتها الوفاء الذي أدته عن طريق  
التلاعب اللفظي ، وهو نفس الدليل على حدة ذكائها ويقظة عقلها .  
قال محمد بن الحرث وهو من الأسرة الموسيقية في بلاط الواصل :  
« كانت لي نوبة في خدمة الواصل في كل جمعة إذا حضرت ركبت  
إلى الدار . فإن نشط إلى السمر أقمت عنده وإن لم ينشط انصرفت .  
وكان رسمنا أن لا يحضر أحد منا إلا في يوم نوبته . فإني لفي منزلي  
في غير يوم نوبتي إذا رسل الخليفة قد هجموا عليّ وقالوا لي احضر .  
فقلت أخير ؟ قالوا خير . فقلت إن هذا يوم لم يحضرني فيه أمير

المؤمنین قط ولعلکم غلظتم . فقالوا الله المستعان لا تطول وبادر  
 فقد أمرنا أن لاندعک تستقر علی الأرض . فداخنی فزع شدید ،  
 وخفت أن یکون ساع قد سعی بی ، أو بلیة قد حدثت فی رأی  
 الخلیفة علی . فتقدمت بما أردت ، وركبت حتی وافیت الدار .  
 فذهبت لأدخل علی رسمی من حیث كنت أدخل فمنعت . وأخذ  
 یدی الخدم فأدخلونی إلى بمرات لا أعرفها . فزاد ذلك فی جزعی  
 وغمی . ثم لم یزل الخدم یسألونی من خدم إلى خدم حتی  
 أفضیت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحیطان بالوشی المنسوج  
 بالذهب . ثم أفضیت إلى رواق أرضه وحیطانه ملبسة بمثل  
 ذلك ، وإذا الواثق فی صدره علی سریر مرصع بالجواهر ، علیه  
 ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريدة جاریته علیها مثل  
 ثیابه وفی حجرها عود . فلما رأنی قال جوّدت والله یا محمد ، إلینا  
 إلینا فقبلت الأرض ثم قلت یا أمیر المؤمنین خیراً . قال خیراً  
 ما ترى ، أنا طلبت والله ثالثاً یؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك  
 فبحیاتی بادر فكل شیئاً ، وبادر إلینا . فقلت قد والله یا سیدی  
 أكلت وشربت أيضاً . قال فاجلس . فجلست . وقال هاتوا لمحمد  
 رطلا فی قدح فاحضر إلىّ ذلك . واندفعت فريدة تعنی :

أهابك إجلالا وما بك قدرة علیّ ولكن ملء عین حبیبها  
 وما هجرتك النفس یا لیل أنها قلتك ولا أن قل منك نصیبها

فجاءت والله بالسحر . وجعل الواثق يجاذبها ، وفي خلال ذلك  
تغنى الصوت بعد الصوت ، وأغنى أنا في خلال غنائها . فمرّ لنا  
أحسن ما مرّ لأحد . فإنا لكذلك إذ رفع رجله فضرب بها صدر  
فريدة ضربة تدحرجت منها من أعلى السرير إلى الأرض ، وتفتت  
عودها . وجرت تعدو وتصيح . وبقيت أنا كالمزوع الروح ، ولم  
أشك في أن عينه وقعت إلى وقد نظرت إليها ونظرت إلى .  
فأطرق ساعة إلى الأرض متحيراً وأطرقت أتوقع ضرب العنق .  
فإني لكذلك إذ قال لي يا محمد ، فوثبت . فقال ويحك ، أرأيت  
أغرب مما تهياً علينا!! فقلت يا سيدي الساعة والله تخرج روحي فعلى  
من أصابنا بالعين لعنة الله ، فما كان السبب ، أالذنب ؟ قال لا والله  
ولكن فكرت أن جعفرأ يقعد هذا المقعد ، ويقعد معها كما هي  
قاعدة معي ، فلم أطق الصبر ، وخامرني ما أخرجني إلى ما رأيت .  
فسرّى عنى وقلت بل يقتل الله جعفرأ ويحيا أمير المؤمنين أبداً .  
وقبلت الأرض وقلت يا سيدي الله الله ارحمها ومرر بها . فأمر  
بعض الخدم الوقوف من يجيء بها ، فلم يكن بأسرع من أن خرجت  
وفي يدها عود ، وعليها غير الثياب التي كانت عليها . فلما رآها  
جذبها وعانقها فبكت ، وجعل هو يبكي ، واندفعت أنا في البكاء .  
فقال ما ذنبي يا مولاي وسيدي ، وبأى شيء استوجبت هذا ؟  
فأعاد عليها ما قاله لي ، وهو يبكي ، وهي تبكي . فقالت سألتك بالله

يا أمير المؤمنين ، ألا ضربت عنق الساعة وأرحتني من الفكر  
في هذا ، وأرحت قلبك من الهم بي ، وجعلت تبكي ويبكي ،  
ثم مسح أعينهما . ورجعت إلى مكانها . وأوماً إلى خدم وقوف  
بشيء لا أعرفه فمضوا وأحضروا أكياساً فيها عين وورق ، ورزماً  
فيها ثياب كثيرة . وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقداً  
ما رأيت قط مثل جوهر كان فيه ، فألبسها إياه . وأحضرت  
بدرية فيها عشرة آلاف درهم فجعلت بين يدي ، وخمسة تحوت فيها  
ثياب . وعدنا إلى أمرنا ، وإلى أحسن مما كنا . فلم نزل كذلك إلى  
الليل ، ثم تفرقنا . وضرب الدهر ضربه ، وتقلد المتوكل . فوالله  
إنني لفي منزلي بعد يوم نوبتي إذ هجم عليّ رسل الخليفة ، فما أمهلوني  
حتى ركبت وصرت إلى الدار . فأدخلت والله الحجرة بعينها وإذا  
المتوكل في الموضع الذي كان فيه الواثق على السرير بعينه ، وإلى  
جانبه فريدة . فلما رآني قال ويحك أما ترى ما أنا فيه من هذه !!  
أنا منذ غدوة أطلبها بأن تغنيني فتأبى ذلك . فقلت لها ياسبحان الله  
أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ! بحياته غني . فعزفت والله  
ثم اندفعت تغني :

فلا تبعد فكل قتي سيأتي عليه الموت يطرق أو يغادي  
ثم ضربت بالعود الأرض ، ثم رمت بنفسها عن السرير ، وجرت  
تعدو وهي تصيح واسيداه .



هذه هي القصة التي أردت أن تسير في مسلكها الطبيعي ، وأن  
أضعها أمام القارئ بأحرفها وألفاظها ، لأنها تمثل لنا صورة بل عدة  
صور من حياة الخلفاء بعيدة عن الإخراج والتلوين . فها نحن  
أولاء نرى قصر الخليفة الذي يضل سالكة وتنشعب مسالكه . .  
وها نحن نرى محمداً بن الحرث يتفزع ويتخوف برغم أنه من  
ذوى الوظائف الدائمة في القصر ، غير بعيد منه ولا غريب عنه . .  
ونرى أيضاً أولئك الرسل قد أطبقوا شفاههم عن الأمر الذي  
من أجله دعي ذلك الفنان في غير وقته ، فلعلهم لا يعرفون شيئاً  
عن سر دعوته ، بل لعله يمكن القول بأن الطباع العربية السهلة  
الصريحة البسيطة الواضحة قد تقلص ظلها فمالت إلى التعقيد حين  
أصبح الدخلاء من الشعوب المسلمة الجديدة يؤثرون على البلاط  
العباسي ويدخلون على الخلفاء تكاليف « البروتوكول » مما لم يكن  
يعرف في عهد بني مروان ولا في بساطة الخلفاء الأولين تحت ظلال  
النخيل في شبه الجزيرة . . وها نحن أولاء نرى ابن الحرث كذلك  
يسلك طرقاً من القصر لا عهد له بها ، وهو ذو النوبة الأسبوعية  
الدائمة في قصر الخليفة ، الأمر الذي لم يكن ينبغي أن يخفى عليه  
منه شيء ، ولكنه التعقيد الذي أصاب الحياة الجديدة فجعلها ذات  
حدود ورسوم والتزامات يقف عندها كل ذي منزلة عند الذي  
قد رسم له . . ثم نرى ابن الحرث هذا يظهر في القصة - وهو راويها -

ذا لونين وذا وجهين ، يرضى بكل وجه خليفة يخالف صاحبه .  
فإذا كان بحضرة الواثق فمن السهل عليه أن يقول « يقتل الله  
جعفرأ ويحيا أمير المؤمنين أبداً » . فإذا كان اليوم لجعفر لم يكن  
عسيراً عليه أن يقول لفريدة حين امتنعت ، وتمعجباً « سبحان الله  
أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ، بحياته غنى » .

هذا الضرب المتلون من المنافقين قلما يخلو منه عصر ، وعصرنا  
متختم مفعم بالكثيرين ممن اتسعت طباعهم اللولبية لهذه المرونة  
من النفاق والرياء . وليت المنافقين وجدوا من يقول لهم إن  
التاريخ وراءكم يحصى ، وإنه مظهركم ولو للأجيال القادمة . فإن  
يكن في ذلك عبرة فإن العبرة الكبرى في وفاء امرأة جارية ونفاق  
رجل حر يغدو ويروح كما يشاء . فما لها لا تسير مع سعادة كل  
وقت وتستجيب إليها كما فعل ابن الحرث !! وما لها تربط نفسها  
بالماضى الذى يعوق قدميها عن السير ويعرقل حظه دون المسرات !!  
ألا إنه الوفاء حملها من بين يدي جعفر المتوكل ، فمضت هائمة على  
وجهها تندب الواثق قائلة واسيداه ... تاركة من خلفها خليفة  
يتحير ، ومنافقاً يتبلبل ، وتاريخاً يتكلم ...

## شَارِيَّة

نجمة من نجوم العصر الزاهر في دولة بني العباس الذي  
أشرفت عليه الدنيا بكل مدينتها ، كما أشرق هو على الدنيا بعلومه  
وفنونه . فيينا ترى ابراهيم وابنه إسحق وأضرابهما يبلغون الذروة  
في علو فنهم وجلال شأنهم ، إذا بك ترى من الجوارى المولدات  
من حولن قصور الخلفاء إلى جنات وفراديس بما يطرب السمع  
ويهز أوتار القلوب ، ومن أولئك شارية . إلا أن شخصية هذه  
الفنانة تبدو لنا مضطربة كريشة في مهب الرياح . فهي جارية في  
ثوب حرة أو حرة في ثوب جارية !! فقد اختلف المؤرخون في  
نسب أبيها ، كما حاولت أمها أن تتجر بها طفلة في البيوت الرفيعة ،  
شأنها في ذلك شأن الحمقى من آباء الصغار الموهوبين في فن الغناء ،  
ومن في حكمهم ، ممن يتولون أمور الفنانين واستغلاهم في حداثتهم .  
ومهما يكن من شيء فقد ذكرت شارية في الجوارى . فمن قائل  
إن أباها كان رجلا من بني ناجية وإنه جردها فسرى إليها الرق  
من أمها . ومن قائل إنها سرقت كما يسرق غيرها من بارعات الجمال  
لتعرض في السوق على أرباب القصور والبيوتات ، واشترتها

سيدة هاشمية ، فتولت تأديبها وتعليمها الموسيقى والغناء وهو الفن الذي تروج به الجارية وتضيف به جمالاً إلى جمالها . فلها أتمت ثقافتها الفنية اشتراها إبراهيم بن المهدي فكان أستاذها وسيدها ، ثم تحظاها فكانت أثيرة لديه . حفظت عنه غناؤه ، فكانت وعاء مادته وخزانة فنه . وبهذا فضلت عريب تلميذة المرادي . فما كان لعريب أن تبلغ ذلك الشأ والبعد الذي يجب أن تبلغه فتانة تتلمذت لإبراهيم ، وقد عنى بتخريجها ، وسكب في روحها معارفه وحفظه وابتكاره لتتأمله قصره نعمة وهناءة وابتهاجا . ولم يعلمها ليتهاجر بها في أسواق البيع والشراء . وناهيك بإبراهيم بن المهدي الذي لم يكن يقف منه على قدم المناظرة سوى إسحق .

وحسبك أن تعلم أن ابن المعتز صنف في أخبارها وألف في تاريخها كتاباً يرويه عنه الرواة . وابن المعتز شاعر وخليفة وابن خليفة ، وهو صاحب التشبيهات والتواشيع المروية المحكية . وهو في ذلك المقام الأدبي وتلك المنزلة من الإمارة والخلافة يخلد بكتابه شارية ، جارية أبيه وأجداده في عرش الخلافة العباسية . ومن أخبار ذلك الكتاب ما يصور لنا كيف كان الغناء يعلى قيمة صاحبه ويسمو بمكانته . لقد عرضت شارية على إسحق الموصلي فاستكثر على ثمنها ثلثمائة دينار ، ثم كتب لإبراهيم أنه هو الذي يعرف قدر تلك اللؤلؤة فنقد الثمن لبائعها الهاشمية ،

ثم أمر جواريه أن يتعهدنها سنة كاملة وهو لا يراها ، حتى إذا مضى  
العام وقد حذقت الغناء طلبها أمام إسحق وأسمعه غناءها وقال له :  
هذه جارية تباع فبكم تأخذها لنفسك ؟ قال إسحق : آخذها بثلاثة  
آلاف دينار وهي رخيصة . فذكره ابراهيم بها وأنها هي نفس  
الجارية التي استغلاها بثلاثمائة دينار ، وها هو اليوم يقبل أن يعطي  
فيها على بخله الموروث عشرة أمثال الثمن الأول قابلة للزيادة .  
وهكذا نرى في الغناء تلك المعجزة السحرية التي أعلت مكانتها في  
نظر من كان يساوم فيها منذ عام واحد .

ولقد لعبت أمها دوراً تأمرت فيه مع بعض خاصة المعتصم  
لتنزع ابنتها شارية من كفالة ابراهيم ومملكه ، وتختطف من قصره  
زهرة ناضرة طالما أذاعت في أرجائه العطر والأريج . فادعت  
أنها قرشية لا يصح أن تملك ابنتها وتسترق ، وتقدمت إلى المعتصم  
بهذا لتحمله على أن يضم إليه شارية مبتدئاً من هذا الطريق ، فتمى  
أبعدها عن ابراهيم أمكن اختطافها في يسر وسهولة . وكان ابراهيم  
أدهى من الجميع ، فبادر إلى الإشهاد على عتقها والزواج منها في  
كلام طويل وحيل فقهية ليس هذا موضوع الخوض فيها .  
وحسبك أن تعلم أنها بقيت عند ابراهيم جارية في حقيقتها زوجة  
في زعمها ، إلا أن هزيمة المعتصم أمام ابراهيم لم تطل فقد توفي  
ابراهيم وانكشف أن العتق والزواج لم يكونا إلا ضرباً من

التلاعب ، وتبين أنها كانت لا تزال أمة فاشتراها المعتصم من  
ميمونة بنت إبراهيم وضمها إلى قصره حتى مات .

وكان إعجاب إبراهيم بها عظيماً . ولست أبالغ لو قلت إن  
حياتها معه كانت تمثل نصف سعادته على ما كان يحوطه من النعمة  
والثراء والجاه . فهي تغنيه في القصر منفرداً أو مجتمعاً . فإذا لم  
يسعه البر وفضاؤه جمعها النهر وماؤه . فهذا هي ذى تغنيه وهما في  
سفينة وقد توسطها بها دجلة يستظلان شعاع القمر ، ويقطعان رهبة  
الليل بروعة الغناء ، فيردد الشاطئان معهما ما يتبادلان من عذب  
الإنشاد ، وقد غنت لحن إسحق :

لقد حثوا الجمال ليه ربوا منا فلم ينلوا (١)  
فهاجه غناؤها حتى قال لها : أنت والله أحسن من الغريض وجهاً  
وغناءً ، فما يؤمنى عليك !!

فشارية كما أسلفنا تلميذة إبراهيم وقسيمته في الفن ، وهي  
جاريته الأثيرة لديه . علمها الغناء وروت نوادر عبقريته . ورواية  
أخبارهما الغنائية تكشف لنا عما يكابده الفنانون من العناء في سبيل  
التعلم أو التعليم . فهذا إبراهيم يبين لأحد جلسائه وقد أطربه لحن  
تعلمته منه أن السامع يستقبل اللحن مائة ساعة لا يدرى مدى

(١) صوابه لم ينالوا ، وحذف الألف في ينالوا ضرورة شعرية وتكلف مستكره .

ما كابد أصحابها في إعدادها ، وأنه أدار على مسمعها هذا اللحن  
مئات المرات حتى بلغت به منزلة الإجادة والبراعة .  
وكانت شارية على ما يظهر من تاريخها مغنية أكثر منها عازفة  
حيث لم تكن تجيد العزف بالعود حتى أيام المتوكل حين قامت  
المنافسة الفنية على أشدها بينها وبين عريب فبدأت تعزف وتجيد .  
وكما اعتر بها إبراهيم فقد فخر بها المعتصم ورضى على من طلبها  
منه بسبعين ألف دينار ، فجاءته في ذلك سهل بن الأحول قاضي  
الكتاب في زمانه ، فأسمعه المعتصم غناءها فقال سهل : لقد سمعت  
شيئاً ذهب بعقلي . فقال المعتصم له : هذه هي التي عاتبني عليها  
في ألا أبيعها بسبعين ألف دينار ولا والله ولا هذه الساعة الواحدة  
بسبعين ألف دينار .

وما زالت في حظوة المعتصم وقد تحققت له بها أمنية طالما تمنّاها  
منذ كانت عند إبراهيم ، بل منذ غنت في قصره في مباراة غنائية  
تفوقت فيها جوارى إبراهيم وهي فيهن واسطة العقد على جوارى  
المعتصم . حتى إذا كان عهد الواصل كانت لا تزال النجمة المتألقة  
والمغنية المقدمة والأستاذة التي يروى عنها الرواة ، ومن بينهم  
فريدة الوثائقية .

وقد امتد بها الأجل حتى عصر المعتمد . وناهيك بمن تعاصر  
ثمانية من الخلفاء وتشاهد أحداثاً ووقائع وانقلابات يتواصل فيها

المد والجزر وتغير النفوذ واختلاف الأمر وكثرة الشيع ، وهي  
المسيطرة الأولى ، أو على الأقل في مقدمة من تزعم الفن  
ووجه حركته .

وكان الناس في أمر شارية وعريب على حزبين ، فهذا عريبي  
وذاك شاري . ولا يسمع أحد الحزبين ما يسمعه الآخر ، فكانت  
القطيعة الفنية تفصل بين الحزبين . وكان اسم شارية دائم التآلق  
وشهرتها متصلة الذبوع . وحسبك في مكانها أن يستمع إليها مستمع  
في قصر المعتز بين المغنيات فيصفها بأن حظ العجب من غنائها  
أكثر من حظ الطرب .



## إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ

هذا هو المثل السائر ، والنموذج الحى ، والشهادة الخالدة لمقام الموسيقى العربية منذ أكثر من ألف عام . فإلى الذين يجهلون تلك المكانة الرفيعة للموسيقى ، وتساور أحلامهم بأن أمرها قاصر على الطبقات الدنيا ، وإلى الذين يتمجدون بما بلغته الموسيقى من المكانة الممتازة ببلاد الغرب فى هذه العصور الحديثة يوم تعاطاها أمراء وذوو أقدار عالية .. إلى هؤلاء وأولئك نقدم إبراهيم بن المهدي وناهيك به من موسيقار يعتلى الذروة بين أهل الفن ويتسنى الغارب بين أهل المجد والشرف . فقد ظل نبراس الغناء بين أربعة من الخلفاء هم والده المهدي وأخوه الرشيد وولدا أخيه الأمين والمأمون . وكان عهداً أربعة تجمعت فقدمت عصارة مدينتها وخلاصة جمالها وأبهتها فكانت هى إبراهيم بن المهدي .

لقد كان عالماً من أعلام الدولة العباسية من حيث البيت الشامخ والأسرة الشماء . ولكنه من وجهة الفن دولة وحده ومدرسة

حديثه كان واضح مذهبا ومربي أساتذتها . والعصر العباسي جديد  
في كل شيء . . . في حضارته وعمرانه ، في فقهه ودراساته وفلسفته ،  
وفيما ترجم عن الفارسية واليونانية من علوم وفنون كان لها أثرها  
البعيد في كيان الأمة ، وفي كل ما امتد إليه ظل هذه الدولة . .  
فكيف يتصور متصور ، أن الغناء سيقف دولابه عند الخطوط  
الأولى التي كان يترسمها المغنون في الجاهلية وصدر الإسلام  
وبني أمية وبداية عصر العباسيين ؟ لقد أتيح للفلسفة أعلامها ،  
ولليان العربي أقطابه ، وللشعر مبدعوه وقائلوه . فما كان أحوج  
الموسيقى إلى ثورة فنية يحمل عليها رجل غير متكسب بها ،  
ولا محترف يخشى الناس على صناعته وكسبه . . . رجل يكون له  
من ثروته الواسعة وجاهه العريض وبيته الرفيع رزق يكفيه  
وعدة تحميه ليخرج بمذهبه للعالم فناناً خالصاً ، وهو فيه غير هباب  
ولا مرتاب . وقد قدر للموسيقى أن تجد هذا الرجل في إبراهيم  
ابن المهدي .

هو أصغر إخوة الرشيد ، وكنيته « أبو اسحق » . واسم والدته  
« شكلة » مولدة من أصل ديلبي ، وقد سببت بعد قتل أبيها . ولما  
حملت إلى الخليفة المنصور أهداها إلى « حياة » أم ولده فتعهدتها  
بالتربية ، وبعثت بها إلى الطائف ، حيث مهد العروبة الأصيل ،  
ومعناها الأثيل ، حين كانت بغداد إذ ذاك ملتقى اللهجات ومزدهم

اللغات من شعوب وأمم لا حصر لها ، تغدو وتروح من حاضرة الخلافة وإليها . ولعل من الخير لأولئك الجوارى الفارسيات أو التركيات وأشباههن أن يرتضعن العروبة من أرض العرب الأولى بين مكة والمدينة والطائف . وهكذا أريد بشكلة أم إبراهيم أن تستعرب في مهد بنى ثقيف وغيرهم من القبائل العربية العريقة المحتد في الإعراب والبيان ، حتى إذا تعلمت واستكملت تريبتها أعيدت إلى مولاتها «حياة» ، فرآها المهدي عندها فأعجبته ولم تضن عليه بها . وورزق منها إبراهيم في بغداد عام ١٦٢ هـ (٧٧٩ م) .

ولما بلغ الطفل السادسة توفي عنه والده المهدي ، فشب ونما بين رعاية أخيه الخليفة الرشيد وكفالة أمه وكانت موسيقية بارعة . فاتيح لإبراهيم أن يجمع بين الفن من منبعه والثقافة العالية الخليفة بأبناء الخلفاء والأمراء .

ولما استوى له فنه الغنائى وأشرقت موهبته في ضوءها الكامل أخذ يغنى ، ولكنه غناء محتبس مستتر . فهو يترفع عن الظهور به ولا يؤديه إلا في خلوة عند الرشيد والأمين من بعده . ولم يتح له أن يظهر فنه إلا في خلافة المأمون حين آمنه هذا الخليفة فأخذ يجهر بالغناء . وكان إبراهيم عاقلاً متديناً أديباً شاعراً راوية للشعر خطيباً قوى العارضة ، عرف بجزالة الرأي والتصرف في الفقه واللغة وأبواب الأدب والعلوم المختلفة .

وهو أشهر من أنجبهم الخلفاء ذكوراً وإناثاً في الغناء ،  
وأعمقهم صناعة ، وأتقنهم فناً . وكان بينه وبين إسحق الموصلي عميد  
محترفي الغناء في عصره منازعات وجدل فني . ولكن ذلك كله لم  
يمنع إسحق من شهادة الحق والإقرار بمنزلة ابراهيم حين قال  
« ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس رجلاً  
أفضل من إبراهيم بن المهدي » .

كان إبراهيم من أحذق الناس بفنون الموسيقى علماً وأداءً في  
النغم والأوتار والإيقاع ، وأطبعهم في الغناء ، وأحسنهم صوتاً .  
وكانت منزلته الممتازة في جمال الصوت وجودته . وقد عد في  
طليعة الطبقة الأولى بين أعلام الغناء في هذا العصر الذهبي . وهو  
فوق ذلك يجيد العزف بالآلات الوترية والمزامير والدفوف .

ولم يستكن ابراهيم للفن القديم ، فلم يقف عند مخلفات العصور  
الغابرة ، ولم يشأ أن يحتذى في صنعته الأمثلة الغنائية الموروثة ،  
إذ كان يكره التكلف والتعقيد ويدين بوجوب أخذ الفن من أيسر  
مناهله وأقربها إلى النفس . فكان يحذف نغم الأغاني الكثيرة العمل  
حذفاً ، ويخففها ليسهل أدائها . وتلت هذه الخطوة خطوة أخرى  
هي مزجها بالموسيقى الفارسية ليخرج منها طابعاً خاصاً ولوناً جديداً .  
فإذا عيب عليه ذلك قال لناقديه « أنا ملك وابن ملك أغنى كما  
أشتهى وعلى ما ألتذ » .

وهو أول من أقدم على إحداث تطور في الغناء القديم ، وعلم  
الناس الجرأة على تغييره . وما لبث الجمهور الفنى أن انقسم إلى  
معسكرين : فريق يؤيد إسحق الموصلى وأصحابه فى مذهبهم من  
وجوب الاحتفاظ بالقديم وينكرون على من يحدث فيه تطوراً  
أو تجديدأ ، ويقبحون من يفعل ذلك ويعيبون عليه . وفريق  
يؤيد ابراهيم بن المهدي ويقتدى به ومنهم مخارق ومن وافقه من  
أعلام الغناء فى الدولة العباسية .

وقد وجد مذهب ابراهيم قبولا لجدته ويسر تناوله على الناس  
وبعدده عن التكلف والتعقيد الذى يثقل على المؤدين ويجشمهم جهوداً  
صوتية لا قبل لهم بها . ويقول المؤرخون إن هذا التغيير الذى  
استحدثه ابراهيم بن المهدي قد أطرده وزيدت عليه ألوان بعد  
ألوان إلى خمسة أجيال متعاقبة فلم يبلغ إلى الناس فى نهاية الدولة  
العباسية إلا النذر اليسير من الغناء القديم الذى بقى على حقيقته .  
قالوا ومن أفسد طابع هذا الغناء خاصة بنو حمدون بن اسماعيل  
وأصلهم فيه مخارق ، وذريات الواثقية وكانت تغير الغناء كما تريد ،  
وجوارى شارية . وإن هؤلاء كان يعارضهم فى الناحية الأخرى  
من أنصار القديم عريب وزمرتها من نشأ فى مدارسها  
وجوارىها ، والقاسم بن زررور وولده ، وآل يحيى بن معاذ ، وآل  
الربيع وزمرتهم ، ومن جرى مجراهم ممن تمسكوا بالغناء القديم

وعملوا على المحافظة عليه ومناهضة التيار الجارف من أنصار  
مذهب تخفيف الأغاني وتجديدها .

هذا هو موجز ما يقوله المؤرخون القدماء عن المذهبيين .  
ورأينا أن أحداً لم يفسد الغناء على حد تعبيرهم ، وإنما كان لزاماً  
أن يحدث هذا التطور الذي تناول الدولة نفسها فتنتقل بها بين أيد  
فارسية وأخرى تركية ، وبين مدينيات ومذاهب سياسية ودينية  
وعلمية وفلسفية . فما كان للموسيقى وهي مرآة الحياة أن تنفرد  
بالجمود والركود بينما كل شيء حولها يتطور ويسير . أما كون  
الغناء القديم لم يبق منه إلا القليل فليس هذا ذنب ابراهيم ومدرسته  
وأنصارها وإنما هو عمل الزمن الذي لا يبقى على شيء غير مدون .  
وقد أصاب مذهب ابراهيم ما أصاب مذهب إسحق ، وذهبت  
أغاني هؤلاء وأولئك ، لأن الأمر في الجميع كان قاصراً على  
النقل والرواية .

ومن مشهور غناء ابراهيم بن المهدي :

طرتك زائرة في خيالها      بيضاء تخط بالحيا جمالها  
هل تطمسون من السماء نجومها      بأكفكم أو تسترون هلالها  
أو تدفعون مقالة من ربكم      جبريل بلغها النبي فقالها  
ومن بديع غنائه في الغزل :

ياغزالاً لي إليه شافع من مقلتيه

والذي أجلت خدّه به فقبت يديه  
بأبي وجهك ما أكثرت حسادي عليه  
وهذا يشف عن سلامة ذوق في اختيار كلمات الأغاني ومعاني  
الشعر ونغم القافية . ولا شك أن سهولة هذا الشعر تتجاوب مع  
سهولة الغناء في مذهبه .

وكانت صناعته تجرى في أسلوب من البساطة كما أوضحنا ، فإذا  
قيل له في هذا كان جوابه « إنما أصنع تطرباً لا تكسباً ، وأغني  
لنفسى لا للناس فأعمل ما أشتهى » .

وكان لإبراهيم هذا أخت تناظره في حسن الصوت وإجادة  
الغناء وهي عليّة بنت المهدي . وقد عرف الناس أمرهما  
فتجاوبت أصدااء الشهرة في حسن صوتهما حتى كان يقال : « لم ير  
الناس في جاهلية ولا إسلام أخاً وأختاً أحسن غناءً من إبراهيم  
ابن المهدي وأخته عليّة... » .

وقد نوهنا بما كان بينه وبين إسحق من جدل فني ، فكان مما  
خالف فيه إسحق الثقيلان وخفيفهما (١) فإنه سمي الثقيل الأول  
وخفيفه الثقيل الثاني وخفيفه ، وسمى الثقيل الثاني وخفيفه الثقيل  
الأول وخفيفه ، أي العكس بالعكس . وقد جرت بينهما في ذلك  
مناظرات ومجادلات ، ومراسلة ومكاتبة ومشافهة ، وحضرهما

(١) هي أنواع من الإيقاع .

الناس فلم يكن فيهم من يقضى بالفصل فيما بينهما والحكم لأحدهما  
على صاحبه ، حتى لقد كتب إسحق مرة لإبراهيم في ذلك يقول  
له : والناس بيني وبينك بهائم .

قال عمرو بن بانة « رأيت إسحق الموصلي يناظر إبراهيم  
ابن المهدي في الغناء فتكلما بما سمعناه ولم نفهم منه شيئاً فقلت لهما لئن  
كان ما أتما فيه من الغناء فما نحن منه لا في القليل ولا في الكثير .  
وقد أفنيا عمرهما في تنازعهما حتى كان يمضي لهما الزمان الطويل  
لا تنقطع مناظرتهما في تجزئة لحن ومكاتبتهما في قسمة صوت  
واحد . وظلا طوال حياتهما وبينهما منازعة في كثير من أمور  
فنية لم يفصل بينهما فيها . على أن ما كان بينهما من شدة الجدل  
والمناظرة لم يمنع إسحق من أن يشهد لإبراهيم فيقول فيه : « ليس  
فيمن يدعي العلم بالغناء مثل إبراهيم بن المهدي » .

وهكذا تناظرا الفنانان العظيمان ما شاءت لهما مقدرتهما العلية  
الدقيقة . ثم نرى إسحق يصفى على إبراهيم هذا الثناء ويعترف بعلمه  
وفضله وبراعته . خصومة في الفن واعتراف بالفضل . إن هذا  
لمنتهى ما ترقى إليه الأمم في تقدير أفضالها لحرية الرأي والمناقشة ،  
على أن يكون هدفها الوصول إلى الحقيقة لا النيل من الأشخاص .  
وعجيب أن يقع ذلك بين إسحق وإبراهيم في بيئة قريبة بعصية  
القبائل والبيوت والشعوب ، وأعجب منه أن يكون بين أمير هاوٍ  
وموسيقى محترف .



وكما اشتهر إبراهيم بن المهدي في صناعة الغناء بحسن الصوت  
وجودته فقد برع في القدرة على أداء أغلظ النغمات من ناحية الثقل  
وأشدها ارتفاعاً من ناحية الحدة . وبلغ اتساع المنطقة الصوتية  
لمقدرته في الأداء ثلاث مراتب (أو كتاف) . وهذه موهبة نادرة  
قد لايجود بها الزمان على تعاقب عصور وأجيال .

روى يحيى بن المنجم عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن  
إسحق بن عمر بن بزيع قال « كنت أضرب على إبراهيم بن المهدي  
ضرباً فغناه على أربع طبقات : على الطبقة التي كان العود عليها ،  
وعلى ضعفها <sup>(١)</sup> ، وعلى أسجاحها <sup>(٢)</sup> ، وعلى أسجاح الأسجاح » .  
وقال بعضهم « هذا ما حكى لنا عن أحد غير إبراهيم ، وقد تعاطاه  
بعض الحذاق فوجده صعباً متعذراً لا يمكن بلوغه إلا بالصوت  
القوى ، لأن الضعف نفسه لا يمكن بلوغه إلا بصوت قوى دقيق  
حاد ، فإذا دق الصوت حتى كان في مكنته أن يبلغ هذه الأضعاف  
لم يقدر على تأدية الأسجاح فضلاً عن أسجاح الأسجاح » .

وسيرة إبراهيم الفنية نخر للموسيقى العربية ، فقد كان من علمائها  
الواقفين على دقائقها . وتنهض حياته الفنية حجة للموسيقى العربية  
من ناحية عدم إهمالها معرفة طرائق تدوين الألحان في ذلك العصر  
الذي يعتبر عصر أذهبياً .

(١) أى الجواب . (٢) أى جواب الجواب .

حكى الحسين بن يحيى أبو الجمان أن إسحق الموصلي لما صنع  
صوته « قل لمن صد عاتباً » اتصل خبره بإبراهيم بن المهدي فكتب  
عنه فكتب إليه إسحق بشعره ، وإيقاعه ، وبسيطه ، وبجراه ،  
وإصبعه ، وتجزئته ، وأقسامه ، ومخارج نغمه ، ومواضع مقاطعه ،  
ومقادير أوزانه . فغناه إبراهيم .

وإبراهيم كما عرفنا مغن بارع لا للحرفة ولا للتكسب ، وإنما  
هي الفطرة والهواية وإشباع الرغبة الفنية التي ما تكاد تلامس  
جذوتها حادثة من الحوادث حتى تثور وتستيقظ وتصبح شعلة  
تضيء ما حولها .

هكذا كان إبراهيم إذا حركته البواعث غنى واشتركت البقية  
من جسمه مع حنجرتة ، وتحول سكونه إلى حركة في الأداء  
وطرب في الغناء . والحادثة التالية هي حوار غنائي يتفرد فيه  
بالانتصار ويفوز فيه بالجولة الأخيرة .

دعا إبراهيم بن المهدي ذات يوم كل مطرب محسن من المغنين ،  
وجلس يلاعب أحدهم بالشرنج . فترنم أحدهم بصوت وهو  
متكى ، فلما فرغ منه ترنم به مخارق فأحسن فيه وأطرب الحاضرين ،  
فأعاده إبراهيم وزاد في صوته فغنى على غناء مخارق . فلما فرغ  
ردده مخارق وغنى فيه بصوته كله وتحفظ فيه ، فكاد الجمع يطير  
سروراً . فاستوى إبراهيم جالساً ، وكان متكئاً ، فغناه بصوته كله ،

ووفاه نغمه وشدوره ، وكانت كتفاه تهتران ، وبدنه أجمع يتحرك ،  
حتى فرغ منه ومخارق شاخص نحوه يردد وقد امتقع لونه  
واختلجت أصابعه . وقد خيل للحاضرين أن الإيوان يسير بهم .  
فلما فرغ ابراهيم من الصوت تقدم إليه مخارق فقبل يده وقال  
« جعلني الله فداك أين أنا منك » . ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقية يومه .

وتمت شئ آخر فوق المقدرة الغنائية والعبقرية الصوتية أعنى  
الأمانة في الرواية والرفق في التعليم . فهذه القصة التالية نرى ابراهيم  
فيها يسأله الخليفة عن لحن أعجبه فينسبه إلى صاحبه دون أن يعزو  
إلى نفسه شيئاً ، ولو على سبيل التحسين أو الإخراج . ولو فعل  
ذلك لكانت الفرصة مواتية فلم يكن هذا عهد التدوين ولا عصر  
التسجيل الذي يحتفظ للقطعة بكيانها تاماً غير منقوص . بل لقد كان  
الباب مفتوحاً والمجال متسعاً فسيحاً لادعاء التحسين والتغيير  
والمشاركة على الأقل . ولكنه اكتفى أن يكون أميناً في النقل .  
وهذا شرف لا يقدره إلا الأمانة ولا يبلغه الأديباء . إننا نرى  
في هذه القصة أمانة الناقل ثم رقة الفنان وحنان المعلم الرحيم الذي  
ينظر بعين العطف والبر والتجوز إلى مستوى المتعلم الذي لم يرتفع  
إلى مستوى الأستاذ المجرّب . ولو لا هذه الرحمة ما رسبت تلميذة  
إبراهيم في الامتحان وحده بل لرسبت إلى الأعماق في مياه  
دجلة الطالحة .

قال ابراهيم بن المهدي : كنت يوماً بين يدي الأمين أغنيه :

أقوت منازل بالهضاب من آل هند والرباب  
خطارة بزمامها وإذا ونت ذل الركاب  
ترى الحصا بمناسم صم صلادمة صلاب

فاستحسن اللحن ، وسألني عن صانعه ، فقلت لابن عائشة . فلم يزل  
يستمع إليه ، لا يتجاوزهُ . ثم أمر بإحضار صبيّة ، كان يتحفظها ،  
فخرجت إليّ كأنها لؤلؤة في يدها العود . فقال : بحياتي يا عم ألقه  
عليها . فأعدته مراراً ، حتى ظننت أنها قد أخذته فأمرتها أن تغنيه  
فغنته ، فإذا هو قد استوى لها إلا في موضع واحد كان فيه صعباً  
جداً ، فجدت جهدي أن يقع لها فلم يقع لها البتة . ورأى جهدي  
في أمرها فأقبل عليها مغضباً وقال : على عهد الله لن لم تأخذه  
بعد ثلاث مرات لأمرن بالقاءك في دجلة . وكانت دجلة تطفح  
ويعتدنا وبيننا نحو ذراعين . فتأملت القصة وقلت في نفسي هذه  
والله داهية . فعدلت عما كنت أغنيه عليه ، وغنيته كما كانت هي  
تقوله ، وجعلت أردده ، فلما انقضت الثلاث المرات قلت لها هاته  
الآن فغنته على ما كان وقع لها ، فقلت أحسنت يا أمير المؤمنين .  
فطابت نفسه وسكت .

ولمخارق شهادة أخرى لإبراهيم بن المهدي ، وقد سار فيها  
على سلم تصاعدي وحددها بدرجات بعضها فوق بعض ، وجعلها

حُكماً تناول فيها أشهر المغنين وطبقاتهم في ذلك العصر ، ولم ينس  
نفسه من المكانة الثانية بعد إبراهيم . وهي في جملتها تدل على  
ما امتاز به ابن المهدي من غناء تفرد فيه بحسن الصوت وعراقة  
الأصل والمعدن .

سئل مخارق مرة : من أحسن الناس غناءً ؟ قال « كان إبراهيم  
الموصلى أحسن غناءً من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن  
غناءً من إبراهيم الموصلى بعشر طبقات ، وإبراهيم بن المهدي  
أحسن غناءً مني بعشر طبقات » . ثم قال « أحسن الناس غناءً  
أحسنهم صوتاً ، وإبراهيم بن المهدي أحسن الجنب والانس  
والوحش والطيور صوتاً ، وحسبكم هذا » .

وقد عاش إبراهيم فيما تدلنا عليه رسائله عيشاً ملؤه الرغد  
والحياة المطمئنة . فهو صاحب قلم ضليع بقدر ما هو صاحب غناء  
رفيع . وقد جال في الدولتين وصال . كما سجلت الآثار الأدبية  
جملة من رسائله نستطيع أن نستمع فيها إلى صوت عواطفه التي  
لم تبلغنا إياها ألقانه وغناؤه .

ومات إبراهيم بن المهدي عام ٢٢٤ هـ ( ٨٣٩ م ) .

## ابن جامع

هو أبو القاسم اسماعيل بن جامع ، العربي القرشي حسباً ونسباً .  
ولد بمكة ومات أبوه وهو صبي . ربي تربية فقهية دينية تليق بأمثاله  
من أبناء البيوتات المجيدة من قريش . ثم تزوجت أمه من سيات  
المغنى المشهور فنشأه نشأة موسيقية حتى صار علماً من أعلام الغناء  
والتلحين في العصر العباسي . وكان وافر التقوى كثير التعبد  
والصلوات ، يبدو في أردية الفقهاء وأهل الورع .

وكانت فطرته الغنائية تغلب عليه في يقظته ، وتقض مضجعه  
إذا نام فتتسلسل الأنغام والألحان في عقله الباطن وتمثل له  
في الرؤيا ، فإذا استيقظ كان قد وعأها وحفظها ... وهكذا الفنان  
يلزمه فنه ولا يبارحه ، يستيقظ به ولا ينام عنه . فهو مستيقظ  
حتى في نومه .

تحدثنا جاريته « حواء » أن ابن جامع مولها استيقظ يوماً  
من نومه فتلف على ولده هشام وناداه ، وطلب أن يقبل على عجل  
بعوده ليسجل لحنا قبل أن ينساه ، وقد حفظه عن رجل من الجن  
في نومه . فجاء ولده مسرعاً ويده العود . فتغنى ابن جامع رملاً

لم تسمع الجارية أحسن منه ، وكان ابنه يتابعه . أما ألفاظ  
الحن فهي :

أمست رسوم الديار غيرهما هوج الرياح الزعازع العصف  
وكل حنانة لها زجل مثل حنين الروائم الشخف  
وأطلق على هذا اللحن بعد ذلك لحن الجن .  
وكان من أحسن ما صنع اللحن الذي غناه تشبهاً بحبيبتة  
وكانت سوداء اللون قال :

أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعدة  
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحدة

وقد عاصر ابن جامع ابراهيم الموصلی ، وكان ينازعه المقام  
الفني الرفيع البعيد المدى . وقد حكم بينهما برصوم الزامر حكم  
معاصر فنان ، وهو حكم تصويري شعري يضع كلاهما في موضع  
لا ينتقص فيه فضله . قال حين سئل عنهما : الموصلی بستان تجد فيه  
الحلو والحامض والطرى الذى لم ينضج فتأكل من هذا وذاك ،  
وابن جامع زق عسل إن فتحت فمه خرج عسل حلو وإن خرقت  
جنبه خرج عسل حلو وإن فتحت يده خرج عسل حلو ، كله جيد .  
ونى إلى الخليفة المهدي أن ابن جامع والموصلی يجلسان  
إلى ولده موسى في مجلس شراب وغناء ، وكان قد حرم على ولده  
أمثال هذه المجالس وهو بين فتنتى الشباب والثروة . فاستقدم هذين

المغنين إليه ، وضرب الموصلى ضرباً موجعاً . أما ابن جامع  
فاسترحم الخليفة فرق له وأطلقه وقال له : قبحك الله أرجل من  
قريش يعني !!... رحم الله المهدي إنه لم يكن يدرى وقتئذ أن ابنه  
ابراهيم وابنته «علية» سيكونان من مفاخر أعلام الغناء العربي في  
العصر كله وأن لهما في حسن الصوت وجماله ما لم يكن لغيرهما ،  
وإن لم يحترفا الغناء .

وغنى ابن جامع بحضرة الرشيد ، وجاء ابراهيم الموصلى بعد  
يوم يسأل الوزير جعفر عما كان لجلسهما من الأثر . فأخبره جعفر  
أن ابن جامع كان يغنيهما وكان يخرج في غنائه عن الإيقاع .  
وكانما حاول جعفر بهذا أن ينزل بقيمة ابن جامع قليلا لتطيب  
نفس ابراهيم لما يعرفه بينهما من شديد المنافسة . وهنا تتجلى روح  
الفن الصادق . بل هنا تستيقظ أريحية ابراهيم ونبه فينسى المنافسة  
ويذكر شيئاً واحداً هو الحق الذي يعتقدده في زميله الفنان فيجيب  
جعفر وهو الوزير المطلق اليد النافذ الكلمة بذلك الجواب الحاسم  
فيقول : أتريد أن تطيب نفسي بما لا تطيب به . لا والله ، ما عطس  
أو سعل ابن جامع منذ ثلاثين سنة إلا يايقاع فكيف يخرج  
اليوم منه !!!

وللمغنين بل وللعابرة جميعاً على اختلاف مواهبهم وألوان  
فنونهم حالات تشهد قرائحهم ، وتجعلهم فيها خيراً منهم في سواها .



ولعل الحزن كان هو الحالة التي تنبه كوامن العواطف والشجن عند ابن جامع . عرف الرشيد عنه ذلك فأمر أن تنعى في مجلس لهوه والدة ابن جامع ، وكان له ما أراد . فما كاد ابن جامع يتلقى نعى أمه ، وهو بها بار حفي ، حتى اندفع يغنى مرثية بحزن شديد . فما ملك جميع من كانوا في المجلس أنفسهم ، وكان الغلمان يضربون برؤوسهم الأعمدة والحيطان . وأمر له الرشيد بعشرة آلاف دينار .

وقلنا سمعنا أن شاعراً أو مغنياً كوفي عن كل بيت من قصيدة غناها مكافأة خاصة ، كأن كل بيت منها قصر من الفن الخالد جدير وحده بالتقدير والتمجيد . أرسلت زبيدة إلى الرشيد مرة تقول له : يا أمير المؤمنين إنى لم أرك منذ ثلاثة أيام وهذا اليوم الرابع . فأرسل إليها يقول : عندي ابن جامع . فأرسلت تقول : أنت تعلم أنى لا أهنأ بشراب ولا سماع إلا أن تشركنى فيه ، فما عليك أن أشركك فى الذى أنت فيه ؟ فأرسل إليها : إنى سائر إليك الساعة . وسار إليها ومعه ابن جامع ، وجعله فى موضع يُسمع منه ولا يكون حاضراً معهما . ثم أمره أن يغنى فغنى من الثقيل الثانى أحياناً فى لحن نادر المثال ، فطربت زبيدة طرباً بالغاً وقالت لمسلم خادمها : إُدفع إلى ابن جامع لكل بيت مائة ألف درهم . فقال الرشيد : غلبتنا يا بنت أبى الفضل وسبقتنا إلى بر ضيفنا .

وكان ابن جامع يتخذ الرقائق والنفائس من الشعر ليضع أجمل  
الألحان في أجمل الألفاظ والقوافي . وإنك لتقرأ هذه الأبيات  
الثلاثة فيشجيك منها نسجها ومعناها قبل أن تعرف شيئاً عن لحنها .  
فإذا كسيت من اللحن حلة مناسبة كانت خليقة بأن يفتخر بها  
الشاعر الذي نظم والمعنى الذي لحن . وما أروعها إذا كان الغناء  
لابن جامع :

فلو كان لي قلبان عشت بواحد  
وخلفت قلباً في هواك يعذب  
ولكنما أحيا بقلب مروع  
فلا العيش يصفو لي ولا الموت يقرب  
تعلمت أسباب الرضا خوف سخطها  
وعلمها حياها كيف تغضب

وكان ابن جامع من أولئك العباقرة الذين يلتقطون الجوهرة  
حيثما وجدت ، لا يبالون من أين ولا بمن ما دامت هي الجوهرة .  
ومن المخنئين من يسمع صوت أحد الباعة المتجولين فيكون له من  
ذلك مورد فني . وفيهم من يصغي إلى جماعات الصيادين أو العمال  
أو الرعاة وطوائف الزراع فيكتسب لفته لو نأجديداً . وكذلك  
كان ابن جامع حين استمع إلى جارية سوداء تحمل قربتها فحفظ  
عنها ، بل اشترى منها اللحن مرتين ، في يومين متتاليين ، دون أن

يعنيه أنه هو ابن جامع مغنى الخلفاء ، وأنها الجارية التي حمل  
قربة السقاء .

كان لابن جامع غرفة باليمن مشرفة على مشرعة فيينا  
هو مطل ذات يوم منها رأى أمة سوداء على ظهرها قربة ملأتها  
ووضعتها على المشرعة لتستريح ، وجلست فغنت :

فردى مصاب القلب أنت قتلته

ولا تبعدى فيما تجشمت كلثما

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي

لها غسل منى وتبذل علقما

أبى الله أن أمسى ولا تذكرينى

وعيناي من ذكراك قد ذرفت دما

أبيت فما تنفك لى منك حاجة

رمى الله بالحب الذى كان أظلما

وفى رواية أخرى أنها غنت :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا

فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

وذاك لأن النوم يغشى عيونهم

سراعاً وما يغشى لنا النوم أعينا

إذا ما دنا الليل المضر لذى الهوى  
جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا  
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما  
نلاقى لكانوا في المضاجع مثلنا

ثم أخذت قربتها لتمضى فاستفز ابن جامع من سحر الصوت  
مالا قوام له به . فنزل إلى الجارية ، وقال لها أعاديه . فقالت  
أنا عنك في شغل بخراجي . قال وكم هو ؟ قالت درهمان في كل  
يوم . قال فهذان درهمان وردّيه عليّ حتى أخذه . فقالت أما الآن  
فنعيم . وجلست فلم تبرح حتى أخذه منها وانصرفت . ولكن أصبح  
ابن جامع من غد وهو لا يذكر منه حرفا ، وإذا هو بالسوداء  
قد طلعت وفعلت كفعلها بالأمس . فلما وضعت القربة تغنت  
غير الصوت الذي يريد ابن جامع فعدا في إثرها وقال : يا جارية  
بحق عليك ردّي عليّ الصوت فقد ذهبت عني منه نعمة . فقالت  
لست أفعل إلا بدرهمين آخرين . فدفعهما إليها وأعادته عليه حتى  
أخذه ثانية ثم قالت له : إنك تستكثر فيه أربعة دراهم وكأني بك  
قد أصبت به أربعة آلاف دينار .

ثم كان ابن جامع عند الرشيد يوماً وهو على سريره فقال :  
من غناني فأطربني فله ألف دينار ، وكان أمامه أكياس في كل  
كيس ألف دينار فغنى القوم وغنى ابن جامع فلم يطرب الرشيد

حتى دار الغناء إلى ابن جامع ثانية فغنى صوت الجارية السوداء  
فرمى الرشيد إليه بكيس فيه ألف دينار . ثم قال له أعدده فأعاده  
فرمى إليه بثان . ثم قال أعدده فرمى إليه بثالث ، وأمسك . فضحك  
ابن جامع . فقال الرشيد : ما يضحكك ؟ فقال : لهذا الصوت  
حديث عجيب يا أمير المؤمنين . فقال وما هو ؟ فحدثه به ، وقص  
عليه القصة فرمى إليه بكيس رابع وقال : لا تكذبها قولها .  
وتوفي ابن جامع حوالى عام ١٨٨ هـ ( ٨٠٣ م ) .

## مخاروق

هو أبو المهنا مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار مولى الرشيد .  
وكان قبل ذلك لعاتكة بنت شهدة وهي مغنية عازفة بلغت في ذلك  
مكانة مرموقة ، وعنها أخذ في بداية عهده بهذا الفن . نشأ بالمدينة ،  
وقيل بالكوفة ، وكان والده جزاراً مملوكاً ، فلما ترعرع ولده مخارق  
أخذ ينادى على سلعة أبيه فنبهه إلى حسن صوته بحسن مناداته .  
واشتراه إبراهيم الموصلى من عاتكة ، وأهداه للفضل بن يحيى .  
وانتقل من يده إلى الرشيد وكان قد علم بأمره فقال لإبراهيم :  
ما خبر ذلك الغلام الذى بلغنى أنك وهبته للفضل ؟ فقال إبراهيم :  
إنه يا أمير المؤمنين غلام لم تملك العرب ولا العجم مثله أبداً . فلما  
استقدمه الخليفة وغنى بين يديه نال إعجابه . وعند ما انتهى إليه أمره  
أعتقه وكان له ولاؤه . وقد عهد الرشيد بتعليمه الغناء إلى إبراهيم  
الموصلى فأحسن تعليمه وتخريجه .

وكانت بداية سطوع نجمه أنه كان يغنى قائماً مع الغلمان بين  
يدى الرشيد دون أن يجلس . وغنى ابن جامع أغنية طرب لها  
الرشيد فضاق إبراهيم بإقبال الخليفة على ابن جامع فأسرَّ مخارق

إلى أستاذه الموصلى بأنه أجاد الأغنية وقال له أعلم الخليفة بذلك  
فإن أحسنت فإليك ينسب وإن أسأت فإلى يعود . فادعى إبراهيم  
للرشيد أن هذا ليس من صنع ابن جامع . وقال إن عبدك مخارقاً  
يغنيه . فنظر إلى مخارق فقال نعم يا أمير المؤمنين . فقال هاته .  
فغناه وتحفظ فيه فأتى بالعجائب . فطرب الرشيد حتى كاد يطير  
فرحاً . ولما سأل الخليفة ابن جامع أقسم بين يديه بما يؤكد  
أن الصوت له وأن مخارقاً لم يسمعه إلا منه الساعة . وسأل الخليفة  
إبراهيم وتلميذه فلم ينكرا . وإذ ذاك قال الرشيد لمخارق : اجلس  
إذن مع أصحابك فقد تجاوزت مرتبة من يقوم . ووصله بثلاثة  
آلاف دينار وأقطعه ضيعة ومنزلاً .

ولعل من الطريف أن نذكر أن الكنية المشعرة بالمدح مما يعتر  
بها أصحابها ، خصوصاً إذا صدرت من أمير المؤمنين ، فهي نطق  
ملكى جدير بالاعتزاز به كبقية الألقاب والرتب .  
غنى مخارق يوماً أمام الرشيد ، فأعجب بغنائه وطرب له ،  
ولكنه استدعى هرثمة السيف . فسقط قلب مخارق وساوره  
المقيم المقعد من أمره ، وقد أقبل هرثمة إلى الخليفة يجر سيفه .  
فقال الخليفة : يا هرثمة ، مخارق الشاري الذي قتلناه بناحية الموصل  
ما كانت كنيته ؟ فقال : أبو المنأ . فقال انصرف . فانصرف .  
ثم أقبل على مخارق وقال : قد كنيتهك أبا المنأ لإحسانك . وأمر  
له بمائة ألف درهم . فانصرف بها وبالكنية .

وما أبلغ وصف الموسيقى حين يصدر عن شاعر فهو وصف  
الفن الصامت بالفن المتكلم . ها هو أبو العتاهية شاعر الحكمة  
والزهد يقصد إلى الموسيقى ، ويؤم بيت مخارق ملتصماً الغذاء  
الروحي عنده . إنه جائع الروح ، ظامئ القلب ، فليلتمس شبعه  
وربه عند هذا المغنى العبقري .

ذهب أبو العتاهية إلى دار مخارق فقال له : « يا حسان هذا  
الإقليم ، يا حكيم أرض بابل ، أصيب في أذنيّ شيئاً يفرح به قلبي  
وتنعم به نفسي » . فلها غنى مخارق أخذ أبو العتاهية يبكي ثم قال له :  
« يادواء المجانين لقد رقت حتى كدت أن أحسوك<sup>(١)</sup> . فلو كان  
الغناء طعاماً لكان غناؤك أدماً ، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة » .  
وكان لمخارق مذهبه الغنائى الذى يميز شخصيته الفنية ويحدد  
طابعه الموسيقى . وكان فى مذهبه هذا يأتي بالسحر العجائب ، كما وقع  
لأبى العتاهية حين غناه مرة أخرى بيتاً من أبياته فى الزهد اشترك  
فيه عدد من الملحنين كان الفوز فيهم لمخارق .

وكان الواثق شديد الشغف بمخارق حتى أسكنه غرفة  
فى قصره ، لا يرى منزله غير يوم كل أسبوع . وكان الجوارى  
يعنن الخليفة مكانه ذلك اليوم . وبينما هو بمنزله فى نوبته الأسبوعية  
وقد صلى الصبح واستمر فى تسيحه وعبادته فى صحن داره وإذا  
بجوارى القصر أقبلن وقلن له إن أمير المؤمنين قد دعا بنا فى هذه

(١) حسا : شرب .



الساعة فأعدنا عليه الصوت الذى طرحته علينا فلم يرضه من أحد منا ، وأمرنا بالمسير إليك لنصححه عليك . فأمر الجميع بالجلوس واستعاد الصوت فلم يعجبه من أحد . ودعا بجاريته « عميم » واستعاده منها فلم يرضه أيضاً . فبدأ يغنيه بنفسه . وهنا يحدثنا ابنه هارون فيقول :

« ... فخرج الوصائف من حُجر جواريه حتى وقفن حوالى الأُسرة ( فى صحن الدار ) ودخل غلام من غلمانها وكان يتولى سقاية الماء فهجم على الصحن بدلوه ، وجاءت جارية على كتفها جرة من الجرار المزملة (١) حتى وقفت بالقرب منه ، فسبقتنى عيناى فما كففتُ دموعها حتى فاضت . ثم قطع الصوت حين استوفاه فرجع الوصائف الأصاغر سعيماً إلى حجرات الجوارى ، وخرج الغلام السقاء يشدد إلى بغله ، ورجعت الجارية حاملة بجرتها المزملة إلى الموضع الذى خرجت منه ، فتبسم أبى وقال ماشأ نك يا هارون؟ فقلت يا أبت جعلنى الله فداك ما ملكتُ عيني ، قال وأبوك أيضاً لم يملك عينه . »

أرأيت كيف تصور لنا هذه الأقصوة مدى تلك النفوس الطيبة الطاهرة . فهذا مغن فى مقام فى سما به إلى حد أن الخليفة كاد يغلبه على أهله كل أيام الأسبوع ، وهو فى تلك المكانة لا ينسى صلاته وعبادته وتدينه . ثم نرى كيف يؤثر الغناء حتى فى أسرة

(١) المزملة: التى يبرد فيها الماء .

المغنى ، وقد كان مفروضاً فيهم أنهم ألفوا منه فنه وأصبح  
عادياً لهم . ولكن قوة الفن تغلبهم جميعاً فتذهل السقاء عن دلالة  
والجارية عن جرتها وكل خدم الدار عن أعمالهم . ثم نرى  
ابنه يبكي . ثم يمتد التأثير إلى المغنى نفسه أيضاً فيبكي لأنه ما كان  
ليؤثر في غيره ما لم يكن هو متأثراً . وهكذا يبلغ مخارق مكانة  
لا يستغنى عنه فيها الخليفة حتى في يوم أجازته .

وكان لمخارق شعوره وغرامه الخاص فقد استولت على قلبه  
جارية لأم جعفر اسمها « نهار » . فلما بلغ ذلك أم جعفر أقصته .  
فراح يغنى مشبهاً بها . وظل كذلك حتى استدعته أم جعفر وغنى  
بمحضرتها ، وكان من ذلك :

أغيب عنك بود ما يغيره نأى المحل ولا صرف من الزمن  
قد حسن الله في عيني ما صنعت حتى أرى حسناً ما ليس بالحسن  
فغنت « نهار » :

تعتل بالشغل عنا ما تلم بنا والشغل للقلب ليس الشغل للبدن  
ففهمت أم جعفر أنهما يتجاوبان بهذا الغناء ، فخلعت عليه  
ووهبت الجارية له .

وتوفي مخارق حوالي عام ٢٣٠ هـ ( ٨٤٥ م ) . وقد كانت  
له ألحان أبت أن تموت بموته وأن تدفن معه في لحده ، كما وقع  
ذلك لإحدى جوارى المتوكل حين دخل عليها فوجدها تنغى :  
أمن قطر الندى نظم بت ثغرك أم من البرد

وريقك من سلاف السكر م أم من صفوة الشهد  
أيا من قد جرى منى كمجرى الروح في الجسد  
ضميرك شاهد فيما أقاسيه من الكمد

وكان الغناء لمخارق فأمرها الخليفة بإلقاء هذا اللحن على الجوارى  
جميعاً ، فلما أتقته أمرهن بألا يغنين سوى هذا اللحن ثلاثة أيام  
متوالية . وكان هذا بعد وفاة مخارق .

\*\*\*

وإننا لنستخلص من سيرة مخارق الطويلة وأخباره العديدة  
أنه كان دون إسحق وفوق إبراهيم بن المهدي وعلويه ، وأنه كان  
ينتمي إلى المدرسة القديمة مدرسة إسحق ووالده . ويلوح لنا من  
خلال ما قرأنا أنه كان يشرك وجدانه مع الحانه ويغنى بقلبه قبل  
صوته وشعوره قبل حنجرتة بما كان سبباً في رفع مكانته وإعلاء شأنه .  
وإذا كان من المغنين من يعيشون على قديمهم وعلى سمعهم  
الماضية ومستهل شبيبتهم ، فإن مخارقاً كان يعلو نجمه كلما علت سنه .  
وكان حلو الصوت مديد النفس إلى حد أن ينقطع الناي الذي  
يصاحبه وهو متصل الصوت . وكان يلهي المستمع عن نفسه وعن  
عمله ، حتى لقد يزعمون فيما يروون عنه ما يشبه الغرائب ، ومن ذلك  
أنه استدعى بغنائه الأطباء فأغنى الصياد عن القوس .

وامتدت حياة مخارق إلى بداية عهد المتوكل . وكانت وفاته  
جفأة إثر طعام تأثر به ، تاركاً للناس تراثاً فنياً وغذاء روحياً  
لا ينضب ولا يفنى .

## إسحق الموصلي

تعارف الناس على أن يقايسوا في تعبيرهم أعلام الغناء بمعبد .  
فهو المشبه به في كل غناء ، واسمه هو المستعار عند كل ثناء .  
ولن نسلب معبداً حقه فيما تمتع به من سمعة طائرة عبر أجيال  
التاريخ ، إلا أن إسحق الموصلي كان جديراً أن ينسى الناس شهرة  
معبد علم الغناء في الدولة الأموية بمكانته هو في الدولة العباسية .  
وكان يمكن أن يقع ذلك لولا ما للأول من العراقة والقدم  
والشخصية التي أنشأها غير معتمد إلا على إلهامه وفطرته  
وعصاميته .

وليس اسم إسحق بغريب على من يقرؤه في هذه الترجمة ، فقد  
مرّ به في أكثر من موضع في هذا المصنف ، وفي مواطن فنية  
دلت على عبقريته الفذة ومادته الغزيرة .

إسحق بن ابراهيم الموصلي لا يحتاج إلى بيان أكثر عن نسبه  
وبيئته ، فقد ألمنا بذلك في سيرة أبيه . عدا أنه يختلف عنه  
الاختلاف كله في نشأته وأسلوب حياته الأولى . فبينما احتمل  
ابراهيم عبء المحن والأرزاء ... احتمل السجن مظلماً والقيود محكماً

والضرب موجعاً والتشريد متواصلاً ، استقبل إسحق وجه الحياة  
باسماً طلقاً في أبهة الخلافة وعظمتها . وناهيك بمن يترعرع ويتقلب  
في أحضان الملايين من ثراء أبيه العريض ، وقد بلغت الدولة  
العباسية أوج رقيها ونضجها ، وامتدت حضارتها واتسعت رقعتها  
في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وانفسح مجال الحرية  
الفكرية وكثرت الترجمة ، وعظمت مادة الأدب ، ونقلت مدنيات  
الأمم علماً وعملاً وفناً وعمراناً .

بين كل هذا نشأ إسحق وهو يرى نفسه الغصن الوارف  
في دوحة الموسيقى ، والنابع المتفرد من سلالة أكبر موسيقى  
في دولة بني العباس ، والذي أدخر له أبوه فوق ثروة المال ثروة  
الفن التي ضن بها على الصفوة من تلاميذه والحظايا من جواريه  
طمعاً في أن يخلفه إسحق على مجالس الخلفاء ، دون منافس يتحداه  
أوفنان يغالبه . وكان لإبراهيم ما أراد لإسحق فتسم غارب السؤدد  
وبلغ أعلى منزلة في ظل ستة من الخلفاء — من الرشيد حتى  
المتوكل — وهو الأنيس الجليس والمقدم الممتاز .

أما إسحق فهو أبو محمد كنية ، وأبو صفوان تظرفاً على ما كان  
يكنّيه الرشيد به . وقد كانت له قدم راسخة في العلوم والآداب  
والرواية والشعر . وقد قالوا إن الوصف يعجز عن تحديد مكاتبه  
في النبوغ الذي سما به إلى هذه الثقافات المختلفة . فقد كان عالماً

فقيهاً ، وشاعراً مجيداً ، وأديباً أريباً ، ونديماً جم الظرف حلو  
الشمائل ، وجليلاً لطيف المعاشرة رقيق الحاشية لا يستغنى عنه  
الخلفاء ، وراوي يروي أخبار القدامى والمحدثين ، بل وكثيراً  
ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء إلى غير قائليها . وكان مغنياً  
عارفاً بفن الغناء تمام المعرفة وعازفاً ماهراً وملحناً بارعاً . وعلى  
الرغم من ذلك فقد قالوا إن الغناء أصغر علومه وأدنى ما يوسم به ،  
وهذه مبالغة يقصد بها الإقناع بعلو كعبه وسمو قدره في كل تلك  
العلوم . وكان عليه عدة لتجاربه الفنية ، وموصلاً له إلى المشاعر  
النفسية وإدراك مكنونات العواطف وأسرار النفوس والعقول .  
وقد كان له في العلوم نظراء إلا في الغناء فقد سبق فيه من مضى  
وقلها لحقه أحد ممن بقي . فكان إمام صناعته حياً وبعد الحياة ،  
يشهد له بذلك الموافق والمفارق . بل وتشهد له القصة التالية :

حدث محمد بن عطية الشاعر قال « كنت عند يحيى بن أكرم  
في مجلس له يجتمع إليه فيه أهل العلم ، وحضره إسحاق ، فجعل  
يُنظر أهل الكلام حتى انتصف منهم ، ثم تكلم في الفقه فأحسن  
واحتج ، ثم تكلم في الشعر واللغة ففاق من حضر . فأقبل على  
يحيى بن أكرم وقال : أعز الله القاضى ! أفى شىء مما ناظرت فيه  
تقصير ؟ قال لا والله . قال : فما بالى أقوم بسائر العلوم وأنسب  
إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه ؟ فالتفت بعض أهل الجدل

إلى إسحق وقال : يا أبا محمد أخبرني ، إذا قيل من أعلم الناس  
بالشعر واللغة ، أيقولون إسحق أم الأصمعي وأبو عبيدة ؟ فقال  
بل الأصمعي وأبو عبيدة . قال فإن قيل من أعلم الناس بالنحو  
أيقولون إسحق أم الخليل وسيبويه ؟ قال بل الخليل وسيبويه .  
قال فإن قيل من أعلم الناس بالأنساب أيقولون إسحق أم ابن الكلبي ؟  
قال بل ابن الكلبي . قال فإن قيل من أعلم الناس بالكلام أيقولون  
إسحق أم أبو الهذيل والنظام ؟ قال بل أبو الهذيل والنظام .  
قال فإن قيل من أعلم الناس بالفقه أيقولون إسحق أم أبو حنيفة  
وأبو يوسف ؟ قال بل أبو حنيفة وأبو يوسف . قال فإن قيل  
من أعلم الناس بالحديث أيقولون إسحق أم علي بن المديني ويحيى  
ابن معين ؟ قال بل علي بن المديني ويحيى بن معين . قال فإذا قيل  
من أعلم الناس بالغناء أيجوز أن يقول قائل فلان أعلم من إسحق ؟  
قال لا . قال فمن ههنا نسبت إلى ما نسبت إليه لأنه لا نظير لك  
فيه وأنت في غيره لك نظراء . فضحك وقام وانصرف .

قال الخليفة المأمون : « لولا ما سبق على السنة الناس  
وما اشتهر من أمر إسحق لوليت القضاء بحضرتي ، فإنه أولى به  
وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة » .  
وهنا نجد أنفسنا أمام تصريح له خطره وجلاله ، وشهادة  
من أمير المؤمنين الخليفة الأعظم لأحد أعلام الموسيقى جديرة

بأن يعتز بها كل موسيقى في العرب ، بل في الشرق كله . هي شهادة  
بما ينبغي أن يتجمل به كل مشتغل بهذا الفن مؤدياً كان أم ملحناً  
أم عازفاً ، هاوياً أو محترفاً على سواء . فقد أقر له بسعة الاطلاع  
ووفرة العلم ، ورشحه للقضاء في عصر يتبوأ فيه هذا المركز أمثال  
أبي يوسف صاحب أبي حنيفة الفقيه العظيم . فكان هذا إقراراً  
من الخليفة بأن إسحق ألم بالفقه والأصول الدينية وأحاط بالعلوم  
الاجتماعية وتوفر على اللغة وأدبها ، ونحوها وصرها ، شعرها  
ونثرها . فإذا أضيف إلى كل هذه الثقافات شهادة الخلق الرفيع  
فقد حيز له الفخار من جميع نواحيه . ولكن ماهي تلك الأخلاق ؟  
هي الصدق والعفة والأمانة ورأسها التدين . وهي صفات يكمل بعضها  
بعضاً . فالموسيقى الصادق العفيف الأمين هو الجدير بأن تعز به  
أتمه وأن ينال هذه الشهادة من مثل الخليفة المأمون ، وهو حكيم  
الخلفاء وعالمهم ورأس المدنية وعنوان الرقي والكمال في عصر  
بني العباس ، بل الخليفة الذي لم ير المشرق من أعلام هذه الدولة  
من يماثله أو يدانيه .

وهكذا كان إسحق أسوة في غنائه كما كان قدوة في عمله وثقافته .

ومن الصفات التي اشتهر بها إسحق بين معاصريه تجنيه على  
الخلفاء ودله عليهم بفضله . وأحسب أنه كان يفعل ذلك رفعاً لمكانة  
فنه عن أن تبذل ولأن كل محبوب محبوب .



سأل إسحق الموصلي المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين فإذا أَراده للغناء غناه . فأجابه المأمون إلى ذلك . وسأله بعد حين الإذن له في الدخول مع الفقهاء فأذن له . قالوا وقد كان يدخل ويده في يد قاضي القضاة يحيى بن أكثم . بل لقد تغالى إسحق فسأل المأمون بعد ذلك أن يأذن له في الصلاة معه يوم الجمعة في المقصورة . فضحك المأمون وقال : ولا كل ذا يا إسحق ، قد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم . وأمر له بها .

وفي هذا أعظم تنويه بالمكانة التي بلغها إسحق فقد امتد به طموحه إلى مكان ليس لغير الخليفة فيه موضع ، فما انتهره الخليفة ولا اتبّه وإنما رده رداً جميلاً ، وتلطف في التخلص من طلبه حتى اشتراه منه كما يشتري الشيء الثمين من مالكة .

حدثنا محمد بن عمران الجرجاني عن إسحق الموصلي قال : « كان والله إسحق غرة زمانه وواحداً في عصره علماً ، وفهماً ، وأدباً ، ووقاراً ، وجودة رأى ، وصحة مودة . وكان والله يخرس الناطق إذا نطق ، ويحيّر السامع إذا تحدث . لا يمل جلسه مجلسه ، ولا تمج الآذان حديثه ، ولا تنبو النفس عن مطاولته . إن حدثك أهلك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك . وما كانت

خصلة من الأدب أو جنس من العلم يتكلم فيه إسحق فيقدم أحد  
على مساجلته أو مناوآته فيه .

ومن العجيب أن إسحق لم يكن أحسن المغنين صوتاً في عصره ،  
وإنما كان تفوقه عليهم بحسن صناعته وحنقه فنه .

سئل زر زور الكبير ، وكان من فطاحل المغنين المعاصرين له ،  
كيف كان إسحق يتفوق عليكم عند الخلفاء وأنت وإبراهيم  
ابن المهدي ومخارق أطيب أصواتاً وأحسن نغمة ؟ قال : كنا والله  
نحضر معه فنجتهد في الغناء ونقيم الوهج فيه ، وتقبل علينا الخلفاء ،  
حتى نطمع في إسحق ونظن أننا قد غلبناه ، فإذا غنى عمل في غنائه  
أشياء من مداورته وحنقه ولطفه حتى يسقطنا كنا ويقبل عليه  
الخليفة دوننا ويصنئ إليه ويمجزه ، ونرى أنفسنا اضطراراً دونه .

لم يكن إسحق إذن مغنياً وفق ماتاهم الصدفة ويوحى به الارتجال  
ويوجه إليه الصوت الحسن ، ولكنه تناول فن الغناء المرتكز  
على أسس فنية . فوضع القواعد والأصول ، وضبط الأوزان ،  
وأحكم الأجناس والمقامات ، وتصرف بها تصرفاً يشهد له بالدقة  
والعمق والتنسيق . فأصبح الغناء في عصره يعتمد على الأصول  
المحكمة والقواعد المدعمة .

وهذا أحد تلاميذه عمرو بن بانه يتحدث عما صنعه أستاذه  
في الطرائق والأجناس ، وفي تقسيم الخفيف والثقيل ، وتمييز

الأصابع وأجزائها على ترتيب وتفصيل مبتكر ، فيقرر أن قد بلغ شأوه في هذه القواعد والأصول مبلغاً جعلت شيوخ الغناء وأعلامه — وفي مقدمتهم والده إبراهيم وابن جامع — يذعنون له ويروون عنه ويقصدون إليه في تفهم ما أدركه من أسرار فنية دقيقة . وقد صنف إسحق من الكتب ما كان مرجعاً لا يستغنى عنه كل من ألف في هذه الصناعة (١) .

وكان إسحق معاصراً لأولئك العلماء الذين ترجموا كتب الفلاسفة والرياضة عن اليونان (٢) .

(١) ومن تصانيفه : كتاب أغانيه التي غنى فيها ، أخبار عزة الميلاء ، كتاب أغاني معبد ، كتاب أخبار حماد مجرد ، كتاب أخبار حنين الحيرى ، كتاب أخبار ذى الرمة ، كتاب أخبار طويس ، كتاب أخبار المغنين المكيين ، كتاب أخبار سعيد بن مسجح ، كتاب أخبار الدلال ، كتاب أخبار محمد بن عائشة ، كتاب أخبار الأبخر ، كتاب الاختيار (ألفه للخليفة الواثق) ، كتاب اللحظ والإشارات ، كتاب الشراب ، كتاب جواهر الكلام ، كتاب الرقص والزفن (الزفن من باب ضرب نوع من الرقص) ، كتاب النغم والإيقاع ، كتاب أخبار الهذليين ، كتاب قيان الحجاز ، كتاب النوادر المتخيرة ، كتاب القيان ، كتاب الأخبار والنوادر ، كتاب أخبار جميل ، كتاب أخبار كثير ، كتاب الندماء . . وغير ذلك وهو كثير .

(٢) ولا ترتاب في أنه أفاد من تلك الكتب وأجادها معرفة وإتقاناً ظنه بعض الناس إلهاماً وعبقرية سبق بها إقليدس وغيره من مؤلفيها ، لأن القواعد والحدود التي رسمها لا تخفى فيها عمليات الموازنة والمقارنة وإن كان هو لم يصرح بذلك ، وليس ملزماً بهذا التصريح . ولسنا ملزمين بدورنا أن نصدق أنه وفق من تلقاء نفسه وبدون سابق اطلاع كل هذا التوفيق ، فهي نظريات رياضية هندسية يقوم بعضها على بعض ويتوقف كل منها على معرفة الآخر .

وليس أجدى في تصوير تلك الثقافات في حياة إسحق من أن  
نعود إلى حدائمه فنقضى معه يوماً كاملاً من أيام شبابه الغض  
وعهده بطلب العلم والتماسه... حياة يوم كامل يختلف فيه إلى العلماء  
والقراء والأدباء والفقهاء وأعلام العزف والغناء من رجال ونساء،  
تحت رقابة أبيه وفي بلاط الرشيد .

ها هو إسحق يقول « بقيت دهرًا من دهرى أغلس (١) في  
كل يوم إلى هشيم فأسمع منه ، ثم أصير إلى الكسائي أو القراء  
أو ابن غزالة فأقرأ عليه جزءً من القرآن ، ثم آتى منصوراً زلزلاً  
فيضار بنى طرفين أو ثلاثة ثم آتى عاتكة بنت شهدة فأخذ منها صوتاً  
أو صوتين ، ثم آتى الأصمى وأبا عبيدة فأناشدهما وأحدهما  
فأستفيد منهما ، ثم أصير إلى أبي فأعبله ما صنعت وما لقيت  
وما أخذت وأتغدى معه ، فإذا كان العشاء رحلت إلى أمير  
المؤمنين الرشيد . »

وقد يسر عليه أن يحوز هذه الكنوز كلها أنه بذل مثلها من ماله  
لأولئك العلماء . وما كان ذلك التحصيل كله ميسوراً إلا لمن كان  
في مثل ثروة إسحق التي مكنت له من أن يغشى المجالس التي يلقي بها  
أمثال هؤلاء ويبذل لهم ما يجعلهم أسخياء بما لديهم . وناهيك بمثل  
الأصمى في أدبه، والقراء في نحوه، والكسائي وهو أحد أئمة القراءات

(١) الغلس بفتحين ظلمة آخر الليل .

السبع ومؤدب الخليفة ، ومنصور زلزل أمر عازف بالعود .  
وحسبك مثلاً لهذا البذل السخي الوفير رواية إسحق عن نفسه قال :  
« أخذ مني منصور زلزل إلى أن تعلمت مثل ضربه بالعود أكثر  
من مائة ألف درهم سوى ما أخذته له من الخلفاء ومن أبي » .

وقد تبين بعد يسير من الزمن أن هذه الثقافة الباهظة الثمن  
لم يضع ما بذل فيها هباءً ، بل لقد غرست البذور في أرض خصبة ،  
وسرعان ما بدت الثمار ناضجة . وأثبت إسحق في فتوته ما ناظر به  
شيوخ الفن المعمرين في أخطر حلبة فنية ضمت أفذاذ العصر  
من أقطاب الغناء .

اجتمع المغنون يوماً بحضرة الرشيد وجلسوا في صفوفهم  
بناحيتين من المجلس للمناظرة في الغناء ، وبينهم إبراهيم بن المهدي  
وابراهيم الموصلي وابن جامع وفليح بن أبي العوراء ومخارق  
ويحيى المكي وإسحق الموصلي وغيرهم من فحول مطربى ذلك العصر ،  
وكان إسحق ما يزال صديماً . وقد اشتد التنافس بينهم فأخذوا  
يتناوبون الغناء في إجادة نادرة وحسن أداء . فلها جاء دور إسحق  
أخذ العود وغنى غناءً ليس أحسن منه موقعاً في القلوب . وطرب  
الرشيد من صناعته فأقبل عليه وطلب إليه المزيد . فغناه إسحق  
لحناً آخر فأجاد في الغناء إلى ما وراء الغاية حتى قال الرشيد  
وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب : والله ما الغناء الذي يلين

العريكة ويفسح في الرأى والصدر ويحدث في النفس طرباً إلا غناء  
هذا الرجل .

وقد أدناه منه الرشيد فصار له الأنيس والجليس . وما يدل  
على مكانة إسحق ودنوه من مقام الخليفة ، بل وهو في الحقيقة  
تقدير للموسيقى وإعلاء للموسيقين ، هذه القصة التي نوجزها  
عن إسحق فيما يلي :

يروى إسحق أنه كان يوماً عند الرشيد بين ندمائه وفيهم  
أخوه إبراهيم بن المهدي ، فغنى إسحق :

شربتُ مدامةً وسقيتُ أخرى وراح المنتشون وما انتشيت

فقال له إبراهيم : ما أصبت يا إسحق ولا أحسنت . فقال

له إسحق : ليس هذا مما تحسنه وتعرفه وإن شئت فغنه فإن لم أجذك

تخطئ فيه من ابتدائك إلى انتهائك فدمى حلال . ثم قام الرشيد

لبعض شأنه فاتهنز إبراهيم فرصة انصراف الرشيد وأقبل على

إسحق يصب عليه جام غضبه ويسمعه من الكلم المرير ما ضاق به

صدر إسحق ، وقد رأى من العسير عليه أن يبادل الشتم

والقذف وهو من الخليفة حيث يعلم ، وإن كان قد رد عليه مثلاً

بمثل على أسلوب التنكر والتحايل . فلما عاد الرشيد وثب

إبراهيم بين يديه يشكو إسحق من أنه شتمه واستخف به .

ولكن الرشيد أمره أن يمسك عن مثل هذا اللغو ، حتى يعود

المجلس حيث كان من الطرب والغناء . فلما انقضى المجلس وانصرف  
الناس استبقى الرشيد إسحق وحده ، فداخله الخوف على نفسه .  
فقال له الرشيد : ويحك يا إسحق أترانى لا أعرف وقائلك . .  
حدّثنى عنك لو ضربك أخى إبراهيم ، أكنتُ أقص لك منه  
فأضربه وهو أخى يا جاهل ؟ أتراه لو أمر غلماناه أن يقتلوك  
فقتلوك أكنت أقته بك ؟ فقال إسحق : قد والله قتلتنى  
يا أمير المؤمنين بهذا الكلام . ثم استدعى الرشيد أخاه إبراهيم  
وانفرد به وقال له : لم تستخف بخادمى وصنيعى ونديمى  
وابن خادمى وصنيعة أبى ؟ تُقدم على هذا وأمثاله وأنت مالك  
والغناء وما يدريك ما هو ؟ ومَن أخذ لحنه وطارحك إياه حتى  
تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه ؟ ويدعوك إلى إقامة الحجّة عليك  
فلا تثبت لذلك وتعصم بشتمه . . . وما زال به لوماً وتعنيفاً  
إلى أن قال : والله لئن أصابه سوء أو سقط عليه حجر من السماء  
أو سقط من دابته أو سقط عليه سقف أو مات فجأة لأقتلنك .  
ثم قال له قم الآن فاخرج .

وقد تلس فى هذه القصة رجاحة عقل الرشيد ثم تساميه بقدر  
نديمه الموسيقى إلى مرتبة أخيه ، وإنذاره إياه ، وإلزامه نحو إسحق  
بما يعد أسلوباً من التأمين على حياة ذلك الفنان لأن الفن الممثل  
فيه جزء من حياة الدولة .

وما كاد إسحق يدرك عصر المأمون حتى رأيناه أعلم عصره  
في الغناء ، يعرف غثه من ثمينه ، وزيفه من صحيحه ، يصلح فيه  
خطأ المخطئين ، ولا يرده عن ذلك عظم منزلة المخطيء . لأنه يعتقد  
أن الفن فوق المجاملات الشخصية وأن الحق والصواب لا يعلوهما  
شيء . فكانت مطارحات ومنازعات مع إبراهيم بن المهدي  
وهو أخو الرشيد وعم المأمون وفي ذلك أحاديث طويلة .

حدث إسحق قال : دعاني المأمون وعنده إبراهيم بن المهدي  
وفي مجلسه عشرون جارية ، وقد أجلس عشراً عن يمينه وعشراً  
عن يساره . فلما دخلت سمعت من الناحية اليسرى خطأ فأنكرته .  
فقال المأمون : يا إسحق أتسمع خطأ ؟ قلت نعم والله  
يا أمير المؤمنين . فقال لإبراهيم : هل تسمع خطأ ؟ قال لا . فأعاد  
المأمون على السؤال فقلت بلى يا أمير المؤمنين ، وإنه لفي الجانب  
الأيسر ، فأعاد إبراهيم سمعه إلى الناحية اليسرى ثم قال لا والله  
يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحية خطأ . فقلت يا أمير المؤمنين مر  
الجواري اللواتي على اليمين يمسن . فأمرهن فأمسكن . فقلت  
لإبراهيم هل تسمع خطأ ؟ فنسمع ثم قال ما ههنا خطأ . فقلت  
يا أمير المؤمنين يمسن وتضرب الثامنة . فعرف إبراهيم الخطأ وقال :  
نعم يا أمير المؤمنين ههنا خطأ . فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم :  
يا إبراهيم لا تمار إسحق بعدها فإن رجلا فهم الخطأ بين ثمانين



وتراً وعشرين حلقة لجدير ألا تماريه . فقال ابراهيم صدقت  
يا أمير المؤمنين .

وهكذا كان إسحق مرهف السمع دقيق الفكرة نافذ البصيرة  
يفطن إلى ما يفوت غيره من كبار الخذاق وأساطين الغناء .

كان عقيد يغنى بمحضرة المأمون بمصاحبة أحد العازفين . وكان  
ابراهيم بن المهدي حاضراً . فدخل عليهم إسحق . فقال المأمون :  
كيف تسمع مغنيننا هذا ؟ فقال : هل سأل أمير المؤمنين غيري ؟  
قال الخليفة : نعم سألت عمي ابراهيم بن المهدي فوصفه وقرظه  
واستحسنه . فقال إسحق : يا أمير المؤمنين أدام الله سرورك  
وأطاب عيشك ، إن الناس قد أكثروا في أمرى حتى نسبتني فرقة  
إلى التزويد في علمي . فقال له المأمون : لا يمنعك ذلك من قول الحق  
إذا لزمك . فالتفت إسحق إلى عقيد وقال له اردد الصوت . فردده  
وتحفظ فيه وضرب ضاربه عليه . فلما انتهى سأل ابراهيم بن المهدي  
كيف رأيت ؟ قال ما رأيت شيئاً يكره . فأقبل على عقيد وسأله  
في أى طريقة هذا الصوت الذى غنيتته ؟ أجاب فى الرمل . فسأل  
الضارب فى أى طريقة ضربت أنت ؟ أجاب فى الهزج الثقيل .  
فقال إسحق : يا أمير المؤمنين ما عسيت أن أقول فى صوت يغنى  
مغنيه رملاً ويضرب ضاربه هزجاً وليس هو صحيحاً فى إيقاعه  
الذى ضرب عليه . فأخذ المأمون العجب لما فطن إليه إسحق وقد

فات سواه برغم تكرار الصوت والغناء . وأحاطه بالتكريم والتوقير  
وأثنى عليه خير الثناء .

ولم تكن صناعة إسحق في الغناء سهلة المأخذ فقد حدث  
عجيف بن عنبسة قال : كنت عند أمير المؤمنين المعتصم ، وكان  
إسحق الموصلي يغنيه :

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا  
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعبا

فأمر المعتصم بإعادته ثلاثاً . فقال إبراهيم بن المهدي : قد  
استحسنتم هذا الصوت يا أمير المؤمنين أفأخذه ؟ قال نعم خذوه  
فقد أعجبني . فاجتمع جماعة من المغنين ، مخارق وعلويه وعمر وبن بانه  
ومحمد بن الحرث وغيرهم فأمر المعتصم إسحق أن يلقيه عليهم حتى  
يأخذوه . قال عجيف فعددت خمسين مرة قد أعاده فيها عليهم وهم  
يظنون أنهم قد أخذوه ، ولم يكونوا يأخذوه لكثرة زوائده .  
وقد قال محمد بن الحرث في ذلك : ومن يقدر أن يأخذ من ذلك  
الشيطان شيئاً !!!

وأحسب أن إسحق قد تعمد الضن بلحنه على هؤلاء المغنين .  
فقد كان إسحق كأبيه إبراهيم ضنيناً بفنه ، شحيحاً بإنتاجه حتى  
على أقرب جواريه وأدناهن إليه . وهي صفة مانحها لأحد ،  
وما نرضاها للفنان خاصة كائناً ما كان زمنه أو وطنه . ولعل أمثال

هؤلاء وقد ابتكروا في التدوين الموسيقى ما سبق به العرب سواهم  
هم الذين تخلفوا بتراث الموسيقى العربية بسبب هذه الأناية الفنية  
وهذا الشح وحب الذات وما يرافها من الخلال ، فهي التي جنت  
وتجنى دائماً على الفن والفنانين . ومن يدرى لعل علوماً كثيرة  
ضافية نافعة كانت تجدى على البشر ، ولكنها وقعت في أيدي  
أشحاء فاحتجزوها احتجاز البخلاء بأموالهم . على أن دفائن  
الكنوز تحت التراب قد يعثر عليها ولكن كنوز الإنتاج العقلي  
إذا ذهبت مع أصحابها ودفنت معهم فليس لها من عودة آخر الدهر .

ومن الأدلة على اعتزاز إسحق بفننه وخوفه أن يتسرب من  
أفواه من يتصلون به ما تحدثنا عنه « دمن » وهي من كبار جواريه  
وأحظى من عنده ، فقد قالت لمن سأها في ذلك : ما أخذت أنا عنه  
ولا واحدة من جواريه صوتاً قط ، إنه كان يبخل بذلك ؛  
وما أخذت منه إلا صوتاً واحداً . وذلك أنه انصرف من دار  
الخليفة فدخل إلى البيت فرأى عوداً معلقاً فأخذه بيده وقال لخادمه  
يا غلام صح لي بدمن . فجاءني الغلام فخرجت . فلما بلغت الباب  
إذا هو مستلق على فراشه والعود في يده وهو يصنع هذا  
الصوت ويردده :

ألا ليك لا يذهبُ ونيط الطرف بالكوكبُ  
وهذا الصبح لا يأتي ولا يدنو ولا يقرب

وقد تنوّق<sup>(١)</sup> في هذا الصوت وبالغ في تجويده حتى استقام له . أما أنا فعلت أنى إذا دخلت إليه أمسك ، فوقفت أستمع حتى فرغ منه . ثم وضع العود من يده وتذكر أنه طلبني ، فقال يا غلام أين دمن ؟ فقلت ها أنذا . فقال منذ كم أنت واقفة ؟ فقلت منذ ابتدأت بالصوت وقد أخذته . فنظر إلىّ نظر مغضب آسف . ثم قال غنّيه . فغنّيته حتى استوفيته . فقال لي وقد فتر وخجل قد بقيت عليك فيه بقية أنا أصلحها لك . فقلت لست أحتاج إلى إصلاحك إياه وقد والله أخذته على رغمك . فضحك .

ونرى إسحق كثيراً ما يحاول الهرب من تلك النفس التي حطمتها السهر والغناء والطرب واللها إلى نفس أخرى زاهدة متعبدة تنزل عند قضاء الله وتطمئن إليه فنراه يقول :

ولما رأيت الدهر أنحت صروفه  
على وأودت بالذخائر والعقد

حذفت فضول العيش حتى رددتها  
إلى القوت خوفاً أن أجاه إلى أحد

وقلت لنفسي أبشرى وتوكلى  
على قاسم الأرزاق والواحد الصمد

(١) أى تأنق وتألق .

وهي صورة من الشعر كان أحرى بها أن تصدر من رجل زاهد متقشف ، لا من إسحق ربيب النعمة والثراء وصاحب الليالي والطرب والغناء ، ولكنه اتجه بهذا القول يريد أن يطمئن إلى قضاء الله بعد أن أفزعته مظاهر الترف وعملت في أعصابه ألوان الرفاهية والنعيم .

وامتدت السنون بهذا العبقرى فعبر عهود الخلفاء حتى أقبل عصر الوراق وقد بلغ به الكبر حداً استعفى فيه من العزف أو أعنى منه ، وبقي له فيه علمه وفضله . وهو إذ ذاك يغشى مجلس الخليفة غير مجهول القدر أو منتقصه .

تناظر المغنون في مجلس الوراق عمن هو أمهر العازفين بالعود ، وكان ملاحظ رئيس العازفين إذ ذاك ، فرأى إسحق أن يقدم عليه غيره . فقال الخليفة: هذا حيف منك . فطلب إسحق أن يجمع بين المتنافسين حتى ينجلى الأمر فيهما . فلما حضرا امتحنهما في المعروف من الأصوات فذكر ثلاثة منها ، فتقدم المتنافس وقصر ملاحظ في أولها . فعجب الوراق لأصالة حكمه وسرعة كشفه . فحاول ملاحظ أن يستغل شيخوخة إسحق لإخراجه وتحديه ، فقال : يا أمير المؤمنين لم لا يضرب هو ؟ فقال إسحق : يا أمير المؤمنين إنه لم يكن أحد في زمانى أضرب منى ، إلا أنكم أعفيتموني فتخلت عنه ، على أن معى بقية لا يتعلق بها أحد من هذه الطبقة . ثم قال :

يا ملاحظ افسد تسوية أوتار عودك وهاته . ففعل ملاحظ ذلك .  
فأخذ إسحق العود وتعرف أبعاده ومواضعه دون إصلاح وغنى .  
ثم قال لملاحظ غن ما شئت . فغنى ملاحظ صوتا صاحبه فيه  
إسحق بعزفه بذلك العود الفاسد التسوية ، فلم يخرج عن لحنه في  
موضع واحد حتى استوفاه ويده تصعد وتنحدر على الدساتين (١) .  
فقال له الوراق : لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت به . فقال  
إسحق : يا أمير المؤمنين لقد بلغني أن « الفهليذ (٢) » ضرب يوماً  
بين يدي كسرى فحسده رجل من حذاق أهل صنعته فترقبه حتى  
قام لبعض شأنه ثم قصد إلى عوده فأفسد تسوية بعض أوتاره ،  
فرجع فضرب وهو لا يدري ، والملوك لا تصلح في مجالسها العيدان ،  
فلم يزل يضرب بذلك العود الفاسد ، إلى أن فرغ . ثم قام وأخبر  
الملك بالقصة ، فامتحن الملك العود ، فعرف ما فيه . فقال له زه  
معجباً . ثم أغدق عليه الكرم الفيّاض بعد كلمة الإعجاب . وبين  
إسحق أنه عالج هذه التجربة عدة سنين حتى لان له صعبها . فقال  
له الوراق : لئن مت لتموتن هذه الصناعة معك . وأمر له  
بثلاثين ألف درهم .

ومن هذا نعلم إلى أي حد بلغت المقدرة الفنية عند هذا الفنان  
النادر النضير ، وكيف أنه انتصر بمقدرته على الزمن في شيخوخته

(١) الدساتين : مواضع العفق . (٢) كبير الموسيقين في بلاط كسرى .

انتصاره على الأوتار التي فقدت استقامة أوضاعها . كما تتجلى عناية ملوك الشرق بالموسيقى وأهلها ، سواء أكانوا ملوكا في الفرس أو خلفاء في العروبة والإسلام .

وإذا كان هذا هو مقام إسحق في التفوق على أقرانه من أعلام الغناء والعزف في عصره فلم يكن عجباً أن يتفوق على الخليفة نفسه ، ولكن في هذه الصناعة أيضاً .

روى أن الواثق أمر إسحق أن يصنع لحناً في شعر كان قد لحنه الواثق وغنى فيه غناءً أعجبه ، فغنى فيه إسحق في لحن جديد صاغه فلما سمعه الواثق قال : أفسد علينا إسحق ما كنا أعجبنا به من غنائنا .

أرأيت كيف كان التواضع في الفن حين خضع سلطان دولة الحكم لسلطان دولة الفن ؟ .. وهذا لا يعيب الخليفة ، بل هو نفس الدليل على سؤدده ورفعته وعلو قدره .

وعلى الرغم من أن إسحق ، قد جمع بين الثقافتين العربية والفارسية ، وبرغم أصله الفارسي ، فقد ظل حياته شديد التعصب لكل ما هو عربي قديم . بل إن نزعته هذه لم تقف عند حد الموسيقى وألحانها فحسب ، بل تجلت كذلك في شعره إذ تراه لم يعمد في قريضه إطلاقاً إلى الأساليب التي استحدثها الشعراء المولدون ولم ينهج نهجهم في الميل إلى الأوزان اليسيرة القصيرة . فهو لم يشبه أبانواس قط في مثل قوله :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

إنما كان إسحق متأثراً بشعراء الصدر الأول للإسلام  
في أساليب الشعر وأوزانه ومعانيه . بل إن ذوقه الموسيقي ليتجلى  
في ألفاظه خاصة ، فإنك لن تستطيع أن تستخرج لإسحق لفظة  
منكرة أو كلمة كرهية على السمع في عامة شعره .

وكان إسحق إذا غنى في مثل هذا الشعر الجيد سلب الألباب  
وسحر العقول . وفي ذلك يقول أمير المؤمنين الواصل بالله :

« ما غناني إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لي في ملكي ،  
وإن إسحق لنعمة من نعم الملك التي لم يحظ بمثلها ، ولو أن العمر  
والنشاط والشباب مما يشتري لا شترتيهن له بشرط ملكي . »

وهل يمكن أن يقال أباح من هذا القول في تكريم الموسيقى  
وأهلها !!!

وكان إسحق يتحلى بالشجاعة والفروسية ، ويجب أن ينسب  
إليهما ، وقد اشترك في بعض الحروب .

ولازمت إسحق روحه المرححة طول حياته ، فلما تقدمت به  
السن لم يمنعه الشيب عن ميله للطرب ووجهه للروح . وفي ذلك يقول :

لاح بالمفرق منك القتير      وذوى غصن الشباب النضير  
إن ترى شيباً علاني فإني      مع ذاك الشيب حلو مزير  
قد يفل السيف وهو جزار      ويصول الليث وهو عقير



وانك لتراه في هذا الشعر يعارض ويلج في معارضته أن الشيب  
يتعارض مع الظرف والكياسة . ثم يقارن هذه الحال بحال الأسد  
الذى يقوى على المصاولة وهو جريح . بل إنه لا يقف عند هذا  
الحد بل يتحدى الشباب فيقول ( قد يفل السيف وهو جزار )  
يشير بذلك إلى أن الشاب المكتمل الشباب قد يكون خائراً مشبط  
الهمة كالسيف المفلول .

وكانت وفاة إسحق ، وقد بلغ الثمانين من عمره ، في شهر  
رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين من الهجرة ( ٨٥٠ م ) . ولما  
نعى إلى المتوكل غمه ذلك وحزن عليه ، وقال « ذهب صدر عظيم  
من جمال الملك وبهائه وزينته » . ورثاه كثير من الشعراء بقصائد  
طويلة عامرة نفيسة .

## عريب

جارية من جوارى الفن ، بل هى الفنون كلها مجتمعة ، وكان  
القدر قد صنف منها كتاباً ضمن صحائفه صور الحياة الاجتماعية  
والثقافية فى دولة بنى العباس إبان عظمتها وارتقائها . ولو أتيح لنا  
فى حلقة واحدة أن نستعرض جملة من الجوارى تفردت كل منهن  
بناحية من نواحي الجمال والفن ، وكانت فيهن الشاعرة والكاتبة  
والخطاطة والمالمة والراوية الأدبية والعاظة البارعة والمغنية  
المطربة ، لكان جميعهن على اختلاف هذه المزايا والصفات أقل  
من أن يكن عوضاً عن عريب التى جمعت ذلك كله إلى جمال فاتن  
وروح تعبت بالقلوب وظرف يمتلك المشاعر وشخصية لها دوى  
يهز قصور الخلفاء ويأسر أصحابها خليفة بعد خليفة وعهداً بعد عهد...

هذه هى عريب التى أصبحت تسمى بشخصيتها من سبقها من  
أبطال تاريخ الموسيقى وبطلاتها فى عصر بنى أمية . وكان عزة  
الميلاء وجميلة وسلامة ومن فى طبقتن من الفنانات الفردات  
قد استعدن وجودهن ، أو امتدت حياتهن فى روح هذه الجارية  
التي كانت تبدو شخصيات متعددة فى شخصية واحدة ، أو أنها كانت

مثلاً أعلى لما ينبغي أن تتحلّى به جوارى الطبقة العليا ، إذا أغضينا  
عن ناحية ضعيفة في حياتها . إنما يعنينا من شأنها أنها بلغت القمة  
في الموسيقى فناً وعلماً ، وأداءً وغناءً ، فكان لها من مروياتها  
إحدى وعشرون ألف مقطوعة غنائية . ومن له كل هذه الثروة  
من الرواية فحري به أن يبدع ويبدع ...

واندع بين يديك صورة مجسمة في كلمات لمعاصر يصفها  
فيقول : « ما رأيت امرأة أضرب من عريب ، ولا أحسن صنعة  
ولا أحسن وجهاً ، ولا أخف روحاً ، ولا أحسن خطاباً ،  
ولا أسرع جواباً ، ولا ألب بالشطرنج والزردي ، ولا أجمع لخصلة  
حسنة لم أر مثلها في امرأة غيرها » .

ومع أن عريب ارتفع بها جدها بالباسم إلى هذا المرتقى الفني  
فقد كان لها خصوم يأخذون عليها الغناء الواهن المتخاذل ، غناء  
الأهازيج والمقطوعات ذات الطابع الرخيص . ويظهر أن ذلك  
المأخذ قديم ، طالما نشكون نحن منه في زماننا ، واشتكى منه الأولون  
قبلنا ، لأنه استغلال لجوهر الموسيقى والنزول به إلى أرخص  
المواطن . على أن ذلك لم يكن كل شأنها فللمغنى مقامات ترتفع فيها  
همته ويعلو جناحه ، وله في بعض الأحيان زلات وهنات هينات .  
فهذا هو بشار بن برد على جلالته قدره في الشعر يهبط في بعض  
الأحيان من ذلك المستوى الرفيع إلى مثل قوله :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وإسحق الموصلي الذي إن جاز له أن يعارض المغنين وينغص عليهم ففهم معترراً بأبيه في حضرة الخلفاء لم يخل أباه من النقد فجعل أعلى غناؤه في ثلث محموله ، أعنى مائتي أغنية هي التي نالت عنده الشأو البعيد والمقام الرفيع ، ومثابها متوسط ، وبقيتها صنعة تافهة يرى أن أباه كان خليقاً ألا يعزوها إلى فنه .

وإذا كان هذا شأن مثل إسحق مع أبيه إبراهيم ، أفلا تلتبس المعذرة لجارية غلب عليها الاستهتار في شطر كبير من حياتها !! وهي في مسؤوليتها أقل شأناً من غيرها !! على أنها مع هذا قد تفوقت بأغان لها مكاتبا وخطرها . وحسبها أن يأمر الخليفة المعتمد بجمع أغانيها التي ابتدعتها هي ثم يتناول الرواة نقل تلك الأصوات فإذا بها قرابة مائتين وألف ، وهو ضعف محصول إبراهيم الموصلي الذي تمتع في عصره بإمارة الفن وسلطانه .

وقد استهدفت عريب لنقد لم يكن الباعث عليه سوى حقد هي السبب في إثارتها ، في نفس عبد الله الهشامى ، فإنه كان يغنى للمتوكل فدعاه المعتز للغناء فقال : « إني تبت عن الغناء منذ قتل سيدى المتوكل » . فأطالت عريب لسانها وقالت : « أحسنت حيث تبت فإن غناءك كان قليل المعنى لا متقناً ولا صحيحاً ولا طريياً » .

فاضحكت المجلس جميعاً منه ، فحجل . فكان بعد ذلك يكيّل لها الصاع  
صاعين ويقول عن صنعتها هي ألف صوت في العدد ، وصوت  
واحد في المعنى ، ويلوّح بقول القائل :

يا عين بكّي خالداً      ألفاً ويدعي واحداً

وليس بمستغرب أن يكون ما عصف بها من رياح النقد كان  
مصدره الاستطالة منها ، واعتزازها بنفسها ، اعتزازاً لعله غض  
من منافسيها ومنافساتها فخلق لها خصوصاً جرّحوها في فنّها ، فإذا لم  
يكن لهم سبيل إلى ذلك ، عمدوا إليها هي فحشوها بأظفار حادة  
في نواح شخصيّة .

ولكن من هي عريب ، تلك التي شغلت أذهان الرواة  
والفنانين ردحاً من الدهر غير قليل ، وحلت من قصور الخلفاء  
حلول البدر المتنقل في منازلها ؟

قالوا إنها جارية لعبد الله بن إسماعيل . ولكن من أي سوق  
اشتراها ؟ أو بالأحرى من أي العروق تحدرت دماؤها ؟

لقد قالوا في ذلك قولاً له شأنه وخطره . فتحدثوا أن عريب  
قد واجهت الدنيا من نافذة عالية وقمة رفيعة ، وأنها بنت جعفر  
ابن يحيى ، أي أنها من خير بيوت الوزارة والسلطان . فأما فاطمة  
وصيفة عبد الله بن يحيى بن خالد البرمكي . فوله بها جعفر بن يحيى حين

رآها ثم أصبحت له زوجاً بعد قليل . وعز على أبيه يحيى أن يحدث  
هذا فأمره بأن يخلي سبيلها . ولم يكن أمامه غير الطاعة فتظاهر  
بإخراجها ، ثم أسكنها منزلاً عند باب الأنبار غير معروف ، في  
خفية من أبيه . وكان يتردد إليها فكانت عريب ثمره هذا الزواج .  
وزاد الأمر تعقيداً وخفاءً أن أمها واتها الأجل في حياة جعفر  
فدفعها إلى امرأة نصرانية مبالغة في إخفائها ، كانت هي مربيها بعد  
أمها . فلما وقعت الواقعة بالبرامكة وجرت عملية الاستئصال فيهم  
وفيمن يمت إليهم بقرابة أو صلة تخلصت تلك النصرانية من عريب  
فباعتها جارية . وما زالت من يد إلى يد حتى اشتراها عبد الله  
ابن اسماعيل على نحو ما بينا .

وكانت عريب ذات شبه ينم على أصلها هذا ويدل على أبيها .  
كما أن ثقافتها كانت تشف عن عراقة وعلو نسب . وكانت عريب  
تعرف نسبها من البرامكة وانتماءها إليهم وتعلم من الأب ومن العم ،  
وربما روت عنهم أشياء وهي تعزو نفسها وقرابتها إليهم . إلا أن  
الغموض الذي شاب حياتها وتاريخ ميلادها ، مع الظروف  
السياسية ، ومقامها في قصور الخلفاء ، كل ذلك جعلها قليلة  
الاكتراث بأمر هذا النسب الذي انهار سقفه ، وتضعض جداره  
وأصبح ضرره لمن يعتز به أكثر من نفعه .

وقد تلاطمت أمواج الحوادث بعريب وأخذت تلتقي بها من  
مطارح متباينة كتبين الرواة فيها . ومهما يكن من قول فإن عريب  
فيما يبدو لنا كانت فنانة النزعة ، من الصعب أن يحكم عليها رتاج  
القفص خلف السجف والحجب . وقد آل أمرها أخيراً إلى الأمين  
في أول خلافته ، حتى إذا قتل عادت إلى سيدها الأول . وبعد  
سكون الفن واستواء المأمون على أوج خلافته كانت عريب  
في الطليعة . وجرت عليها الأفضية والأحداث . ثم آلت إليه  
أخيراً فحلت من قلبه محل قلبه ، هيأماً بها وميلاً إليها . ثم كانت  
بعد وفاته في تركته فاشتراها المعتصم بمائة ألف درهم وأعتقها ،  
فكان له ولاؤها .

وهذه الحرية والانطلاق لازماها في نفسها وفي فنها وفي غنائها .  
وأكثر ما علمناه من المغنين اختصارهم في الطرب على العاطفة  
المشوبة الثائرة ، وعلى الوجد والهيام ، والحب والعشق .  
أما عريب فلم تقف بهذه العاطفة في تلك الحدود الضيقة بين  
رسم وظل ، ومعشوق وعذول ، وهاجر ووصول ،  
بل توسعت في موضوعها وتجاوزت بها المنطقة الفردية إلى فضاء  
الإنسانية الرحب . وهي حين تريد أن تهدف إلى هذه الغاية عامدة  
أو مرتجلة لا يكون شاعرها الملهم أبو نواس أو بشار ولكنها  
تلتسمه عند أي العتاهية الشاعر الإنساني الذي يجعل الحقيقة هدفه  
والحكمة مقصده .

زارها مرة علويه المغنى فحفظ منها بيتين وأحسن روايتهما وأداء  
لحهما ، ثم حضر إلى المأمون ومشى إليه في رقص وتصفيق  
وهو يغنى :

عذيرى من الإنسان لا إن جفوته  
صفالى ولا إن كنت طوع يديه  
وإنى لمشتاق إلى قرب صاحب  
يروق ويصفو إن كدرت عليه

فسمع الخليفة من هذا اللحن مالم يسمع مثله من قبل وسحرم  
ما فيه من روعة وبراعة ، فاستعادوه سبع مرات . ثم تأثر الخليفة  
بذلك الصاحب الذى ينشده أبو العتاهية فى البيت الثانى ، ذلك  
الصاحب الذى لاغيره البأساء ولا تميل به السراء . فقال لعلويه  
بعد أن غناه للمرة السابعة : خذ الخلاقة واعطنى هذا الصاحب .

ولا عجب أن تصوغ عريب فى لحنها ما يهز مشاعر المأمون  
إلى استعادته سبع مرات . ولكن ما الذى أثار فيه تلك الهزة  
العجيبة والشوق المجهول إلى الصاحب المنشود ؟ ألم يكن قد سمع  
هو ولا أحد من جلسائه هذا الشعر من أبى العتاهية أو من روى  
عنه ؟ ... لعل ذلك قد كان . ولعله سمعه المرة بعد المرة . أما مصدر  
تلك الهزة العنيفة الجديدة اليوم فهى الموسيقى التى كانت ثوباً طريفاً  
وحلية مرصعة أظهرت ما فى هذا الشعر من جمال . وكذلك تقوم



الموسيقى بدور المفسر العاطفي لا اللغوي ، فتظهر من خبايا الشعر  
ما تعجز عنه المعاجم والقواميس .

وتلك التي كانت تلحن وهي لما تتجاوز أربعة عشر عاما من  
سنها ليس بمستغرب عليها أن تلحن لأبي العتاهية في الحكم ،  
ولا أن تعقد بينها وبين الوراق مباراة في التلحين فتقف له بالمرصاد  
عند كل بيت يلحنه فتجدد تلحينه بما يفوق مقدرته . وليس  
في ذلك من بأس على الوراق ، فهو في هوايته كإبراهيم بن المهدي  
وهي في صناعتها واحترافها كإسحق . ومن تلك الأصوات  
التي تبارت فيها عريب والوراق :

لم آت عامدة ذنباً إليك بلي      أقر بالذنب فاعف اليوم عن زلي  
فالصفح من سيد أولى لمعتذر      وقاك ربك يوم الخوف والوجل  
وكذلك :

أشكو إلى الله ما ألقى من الكمد      حسبي بربي ولا أشكو إلى أحد  
أين الزمان الذي قد كنت ناعمة      في ظله بدنوي منك ياسندي  
وعريب التي تتوج شعرها من المسك بما يقوّم حانوت عطار  
كانت في كل شيء متطرفة . . . في هذا الذي سمعت الآن ، وفي  
ابتكارها حين تتبكر ، وفي صداقتها حين تصادق ، وفي خصومتها  
حين تناضل ولو كان الخليفة أو عامل الخليفة .

ولقد تلذغها العقرب وهي تغنى فيمنعها تطرفها هذا أن تخضع  
لقانون الطبيعة ، وقد اجتمع عليها لدغ العقرب ومس الحمى  
في حضرة المأمون ، فما لانت ولا استكانت بل مضت في الأغنية  
حتى نهايتها ، وهي في نشوتها الفنية قد نسيت نفسها وما يصيب  
جسمها ، ولعلها لم تشعر بنفسها حين سقطت مغشياً عليها بعد  
انقضاء أغنياتها .

ثم يذهب بها التطرف في الابتكار فتجيب عن الشعر بالشعر ،  
وعن الغناء بالغناء ، فإذا بها من كل ذلك في موضع السحر  
والدهشة وحيرة السامع .

اجتمع لديها بعض المغنين وأخبروها بأغنية لبنان المغنى بحضرة  
الخليفة فاستدعته تحت هطول الأمطار واستعادته ماغنى ، وأجابت  
معارضة بالمثل . قال بنان :

تجافى	ثم	تنطبق	جفون	حشوها	الأرق
وذى	(١)	كلف	بكى	جزعا	وسفر
به	قلق	يملله	وكان	وما	به
جوانحه	على	خطر	بنار	الشوق	تحترق

فارتجلت عريب على البديهة :

(١) الواو واو رب والتقدير رب ذى كلف .

أجاب الوايل الغدق      وصاح النرجس الغرق  
وقد غنى بنان لنا      جفون حشوها الأرق  
فبات الكأس مترعة      كأن حبابها حدق

فكانت أبياتها موضع السحر والطرب بقية يومهم .

وكانت عريب شاعرة مغنية حتى في نثرها وتعبيرها الجارى  
على اللسان طوعاً دون إعداد . فها هو المأمون وقد عاد إليها بعد  
فراق يسألها فيقول : كيف وجدت طعم الهجر ؟ فتجيبه : يا أمير  
المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ومن ذم بدء  
الغضب حمد عاقبة الرضا . فتحدث المأمون إلى جلسائه عنها حديثاً  
يعد شهادة بمقامها في الأدب فيقول : أتري هذا لو كان من كلام  
النظام ألم يكن كبيراً . وفي هذا المعنى تقول أيضاً :

وتخلط الهجر بالوصال ولا يدخل في الصلح بيتنا أحد

وكذلك شاء القدر أن تطول حياة عريب ، وأن تشاهد  
العصر العباسي منذ أوج عظمته إلى بداية انحطاطه حيث كانت  
وفاتها حوالى عام ٢٢٦ هـ ( ٨٤١ م ) . وهى فى كل ذلك صورة  
من الفن السافر الذى لا يبالى أين تلقى به الرياح . فهى وراء الجمال  
كقاصّة الأثر ، وهى فى إثر الفن أينما وجدت إليه السبيل ، ترويه  
عن غيرها أو تبكره ، ترسله أحياناً شعراً وتارة نثراً . وتطاوعها

قدرة عجيبة . ولا يعنينا حين ترسل فنحن حراً طليقاً أن يعجب الناس  
به أو ينقدوه ، فهي قد أرضت هوايتها .

وفوق ذلك تبدو لنا عريب في صورة بعض الفنانين في عصرنا  
من امتازوا في سرعة البديهة وحضور الجواب بما يخبئ أمل المتكلم  
في انتصاره . ومن العجيب أن يكون ذلك في عصر لا يُعرف فيه  
الكثيرون من أمثالها على هذا النحو من القدرة والتفوق .

ولو أردنا أن ننقب عن مثال القينة المستكملة لجميع شرائط  
النبوغ ، المعبرة في حياتها أصدق تعبير عن عصرها وفنها تعبيراً  
يجد فيه التاريخ صحيفة وافية الموضوع عن ذلك العصر ومدنيته، فإن  
تلك القينة المثالية في ثقافتها وفنها وأدبها هي عريب .

## الكندى

هو أبو يوسف يعقوب الكندى . ووالده إسحق أمير الكوفة الذى استمرت إمارته بها فى عهد ثلاثة من خلفاء الدولة العباسية المهدي والهادى والرشيد . وقد تحدر من الأصول الرفيعة فى البيوتات العربية . وجده الأشعث بن قيس صحابى جليل . وبقية أجداده ملوك فى الجاهلية وأمراء فى الإسلام .

وانتقل الكندى إلى بغداد فتى قد شب فى أحضان العلوم والفنون ، والدولة فى أوج مجدها وفى مشرق ثقافتها . وقد تعلم الحساب والرياضيات والطبيعات ، وأجاد معرفة الطب والمنطق والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك . وأحاط بالثقافتين اليونانية والفارسية . واستقى من موارد الحكمة الهندية . وقد أجاد تعلم اليونانية حتى تخيره المأمون بين كبار حكماء العرب الذين قاموا بترجمة المكتبة اليونانية وما اشتملت عليه من علوم وفنون . وقد عدّ الكندى فى صدر أربعة هم حذاق الترجمة وحملة لوائها .

وكان الكندى أول نجم لمع فى سفر التاريخ الفلسفى فى الأمة العربية . ولم يتقدمه اسم قبله من هذه السلالة . ولم نعرف أحداً

سبقه إلى مزاوله هذه الصناعات منذ ظهرت الدولة الإسلامية .  
وإذا كان الفارابي والرئيس ابن سينا وغيرهما قد أشرقت سمعهم  
وحلقت شهرتهم وزاد حظهم من المعرفة فقد كان ذلك بحكم التطور .  
ولكن للبداية قدرها والفضل للمتقدم .

وقد كاد تاريخ الثقافة العربية يطبق سجله وإجماعه على شهرة  
الكندي من ناحية الفلسفة وحدها . ولعل كثيراً من أهل العلم  
والآداب اختلفت عليهم العصور وهم لا يتعدون بالكندي حدود  
مملكة العلوم العقلية البحتة . وقد تذبذبت تاريخ الموسيقى في العهد الأخير  
إلى هذا العمق فألقى عليه أضواء البحث والتنقيب والدراسة ،  
فبعث من شخصيته ما كان مجهولاً ونشر من تراثه ما كان مطويماً ،  
ليتقدم به مرة أخرى إلى الدنيا لا كعالم من علماء الموسيقى فحسب  
بل كأقدم كاتب عربي وصلت إلينا مؤلفاته في هذه الصناعة . ولئن  
تناقل الرواة أسبقية بعض علماء العرب للكندي في هذا المضمار  
أمثال يونس الكاتب والخليل بن أحمد وغيرهما ممن تقدموه فإنه  
لم يصل إلينا أى أثر من مؤلفات أولئك إطلاقاً ، كما خلت دور  
الكتب في جميع الممالك من وجود أى مصنف من مصنفاتهم الموسيقية .  
وللكندي كتب كثيرة في الموسيقى عرف التاريخ منها سبعة  
وبقى منها في دور الكتب العامة رسالتان مقطوع بنسبتهما إليه ،  
إحداهما مخطوطة معنونة باسم « رسالة في خبر تأليف الألبان » .  
مخطوطة بدار الكتب بأكسفورد تحت رقم ٢٣٦١ . أما الأخرى

فهى التى تسمى « رسالة فى أجزاء خبرية فى الموسيقى » وهى  
محفظة بدار الكتب العامة ببرلين تحت رقم ١٢٤٠ (١) .

أما الرسالة الأولى فقد عالج الكندى فيها علم التأليف وطبيعة  
الأصوات وتركيب النغمات مع تطبيق ذلك على آلة العود .

ويصف الكندى السلم الموسيقى العربى مشتملا على اثنتى عشرة  
نغمة . إذن فهو مطابق لما نعرفه فى العصر الحديث بالسلم الملون

(الكروماتى) وهو السلم ذو أنصاف الأبعاد الطينية . وكان يطلق  
على هذه النغمات أسماء الحروف الأبجدية العربية حسب ترتيبها .

فالنغمة الأولى وهى نغمة مطلق الوتر الأول يرمز إليها بالحرف  
« ا » والثانية بالحرف « ب » والثالثة بالحرف « ح » والرابعة

بالحرف « د » وهكذا . . . والعود عنده ذو خمسة أوتار ،  
هى من الغاظ إلى الحدة على الترتيب : البم فالملث فالمنى فالزير

الأول فالزير الثانى (٢) . ويختص كل وتر بستة أصوات يكون أولها  
مطلق الوتر . وتستخرج الأصوات الباقية بالعفق عليه بواسطة

الأصابع الأربع : السبابة والوسطى والبنصر والخنصر .

ونغمة الخنصر فى كل وتر تكون على بعد ذى الأربع  
من مطلقه ، وهى نفس نغمة مطلق الوتر الذى يليه . وعلى ذلك

---

(١) وقد منحت المقادير مؤلف هذا الكتاب حظاً تاريخياً إذ قام للموسيقى  
ودراستها بنشر هاتين الرسالتين بعد تصحيحهما وشرحهما والتعليق عليهما ثم  
نشرهما مترجمتين إلى الألمانية .

(٢) الوتر الخامس فى العود لم تعرفه العرب فى ذلك الوقت إلا من الناحية النظرية  
فحسب ، وظل العود من الناحية العملية ذا أربعة أوتار حتى عهد زرياب .

تنتهى نغمات الديوان الأول بالحرف الأبجدي «ل» على الوتر الأوسط حيث يبدأ بعدها الديوان الثاني بالحرف الأبجدي «ا». وتتكرر النغمات في الديوان الثاني على نفس ترتيب الديوان الأول وبمسمياته. وتنتهى نغمات هذا الديوان الثاني بالحرف الأبجدي «ل» على الوتر الخامس (الزير الثاني) حيث تبدأ نغمات الديوان الثالث. وفيما يلي جدول يبين أسماء أوتار العود وتوزيع النغمات عليها كما ورد في تلك الرسالة المشار إليها (١).

الزير الثاني	الزير الأول	المشئ	المثلث	الهم
ط	د	ك	و	ا
ى	هـ	ل	ز	ب
ك	و	ا	ح	ج
ل	ز	ب	ط	د
ا	ح	ج	ى	هـ
ب	ط	د	ك	و
ج				

(١) ويتضح من هذا الجدول أن المتقدمين من العرب كانوا يستعملون الوتر الأول (الغليظ) كما يستعملون بقية الأوتار الأخرى، ويجرون عليه ما يجرونه عليها من الإطلاق والعفق، بينما لا يستعمل هذا الوتر في العود في العصر الحاضر إلا مطلقاً من غير عفق.



وما هو جدير بالذكر أن الاثنتي عشرة نغمة المشتمل عليها الديوان العربي على نحو ما يصفه الكندي ، متفقه في مقاديرها مع نسب أبعاد سلم « فيثاغورس » الذي أساسه دوائر الخامسة تتكرر اثنتي عشرة مرة ، وتكون آخر نغمة تنتهي إليها هذه الدوائر الاثنتي عشرة هي الجواب السابع للنغمة الأولى التي ابتدئ بها مع فارق بسيط جداً يساوي الفرق بين  $(\frac{2}{3})$  و  $(\frac{1}{4})$  وهو ما يسمى « كوما فيثاغورس » وقيمتها  $\frac{7}{36}$  تقريباً .

ولعل من المهم أن يعلم القارئ كيف كان الكندي وأقرانه ، من علماء العرب المتقدمين ، يعبرون عن أبعاد درجات السلم وعن النسب العددية بين الأصوات . وإنا نسوق على سبيل المثال ما يقوله الكندي في بداية رسالته ( في خبر تأليف الألحان ) التي سبقت الاشادة إليها وهو :

« و ك إلى ا كله و ثمن كله . وقد بينا أن فضل الذي بالخمسة على الذي بالأربعة كل و ثمن كل ... » (١) .

(١) وقد تبين في الجدول المتقدم الذي أوضحنا فيه مواضع الأصوات من أوتار العود الخمسة أن ك رمز لصوت مطلق وتر المثنى وأن ا هو صوت إصبع السبابة على هذا الوتر وإذن فالبعد بين الصوتين ك ا هو حسب اصطلاحنا بعد طنيني ، ويعبر عنه الكندي أنه يساوي كله و ثمن كله ( أى أنه إذا خرجت ك من مطلق الوتر الذي يبلغ طوله ٩٠ سنتيمتراً مثلاً فإن الصوت ا يخرج من بعد ٨٠ سنتيمتراً من هذا الوتر . وإذن يكون طول الوتر الذي أخرج الصوت ك =  $1 + \frac{1}{8}$  طول الوتر الذي أخرج النغمة الثانية وتكون ك : ا = كله و ثمن كله ) . وعلى هذا النحو فإن مسافة الخامسة تزيد على مسافة الرابعة ببعد طنيني . ويعبر الكندي عن ذلك بقوله « إن فضل الذي بالخمسة على الذي بالأربعة كل و ثمن كل » .

أما المخطوطة الثانية من رسالتي الكندي ، فهي بحث طريف شيق لم يقتصر الشأن فيه على معالجة الموسيقى من ناحيتها الفنية وحدها بل تناول بحوثاً ضافية رائعة ، تعد في أكثر مسائلها من بحوث العصر الحديث وإن كان صاحبها قد تقدم هذا الزمن بأكثر من ألف عام .

وفي مقالات هذه الرسالة وبين ثنايا فصولها العديدة ندخل على الموسيقى من عالم جديد لم يكن معروفاً من قبل ، ولعله لم يعرف إلا حين استيقظ العلم إلى التحليل الجديد في القرن العشرين أو قبله .  
وهما نحن نرى الموسيقى في تلك الرسالة مشرفة على جميع نواحي الحياة غير مقصورة على اللحن والإيقاع ولا على النفخ والعزف ولا على ما يتطرق إلى مداخل النفس من طريق الحاسة السمعية ، بل يتخطى الكندي بالموسيقى مسافة السمع القصيرة ، فيخرج من الألحان ، إلى الألوان ، ويقفنا على طبيعة كل لون وتأثيره في النفس . ويضع بينها النظائر والأشبه والأقيسة مقترنة بنتائجها التي تنتهي إليها . فالألوان كالألحان تعبر عن المعاني النفسية والقوى الحيوية وتدل عليها وتؤدي إليها .

ولم تكون الألوان والألحان هي المسيطرة وحدها على تلك القوى المنبهة للملكات والسجاياء!! فهذه هي العطور أيضاً: إنها موسيقى صامتة . وهي في مملكة الأرايح لها أثرها وخطرهما . فهذه زهرة

تثير النخوة ، وتلك أخرى تهيج بعيرها لواعج الشوق ، وثالثة  
تحمل في عطرها العُجب والكبر . وهي جميعاً فيما تنبه من القوى  
كالألحان والألوان .

ولكن ثمت مرحلة أخرى هي الحاسة الذوقية من الألفاظ  
المنطقية المستمدة من العقل وهو أشرف المخلوقات .

والكندى بعد ذلك لا يترك شيئاً ، حتى حاسة اللمس ،  
وإن كان لا يفردا يبحث خاص لأنها — على حد تعبيره —  
تشارك مع غيرها في أكثر حالاتها .

وإذا كنا ننشد تقديم الكندي موسيقياً لمن لم يعرفه كذلك  
فقد كشف لنا في مصنفاه تلك أنه شيء آخر حتى في الموسيقى .  
فقد فلسفها وسماها ونشر منها أشعة وأضواءً على جميع الأشياء .  
ولم يجعلها مقصورة على حاسة واحدة . وكأني به قد قسم الموسيقى  
إلى نوعين موسيقى معزوفة مسموعة مرتلة ، وأخرى تنظرها العين  
وتعطر بها الحياة ويستمتع بها العقل فكراً وشعراً ومنطقاً .

فإذا شعر الكندي بأننا قد بدأنا نسام في مصنفة جديدة البحث  
الدمى راح يرفه عنا بفصل تمتع من نوادر الموسيقى الفلسفية  
أو الفاسفة الموسيقية .

ولعل من الخير أن نختم حديثنا عن الكندي بجمل من ختام  
رسالته قال :

« الغناء فضيلة شريفة تعذرت على المنطق في قدرته ولم يقو على إخراجها فأخرجتها النفس لحناً، فلما ظهرت سرت بها وطربت إليها. فاسمعوا من النفس وناجوها وراعوا مناجاة الطبيعة والتأمل لها . ومن ذلك أيضاً قوله :

« فضل الموسيقى يأتلف مع كل آلة كالرجل الأديب المؤتلف مع كل بشر » .

وكذلك ما حدث به الكندي رواية على سبيل التندر قال :  
« خرج بعض الفلاسفة مع تلميذ له فسمع صوت القيثارة فقال للتلميذ امض بنا إلى هذا القيثاري لعله يفيدنا صورة شريفة . فلما قربا منه سمعا صوتاً رديئاً وتأليفاً غير متفق . فقال لتلميذه : زعم أهل الكهانة والزجر أن صوت البومة يدل على موت إنسان . فإن كان ذلك حقاً فصوت هذا يدل على موت البومة » .  
لقد عاش الكندي بين ترف المال وترف العلم ، ينهل الثقافات من جميع مواردها الممكنة ، حتى أهاجت عليه عبقريته الخصوم والحساد وخلقت منه فيلسوفاً متشائماً ، ضيق الصدر ، يأنس بالوحدة وينشد الخير في العزلة ، ويرى الظلم والوحشة في أقربائه الأدين حتى في شقيقه وعمه وخاله ، والمرء عادة يلتمس السعادة بين هؤلاء . ولكن حياة الكندي لم تعد تحتل . فهو يضمّن وصاياه أن « الأخ فح ، والعم غم ، والخال وبال ، والولد كمد ، والأقارب عقارب » .

وقد رأى بعينه تطاول الجهلة والحمقى وتمتعهم بعلمها المكانات ،  
حين يجوع أهل الحكمة والمعرفة فراح يقول :

أناف الذنابي على الأروُس      فغمض جفونك أو نكس  
وضائل سوادك واقبض يديك      وفي عقر بيتك فاستجلس  
وعند مليكك فابغ العُد      سو وبالوحدة اليوم فاستأنس  
فإن الغنى في قلوب الرجال      وإن التعزز بالأنفس  
وكائن<sup>(١)</sup> ترى من أخى عسرة      غنى وذى ثروة مفلس  
ومن قائم شخصه ميت      على أنه بعد لم ير مس  
فإن تطعم النفس ما تشتهي      تقيك جميع الذى تحتسى

وكانت وفاة الكندي عام ٢٦٠ هـ ( ٨٧٤ م )

\*\*\*

ولعلنا استطعنا في هذه الإمامة القصيرة أن نضع أيدينا على حياة  
الكندي الفيلسوف والطبيب والفلكي والرياضي ، ثم وصلنا  
رحلتنا فتعرفنا إلى الكندي الفيلسوف في الموسيقى والموسيقى  
في الفلسفة ، حتى أتبع لنا أن نعرف وجهته النفسية أيضاً حين  
هو فيلسوف ناثر وموسيقى شاعر .

(١) كائن لغة في كآين .

## الفارابي

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بلده وسيج من مقاطعة فاراب بخراسان . عمر ثمانين عاماً ، حيث كان مولده في عام ٢٦٠ هجرية ( ٨٧٤ م ) ووفاته ٣٣٩ هجرية ( ٩٥٠ م ) .

كان والده من قواد الجيش ، فلما بدت على ولده مخايل النجابة في صباه اقتضت حاجة مواهبه العالية ، أن يغادر مسقط رأسه إلى بغداد ، وكانت قبلة الحضارة والنور ، ومركز الثقافة والعلم في العصر العباسي . فلما أتم بها دراسته وتحصيله التحق بحاشية الأمير سيف الدولة من بني حمدان ، أمير حلب ، على إثر حادثة تناولها القصاص والمؤرخون في أسلوب نسجوا له حللا طلية من الخيال يصور بحق عبقرية هذا الفيلسوف . على أنه لم يتقرب للأمير بادية الأمر بفلسفته وحكمته ، بل كانت الموسيقى هي رسوله وشفيعه إلى قلب سيف الدولة حين دخل عليه وجلس إلى جانبه دون تهيّب أو تردد ، حتى إذا أصلح أوتاره هز أوتار القلوب ولعب بمهج الحاضرين ، حتى أضحكهم وأبكاهم وأذهلهم عن أنفسهم . فدل بذلك على أصالته في الموسيقى وعراقته

في التصرف بفنونها وألوانها. وكان سيف الدولة مجدوداً في التاريخ  
فقلما أتبح لأمير أو خليفة أن يحظى بشاعر مثله كالمثنبي وفيلسوف  
كالفارابي الذي صحب الأمير إلى دمشق، فأقام في حاشيته مدة ثم مال  
إلى الوحدة والافتراد واعتزل المجتمع وعاش عيش الحكماء إلى وفاته.  
وقد حدثوا أنه بعد وفاة سيف الدولة، تزيى الفارابي بزى  
المتصوفة ورثاه على قبره وقام في مجموعة من أصحابه بصلاة الجنازة  
عليه. كما يزعم البعض أنه قدم إلى مصر قبل وفاته بعام وإن كان  
ذلك لم يثبت تاريخياً.

كان الفارابي صافي الروح طاهر النفس، متزهداً في دنياه،  
متحلياً بالقناعة والرضى، مكثفياً بالكفاف من العيش، يسير  
على نهج من تقدمه من الحكماء. كما كان دائم التأمل والتفكير يقطع  
زمانه باستيعاب المذاهب الفلسفية، قديمها وحديثها. ولا أدل  
على قناعته من اكتفائه بأربعة دراهم يتقاضاها من سيف الدولة  
ليقتات منها بالضرورة في يومه وليلته. ولم تدع الفلسفة  
والدراسات له من الوقت ما يعنى فيه بحسن منظره وهيئته،  
وهو الرجل الذي بلغ به الأمر في القناعة والقصد أن يقرأ كتبه  
على ضوء مصابيح الحراس في ظلام الليل الداجي. وحق هذا الذي  
قيل إن الفارابي قد عاش في دولة العقل ملكا وفي العالم المادى مملوكا.  
وقد كان الفارابي في طموحه وآماله الكبار، كبقية أعلام  
النبوغ والعبقرية لا يقنع منذ صباه بأستاذ واحد، بل لقد تلمذ

على الكثيرين من علماء وفلاسفة وفنانين فجال في الحكمة ، وصال  
في الرياضة ، وأمعن في الطب ، وافتن في الموسيقى ، وبرع في اللغات  
حتى اشتهر عنه علمه بجميع لغات الدنيا — وما كان ذلك لأحد  
ولا يمكن أن يكون — ولكن المؤكد المعروف أنه عرف العربية  
لغة الدين والأدب ، والفارسية لغة الفن والموسيقى والتركية لغة  
العشيرة والقبيلة واليونانية لغة الفلسفة والحكمة ، وبحسبه أن تؤكد  
له المعرفة بهذه اللغات وما فيها من ذخائر وكنوز .

وكان صاحب مذهب خاص أسماه من بعده بفلسفة الفارابي ،  
وهو مع ذلك جم التواضع حين يسأل عن الموازنة بينه وبين  
أرسطو فيقول : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه . ثم يبلغ به  
حب العلم أن يقول : قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة ، وأرى  
أنى محتاج إلى معاودته . وإن كنت أرى أن مجهوده العلمي يتجه  
في الأكثر إلى ضبط كتب أرسطو ، وتخليص فلسفته بما جعل  
مذهبه فيها مدرسة تأثرت بها اللغات قديمها وحديثها عند ترجمتها إليها .

ولم تبق من مؤلفاته الكثيرة سوى اثني عشر كتاباً في مختلف  
العلوم والفنون متفرقة ، في مكاتب أوروبا . ولما كان الفارابي  
من أقطاب الفلسفة في الشرق خاصة ، وفي العالم كافة ، فقد توارى  
جانبه الموسيقى عن الأنظار والأسماع ، عند كثير من الناس .  
وقد يرجع ذلك في الأهم إلى أن أثره في الفلسفة كان من الذبوع



والشهرة بحيث طغى على الجانب الفني من حياته . وقد يرجع السبب أيضاً إلى أن البحوث العلمية التي عالجها في الموسيقى لم تكن من البساطة واليسر بحيث تقرب ألى أفهام جماهير الناس ممن يعينهم من الموسيقى مجرد الطرب والأداء . وقد وجد الفارابي الفيلسوف ما لم يجده الفارابي الموسيقى ، فهو حين نشر فلسفته ومذهبه فيها كان له تلامذة أوفياء ، يحرصون على الدراسة والبحث والنقل . وهو حين ألف في الموسيقى وابتكر في علومها لم يجد مثل أولئك كثرة ووفرة في مثل عصره الذي عاش فيه . يشهد لثروته الفنية مؤلفاته الموسيقية ، فمن هذه المؤلفات « كتاب الموسيقى الكبير » و « كلام في الموسيقى » و « كتاب في إحصاء الإيقاع » وغيرها من المؤلفات الموسيقية ، إلا أنها فقدت جميعاً ، ولم يبق منها إلا الكتاب الأول ، وهو سفر جليل ضخم حوى أسرار هذه الصناعة من ناحيتها العلمية والفنية . ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ واحدة منها في ميلانو بإيطاليا ، والثانية في مدريد بأسبانيا ، والثالثة في ليدن بهولندا (١) .

(١) وقد خص عن هذا الكتاب باللغة الألمانية العلامة « كوزاجارتن » في نهاية القرن الماضي وإن كانت تعليقاته لم تخل من خطأ عرضنا له تفصيلاً في كتابنا عن ابن سينا الذي نشر باللغة الألمانية . وقد قام في السنوات الأخيرة بترجمة كتاب الفارابي هذا إلى اللغة الفرنسية وشرحه والتعليق عليه العلامة المستشرق المرحوم البارون دي أرلنجيه الذي كان مقيماً في تونس وتوفي بها عام ١٩٣٢ . وقد آتم الترجمة في جزأين ظهر أولهما قبيل وفاته وظهر الثاني بعدها .

وللفارابي « كتاب في إحصاء العلوم » عرض فيه أيضاً  
للموسيقى ، وقد ترجم إلى اللاتينية (١) .

وإنه ليقين من مؤلفات الفارابي في الموسيقى عظيم شغفه بهذا  
الفن ، وواسع اطلاعه فيه ، وتفنته في دراسة فنونه وعلومه .  
ولم يكتف الفارابي في ذلك بتصنيف الكتب بل ابتكر في الآلات  
الموسيقية . روى ابى أبى أصيبعة أن الفارابي صنع آلة إذا وقع  
عليها أحدث انفعالا في النفس فيضحك السامع ويبكيه ويستخفه  
ويستنفره . وقال بعضهم إنها شديدة بآلة القانون المعروفة لعهدنا  
هذا أو هي القانون بذاته .

ولقد ذكر الفارابي في مقدمة كتابه أنه استنبط طريقة خصيصة  
به ولم يقلد أحداً . والحقيقة أنه بز في مؤلفاته الموسيقية جميع  
معاصريه ومن تقدم من أهل هذا الفن ، فجاءت — وبخاصة كتاب  
الموسيقى الكبير — شاملة وافية مستوعبة لجميع نواحي هذا الفن  
من ناحية طبيعة الأصوات وتوافقها وأنواع الأنغام والأوزان  
والآلات الموسيقية المختلفة ، إلى غير ذلك مما يتصل بهذه الصناعة  
وعملها بما ينهض شاهداً على ما وصل إليه فيض عمله بالموسيقى  
وإتقانه إياها إتقاناً لا مزيد عليه .

ومن كان له مثل هذا الاطلاع على الفلسفة والحكمة والآداب  
في اللغات المختلفة خليق به أن يبلغ هذا الأوج الرفيع البعيد المدى  
وقد بلغه الفارابي حين أضاف إلى فلسفة الحكمة فلسفة الموسيقى .

---

(١) وأخرج الدكتور هنري فارمر حديثاً باللغة الانجليزية القسم الخاص بالموسيقى  
من هذا الكتاب ترجمة وتعليقاً .

## ابن سينا

هو الشيخ الرئيس الوزير الطبيب الفيلسوف الموسيقار أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا . كان والده من بلخ ثم تخير أن يعيش في بخارى ، وقد عينه نوح بن منصور الساماني والياً بإحدى حواضر هذا الإقليم . ومن قرية قريبة منها وهي افشنا تزوج عبد الله فأنجب علياً . وكان مولده في شهر صفر عام ٣٧٠ هـ ( أغسطس سنة ٩٨٠ م ) . وقد أولاه أبوه عناية وافرة . ولم يدخر وسعاً في تقويمه وإحسان تربيته ، سيما وقد عاد إلى بخارى ولما يزل الطفل في سنواته المبكرة . وبخارى بحكم مركزها العلمي جديرة بأن تكون حقلاً خصيباً لإنماء تلك العبقرية العالمية المنتظرة .

وقد أتم ابن سينا استظهار القرآن ، وما زال في العاشرة من سنه ، وألم بمقدار كبير من ثقافة عصره ، من العلوم الشرعية والعربية ، وحفظ من نحوها وأدبها ما جعل الناس يرون فيه المعجزة التي تحدت السن والطاقة البشرية . وما زال به الجهد والتحصيل وهو صبي حتى بز أعلام عصره ، وفاق أساتذته ، وأكب على مناهل الرياضيات والمنطق ، وعلم الكلام والفلسفة .

أقبل على دراسة الطب فكان الطبيب النطاسي الماهر ولما يتجاوز  
السادسة عشرة من فجر شبابه .

وقد واثته الأقدار بفرصة عجيبة ، وذلك أن الأمير نوحاً  
ابن منصور اعتل وحر الأطباء في معالجته . ولما انتهى الأمر  
إلى ابن سينا ، الطبيب الفتي ، كان عنده الدواء المرجو والشفاء  
المنشود . ولما عوفي أمير الملك علي يد أمير الطب أجزل له العطاء  
وأباحه خزانة كتبه ، ففتح له بذلك الكنز العامر بأعلى ما أنتجه  
العقل البشري في تلك العصور . فأقبل عليها ابن سينا إقبال النهم ،  
وأفاد منها فرصة ما كان له إليها من سبيل لولا أن الأقدار هيأتها  
له وللعالم الذي اجتتى ثمار عبقريته فيما بعد .

ومات والده وهو في الثانية والعشرين ، فرحل عن بخارى ،  
وتنقل في مواطن عديدة كجرجان وخراسان وداغستان وغيرها  
من المدن الواقعة على مقربة من بحر قزوين . ثم استقر به المقام  
في جرجان حيث ألقى بها الدروس والتف حوله الطلاب ، وبدأ  
وضع كتابه القانون في الطب ، وهو المرجع الذي أكسبه الشهرة  
العالمية وجعله أحد أطباء التاريخ ، فقد بقي كتابه هذا أساس الدراسات  
الطبية ، في الأقطار العربية وممالك أوربا أحقاباً وقرناً متطاولة .  
وقد استوزره شمس الدولة أمير همذان ، ولم يخل في ذلك  
من المحن والكوارث التي كادت تعصف به فقد أسره الجند وأرادوا

قتله، ولم ينجح منهم سوى الأمير الذي احتفظ به ليقوم على معالجته  
من داء عياء . و في ظل ذلك العهد بدأ كتابه العظيم وأثره العالمي  
الخالد وهو مصنفه « الشفاء » .

وكانت حياته العلمية مدرسة تعليم ، ثم ندوة سمر ، تبدأ بالفلسفة  
والطب ، حتى إذا ملت العقول وسئمت الأفهام بدأ الدور الفني  
كل ليلة يحوّل تلك السامة العقلية إلى مرح وطرب وموسيقى وغناء ،  
حيث يتقدم العازفون ويقبل المخنون . ومن ثم تبدأ تلك الثورات  
الفكرية والمذاهب الفلسفية لتحل محلها الأغاني الروحية والألحان  
الموسيقية الساحرة .

\*\*\*

ولئن عرف الناس أن ابن سينا كان عالماً من أعلام زمانه  
في جميع العلوم : في الدين ، والفقه ، وفي اللغة ، والفلسفة ،  
والرياضيات ، والمنطق والأدب ، وعلم النفس ، وأن الطب لم يكن  
غير ناحية من نواحي عبقريته الفذة فإن قليلاً من الناس من يعلم  
أنه من أساطين علماء الموسيقى في زمانه ومن أوسع معاصريه  
علماءها .

كان ابن سينا إمام عصره في العلوم الموسيقية في الشرق  
والغرب . وكانت كتبه وكتب الفارابي أساس العلوم الموسيقية  
العربية حتى في الأندلس برغم أنهما من المشاركة .

لقد ألف ابن سينا في الموسيقى ثلاثة كتب : اثنين باللغة العربية والثالث باللغة الفارسية. وأكبر هذه الكتب وأوسعها بحثاً هو الجزء الموسيقى من كتابه «الشفاء» وهو موسوعة شاملة لجميع العلوم ودائرة معارف واسعة، خصص منها مجلداً ضخماً للموسيقى. وأما كتابه الثاني في الموسيقى فهو جزء من كتاب «النجاة» وهو موسوعة أخرى أقل توسعاً من الأولى. ثم الكتاب الثالث الفارسي واسمه «دانيش ناما» أي كتاب المعرفة، ويحتوي على الجزء الموسيقى من كتاب النجاة.

أما كتاب الموسيقى في موسوعته «الشفاء» فلم يبق منه في دور الكتب العالمية العامة إلا أربع نسخ مخطوطة، كلها في مكتبات إنجلترا، وأكملها المخطوطة المحفوظة في مكتبة أكسفورد.

أما كتاب «النجاة» فقد ترجمته أوربا إلى اللاتينية عام ١٥٩٣ ولكنه — للأسف — ينقصه الجزء الخاص بالموسيقى. بيد أن مخطوطتين منه محفوظتان في مكتبة أكسفورد.

ولقد عالج ابن سينا في هذين المؤلفين، وفي مؤلفه الفارسي، كل ما يتعلق بالموسيقى العربية من ناحيتها اللحنية والإيقاعية، وشرحها شرحاً وافياً، مبوباً أجمل تبويب يتفق والعلوم الموسيقية الحديثة. ولقد يطول بنا البحث إذا تعرضنا لكل ما كتبه ابن سينا في موضوع الموسيقى، إنما نقصر الإشارة هنا إلى ناحية واحدة

أمتاز بها ابن سينا في مؤلفاته ، وانفرد بالبحث فيها عن كل من سبقه  
من العرب ومؤلفي الشرق ، وهي الناحية الخاصة بالموسيقى العربية  
والهارموني ، وعلى الأدق في التعبير الموسيقي وتعدد الأصوات .  
تعدد أصوات المغنين في وقد واحد أمر طبيعي لا صناعي ،  
عرفته أقدم العصور . فقد تغنى الأطفال والنساء والرجال جميعاً في  
وقت واحد منذ القدم ، في تراتيلهم الدينية واستقبالهم للملوك  
والقواد الفاتحين . وبما لا ريب فيه ، أن لكل فئة من أولئك طبقة  
من الأصوات خاصة . فإذا امتزجت بعضها ببعض ألفت نوعاً  
من تعدد الأصوات . . . وهذا النوع وإن كان متأسلاً بالطبع  
في الموسيقى منذ القدم ، وقد أثبت التاريخ الموسيقى وجوده  
في جميع الممالك القديمة ، إلا أن هذه الممالك لم تلتفت واحدة منها إلى  
توليئه التفاتاً مقصوداً ، ولم يتعرض عالم من علماءها إلى بحثه بحثاً علمياً .  
وهذا هو السبب في إغفال البحث عن تعدد الأصوات  
في الموسيقى وتأخر ظهوره ، حتى تحدثت عنه أوروبا في العصور  
الوسطى حيث لفت نظر العلماء ما تستعمله الكنيسة في التراتيل  
من اختلاف الأصوات في الأداء ، وظهر « هو كبالد » الايطالي  
الملقب بوالد الهارموني في آخر القرن التاسع وأول القرن العاشر  
( ٨٤٠ - ٩٣٠ م ) . يحدثنا هذا الموسيقى ، في مؤلفاته النظرية  
عن تعدد الأصوات بما يقرره من إمكان امتزاج نغمة الأساس

بالرابعة والخامسة والجواب ، وهو ما كان مستعملاً من غير قصد  
في أغاني الجماعات في الممالك القديمة .

ولقد خلف « هو كبالد » العالم الموسيقى « جيدو الأريزي » فنهج  
منهج سلفه . وتلقت أوروبا مؤلفات هذين العالمين بالترحيب  
والإقبال ، وبحشوا فيها ، وزادوا عليها ، حتى تطوروا بتعدد  
الأصوات وصار علماء قائماً بذاته هو « علم الهارموني » الذي  
هو جوهر الفرق بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية .

وكان المعتقد أنه لم يتعرض من علماء العرب أحد للكلام  
في تعدد الأصوات ، حتى كشف العهد الأخير ، عما دبحه يراع  
ابن سينا في هذا الموضوع في مخطوطاته الموسيقية التي أشرنا إليها  
آنفاً . فكان ابن سينا أول عربي عالج هذا الموضوع في شيء كثير  
من التفصيل والإسهاب .

وإذا علمت أن ابن سينا عاش في القرن العاشر ، وهو الزمن  
الذي عاش فيه هو كبالد وجيدو تقريباً ، تحقق لديك أن ابن سينا  
كان في بحثه هذا حراً طليقاً ، لا صلة له بمؤلفات دينكا العالمين .  
وأظهر الدلائل على ذلك أن طريقة بحثه في هذا الموضوع وتفكيره  
فيه تختلف اختلافاً بيناً عن طريقة صاحبيه مع ما يزيد على هذا  
من بعد الدار ونأى المزار ، وتباين اللغة ، والفروق الأخرى  
الكثيرة من ثقافية وغير ثقافية بينه وبينهما .



والمحقق بعد ذلك أن تعدد التصويت كان معروفاً عند العرب ،  
استعملوه في أغانيهم وأهازيجهم ، بل وأعجب من هذا أنهم استعملوه  
في عزفهم بالآلات الموسيقية ، وهي مفخرة عزت على الكثير  
من الممالك المتحضرة في ذلك الوقت .

اتخذ ابن سينا في كتابته عن تعدد التصويت عنواناً أدمجها فيه  
أسماء « محاسن اللحن » وجعلها أربعة أنواع مختلفة هي : الترعيد  
والتزيج والتوصيل والتركيب ثم استنبط من التزيج فرعاً أسماه  
النشيق ومن التركيب فرعاً آخر أسماه الإبدال . وإذن فقد توسع  
ابن سينا في بحثه وشرحه شرحاً وافياً بز فيه صاحبيه وامتاز عليهما  
بما استخلصه في بحثه من كثرة أنواع تعدد الأصوات .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن ابن سينا اتفق مع العالمين الأوربيين  
في جوهر بحثهما عن الانسجام الصوتي والتوافق الهارموني ، فقال  
فيما عرف به « التركيبي » :

« أما التركيبي فإنه يخالط بالنغم الأصلية في نقرة واحدة نغمة  
موافقة لها ، وأفضل ما كان من الأبعاد الكبار ، وأفضله الذي  
بالكل ثم الذي بالأربع » .

ويتأدى قوله هذا إلى أنه يمكن المزج بين صوتين بأدائهما  
معاً في انسجام توافقي ، وأحسن ما ينتهي إليه الأمر في ذلك :

الجمع بين الأساس وجوابه أو الأساس وخامسته أو رابعته (١) .  
وقد بقي ابن سينا نجما من نجوم الفلسفة والطب والموسيقى  
إلى أن توفي شمس الدولة ، فلم تطب له الحياة مع ولده الذي خلفه  
على الإمارة . واشتدت الأمور بابن سينا حتى سجنه الأمير بالقلعة  
عدة سنوات إلى أن لاذ بالفرار واعتصم بأصبهان في صحبة الأمير  
علاء الدين ، وكان طبيبه وسميره وصاحبه في جميع مغازيه وأسفاره .

وقد انهار ابن سينا ، وناءت صحته بالأعباء الفادحات التي تثقل  
كواهل الجبال ، وهو بين قطع الأسفار وتأليف الأسفار إن جاز  
هذا التعبير . وقد عانى الأمرين من محن ، وسجن ، ومرض ،  
وغربة ، وحقد خصوم ، ومكابدة اطلاق ، وتأليف وتصنيف .  
ولعل الموسيقى كانت ركن الترفيه والسعادة في حياته ، والكهف  
الذي تلجأ إليه نفسه حين تشتد الظلمة وتعظم المحنة .

---

(١) قد شغل ابن سينا وبحوثه الموسيقية جزء كبيراً من الحياة الدراسية لمؤلف  
هذا الكتاب فأفرد لذلك رسالة ظهرت باللغة الألمانية عام ١٩٣١ كشف فيها عن  
النواحي المستحدثة التي كان التاريخ الموسيقي ينسب بدايتها إلى التفكير الأوربي حتى زمن  
ظهور هذه الرسالة . وقد تلقت جامعة برلين والدوائر العالمية معلومات هذه الرسالة  
بالترحيب على أنها تميز في مادة التاريخ وكشف لبعض نواحيه ورد للحق إلى نصابه  
وإعادة قيمة الكشف الفنى لعبقرية الشرق والمدنية الإسلامية في الرئيس ابن سينا .  
ولا يحتمل هذا الكتاب استيفاء جميع النواحي التي تجلى فيها فضل ابن سينا على  
الموسيقى وتجديده في علومها وفنونها .

وفي شهر رمضان عام ٤٢٨ هـ (يوليه سنة ١٠٣٧ م) وقد بلغ  
السابعة والخمسين من عمره لقي ربه بعد عكوف على الرياضة والطاعة  
والتصدق بكل ما يملك .

وقد دوّن أكثر من مائة كتاب ، كلها شهود عدل بما له  
من فضل وبما له من ثقافة واسعة ألمّ فيها بجميع العلوم والفنون  
في عصره . ومعظم مؤلفاته لا تزال محفوظة إلى يومنا هذا . وكثير  
من كتبه الكبرى كالقانون والشفاء ترجمت إلى اللاتينية ، وطبعت  
عدت مرات .

\*\*\*

لقد عاش ابن سينا سبعة وخمسين عاما من الدنيا ، وستمضى  
سبعة وخمسون قرناً وأضعافها وابن سينا لا يزال يعيش لا في بخارى  
وجرجان وأصبهان ، بل في خلود العبقريّة ، التي لا تعرف  
الزمان والمكان .



أَعْلَى عَصْرِ اللَّيْلِ

(١٣٨ / ٧٥٦ م - ٤٢٢ / ١٠٣١ م)

مكتبة جامعة القاهرة  
القاهرة

(١٧١٩ / ٢٥٧٩ - ٧٧٣٩ / ١٧٠٢٩)

١٧١٩  
٢٥٧٩  
٧٧٣٩  
١٧٠٢٩

## زرياب

هو رمز حضارتي المشرق والمغرب ، وحامل لواء الغناء العربي لدولة بني العباس في بغداد وبني أمية في قرطبة . ولم نعلم أن أحداً أتبع له أن يشهد الخلافتين ويعني في البلاطين على مثل ما أتبع لزرياب . ومن هنا تبدو لنا نواحي تفردده وجوانب عظمته . فقد يسرت له الأقدار أن يتلمذ لأعلم شخصية موسيقية في ملك الرشيد ، ثم تكرمه الأقدار نفسها فتتيح له مغادرة بغداد إلى جنة العرب الجديدة في بلاد الأندلس ، فإذا به يوازن ويقارن ويطلع على ألوان الجمال الغربي فيضيفها إلى ثقافته العربية الفارسية الممزوجة بعبقريته الفردية .

وزرياب هو أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي العباسي . ولقب بزرياب بسبب سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلو شمائله وحسن صوته تشبهاً له بطائر أسود حسن التغريد يقال له « الزرياب » .

نشأ هذا العبقرى الفذ تلميذاً لإسحق الموصلي ببغداد فحفظ عنه أساليب الغناء وأسرار التلحين . وقد تفانى في تجويد صناعته بما حبه به الأقدار من قوة حفظ وجودة ذاكرة وجمال صوت

في غزارة مادة وسعة موهبة وسلامة ذوق حتى بز أستاذه .  
ولم يعرف المشرق أحداً يسامى إسحق في بدو ولا حضر  
إلا أن يكون زرياب ، وزرياب لاغير .

وكان إسحق في غفلة من أمره وأمر تلميذه حين سأله الرشيد  
يوماً طالباً أن يحضر إليه مغنياً جديداً حسن الصنعة ، على سبيل  
التنويح والتغيير . فاندفع إسحق في ذكر زرياب والثناء عليه  
وامتداح مقدرته ونبوغه . فاستدعاه الرشيد إليه ، وراح يستفسره  
ويمتحنه . فوجد فيه فصاحة المنطق وحضور البادرة وسرعة الإجابة  
في غير تردد ولا تهيب . وسأله عن شأنه في الغناء فقال « أحسن  
منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسن لا يحسنونه مما لا يحسن  
إلا عندك ولا يدخر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن  
قبلك » . فاستدعى له الرشيد بعود إسحق . فأبى وقال « لي عود  
نحته بيدي وأرهفته بإحكامي لا أرتضى غيره » . فأمر الرشيد  
ياحضر ذلك العود فوجده لا يختلف في منظره عن عود إسحق .  
فقال له « ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ » . فأجاب زرياب  
« إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيتيه بعوده ، وإن كان  
يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي » . فقال الرشيد « ما أراهما  
إلا واحداً » ، فأجاب زرياب : « صدقت يا مولاي ولا يؤدى  
النظر غير ذلك ، ولكن عودي وإن كان في قدر حجم عوده



ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه، وأوتارى  
من حرير لم يغسل بماء سخن يكسبها أنوثة ورخاوة ، وبها  
ومثلها (١) أتخذتهما من مصران شبيل فلها في التزئم والصفاء والجهارة  
والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة  
الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها .

فأعجب الرشيد ببراعة وصفه وأمره بالغناء ، فاندفع يعنى :

يا أيها الملك الميمون طائره

هارون راح إليك الناس وابتكروا

فقال الرشيد لإسحق بعد أن استولى عليه الطرب وتمكن منه  
الإعجاب « لولا أنى أعلم من صدقك لى على كتمانك إياك لما عنده  
وتصديقى لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك  
إعلامى بشأنه ، فخذته إليك واعتن به حتى أفرغ له فإن لى فيه نظراً .  
فدبّ الحسد فى صدر إسحق وثارَت الغيرة فى دمه . ثم خلا  
بزياب وقال له « إن الحسد أقدم الأدواء ، والدنيا فتانة ، والشركة  
فى الصنعة عداوة ، ولا حيلة فى حسمها . وقد مكرت بى فيما انطويت  
عليه من إجادتك وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك . فإذا أنا  
قد أتيت نفسى من مكمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى  
وترتقى أنت فوقى ، وهذا مالا أصاحبك عليه ، ولو أنك ولدى .  
ولولا رعى لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أذهب نفسك ،

(١) البم والمثلث وتران من أوتار العود .

وليكن في ذلك ما كان ، فتخير في اثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً لسهامى فإنى لا أبقى عليك ولا أدع اغتيالك باذلاً فى ذلك بدنى ومالى . فاقض قضاءك . .

فآثر زرياب الحياة بمنأى عن المكيدة والحسد ، واختار الرحلة عن بغداد . وخرج منها بأهله وبيته .

وإن فى هذه المأساة المبكية لِعبراً ، وحقائق ذات شأن . فها نحن نرى إسحق يعجب بفضله ويظن نفسه قد ملك الدنيا غناءً وطرباً بما أخذ عن أبيه وعن معاصريه ، حتى سما عليهم جميعاً ، وإذا بتليذه الأسود ، يحتفى وينطوى على نفسه فيتسكرو ويخترع فى صناعة آلة العود وفى أوتارها . ثم هو لا يعلم ذلك حتى يفاجأ به كفجاءات القدر بين يدي الرشيد . فيذب فى نفسه ما يشبه الحى القاتلة غيضاً وكمداً . وكأن هذه الحقيقة تقول لكل فنان ولكل عالم كن طريقاً إلى غيرك ودع الدنيا تسير قوافلها إلى الأمام ، ثم لا تغتر بموهبتك فقد يطالعك زرياب من وراء حجاب ...

وعبرة أخرى هى صراحة الفنان فى أدبه أو أدبه فى صراحته . أنظر إلى الخطاب الملكى ، وإلى مراعاة التعبير اللائق ، الذى هو أخرى بأن يتنبه إليه الباحثون فى التراكيب البيانية والجميل

البلاغية ومخاطبات القصور. فنرى زرياب يقول للرشيدي « لم تسمعه  
أذن قبلك » ، وكان يستطيع أن يقول « ما لم تسمعه أذنك قبل  
اليوم » . وانظر إلى قوله « صدقت يا مولاي » ، ثم يرد عليه رداً  
جميلاً يفند أنه صدق . . . إلى آخر ما ورد في القصة .

ونحن وقد أفردنا في هذا المصنف فصلاً ضافياً ، عن إسحق  
الموصلى ، ووفيناها حقه من الثناء ، إلا أننا لا نعفيه من المحاكاة  
بين يدي التاريخ العادل عما صنعه في تليذه ومحاولة كبت الموهبة  
الفريدة وإخماد الصوت العالى . وإنما لأنانية لا تعتذر أن يستغل  
فنان غناه وثروته وجاهه ليهدد بالقتل تليذاً ناشئاً ويحمله  
على النزوح عن وطنه ، والفرار بحياته وحياة أهله ، لأنه يخشى  
مزاحمته في الشهرة والمنزلة .

وعبرة العبر كلها أن تلك الأنانية ومحاولة كبت المواهب وستر  
أشعة الكواكب لا يغنى شيئاً عن الحاقدين ، بل هو أبلغ في إظهار  
الموهوبين وإعلاء مكانة النابغين . فقد غرب زرياب عن المشرق  
ليضىء في المغرب ، وحرمت من صوته بغداد فكان بلبلًا في قرطبة .  
بل كان أعلى نجم وأضوأ كوكب في سماء الأندلس حيث أصبح  
فيها رئيس المغنين ، وشيخ العوادين ، وإمام الموسيقى والمخترعين  
في صناعة العود .

وهكذا تحدثنا عبر التاريخ أن علو نجم يوسف كان بفضل  
حسد اخوته والكيد له ...

وكما اغترب يوسف وسجن ، اغترب هذا وضرب ونفى .  
فقد ارتحل زرياب عن بغداد بأهله . وولى وجهه شطر المغرب ،  
فنزّل بالقيروان عند ملكها الأغلب زيادة الله بن إبراهيم الأغلب  
( ٨١٦ م - ٨٣٧ م ) فذاع صيته في إفريقية كلها . وغنى يوماً  
بحضرة هذا السلطان أغنية تمدح فيها بالسواد في قول عنتره العبسي :  
فإن تك أمى غرايبة من أبناء حام بها عبتني  
فإنى لطيف ببيض الظبا وسمير العوالى إذا جئتني  
ولولا فرارك يوم الوغى لقدتك في الحرب أو قدتني  
فغضب زيادة الله ، وصب عليه جام نغمته ، وأمر بضربه  
ثم إبعاده ، وقال له إن وجدتك في شيء من بلدى بعد ثلاثة أيام  
ضربت عنقك . فكان لا محيص له أن يترك القيروان كما ترك بغداد .  
وسمع بزرياب الحكم الأموى ملك الأندلس ، فاستدعاه  
إلى قرطبة . فسار إليها متنقلاً بين حواضر الأندلس ، وهو يلاقى  
السكريم حيثما نزل والتبجيل حيثما ارتحل ، حتى انتهى إلى الجزيرة  
الخصراء فبلغه وفاة الحكم فاغتم لسوء حظه ونكد طالعه ، وهمّ  
بالرجوع ، وكان معه منصور اليهودى رسول الحكم إليه فثناه  
عن ذلك ، ورغبه في متابعة رحلته إلى عبد الرحمن بن الحكم الذى  
تولى الملك بعد أبيه .

وما أن بلغ مسامع الخليفة ابن الحكم قدوم زرياب إلى الأندلس  
في طريقه إليه ، حتى كتب إلى عماله يوصيهم بإكرامه والعناية به  
وبعِياله ، وإيصالهم إليه بالتوقيع من بلد إلى بلد حتى يدخل قرطبة .  
وأمر غلمانَه أن يتلقوه بالركائب ، وبما عساه أن يكون في حاجة  
إليه . وخرج هو لاستقباله بظاهر المدينة . فدخل زرياب وبعِياله  
البلدة بلبيل صيانة لحرمة ، وأنزل في دار من أحسن الدور تهيأت  
له فيها وسائل الراحة وكل ما يحتاج إليه .

وبعد ثلاثة أيام استدعاه عبد الرحمن إليه ، وكان قد كتب له  
راتباً في كل شهر مائتي دينار ، وأن يجري على بنيه الأربعة  
عبد الرحمن وجعفر وعبد الله ويحبي عشرين ديناراً كل شهر ،  
لكل واحد . وذلك زيادة عما قرر منحه على سبيل التكرمة في كل  
عيد ومهرجان من المال والغلال . واقطعه من الدور والمستغلات  
بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار . . .  
فلما استدعاه الخليفة إلى مجلسه ، وقد طاب له المقام وأمن على نفسه  
تصاريف الدهر وكيد الكائدين ، وأمر له بالشراب ، غنى زرياب  
وجاوب على الشراب بما يفوق الشراب من صنعة ساحرة وفن  
عجاب ، مما جعل الخليفة يزداد به تعلقاً وله حياً ، ويؤثره بالخطوة  
على جميع المغنين . وذاكره في أحوال الملوك ، وسير الخلفاء ،  
ونوادر العلماء ، فإذا هو كأستاذه إسحق بحر لا يدرك ساحله .

فزاد في تكريمه ، واختصه بمجالسته ، على مائدة طعامه . وبالغ في الاعتزاز به حتى أفرد له باباً خاصاً ، يستدعيه منه متى أراد سماعه ومنادمته .

ولم تقف مواهب زرياب عند جودة الغناء والمهارة في العزف بل تخطى ذلك إلى تحسين صناعة العود ، كما كانت تبشر بذلك فطنته العجيبة التي تجلت أمام الرشيد .

وهو الذي زاد الوتر الخامس في العود ببلاد الأندلس ، وكانت من قبل أربعة . كما أنه هو الذي ابتكر في العزف استعمال ريشة النسر ، لأنها تجمع بين القوة والليونة ، وكانت لا تزال حتى وقته من الخشب .

ومن مآثر زرياب على الموسيقى أن هياً لنفسه فيها مدرسة خاصة وطريقة مستحدثة في التعليم . إذ كان المتبع قبله في تلقين الألحان أن يكرر المغنى للحن لتلاميذه حتى يحفظوه ، فاستعمل زرياب طريقته الجديدة في تعليم هذه الألحان إذ يصل إلى تحقيق هذه الغاية على ثلاثة مراحل :

الأولى لتعليم الإيقاع في قراءة الشعر، وأن ينقر التلميذ الدف ليظهر له زمن الإيقاع ويضبط الحركات .

ثم يدرس في المرحلة الثانية الألحان في شكلها الساذج .

وفي الثالثة ترجيع الصوت وحلية الغناء وإظهار العواطف .

وكان يمتحن أصوات تلاميذه قبل البدء في تعليمهم ، فيجلس الطالب على كرسي صغير ويصيح بصوت عال « يا حجام » أو يغني قائلاً « آه » ويرددها ممدودة على جميع درجات السلم الموسيقي . ثم يقرر بعدها هذه التجربة درجة صوت التلميذ ، من الحسن والجودة والقوة .

وكان زرياب فوق مدرسته الموسيقية وعبقريته الفنية ، عالماً جليلاً وشاعراً مطبوعاً ، وفلسكياً بارعاً ، خبيراً بالنجوم وقسمة الأقاليم واختلاف طبائعها وأهويتها ، وتشعب بحارها ومختلف بلدانها وسكانها .

وجمع زرياب إلى سعة علمه وكبير فضله ، كثيراً من ضروب الظرف ، وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وآداب المجالس ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملكية ، حتى اتخذه ملوك الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه .

وقد عد في نظر المؤرخين رسولاً من رسل المدنية والتجديد في عرف اللياقة ومظاهر الجمال والتأنق . فكان له ذوقه الخاص ، في الملابس على اختلاف الفصول ، وتصنيف الشعر ، واتخاذ الأكواب من الزجاج بدل المعادن ، واصطناع الأصص للأزهار من الذهب والفضة . فاقتدى به الملوك والأمراء والأشراف . وكانت كلمته عندهم قانوناً ، ورأيه تشريعاً ، ودستوراً للجمال

وللذوق . وقد استحسّن الناس ذوقه حتى في الأظعمة والحلوى ،  
وبقيت أسماء بعضها مقرونة باسمه بعد حياته ، وظلت منسوبة إليه  
حتى آخر أيام الأندلس .

ومات زرياب وله العدد الجهم من تلاميذ مدرسته . كما خلف  
ميراثاً فنياً نفيساً بلغ على ما يحدثنا به المؤرخون عشرة آلاف  
من الأصوات ، لم يقتصر ذيوها على بلاد الأندلس ، بل عمّت  
جميع الأقطار الإسلامية .

وقد أنجب ثمانية من الأبناء وبنتين ، وقد تعلم جميعهم الغناء  
ومهروا فيه .

\*\*\*

وهكذا استطاع زرياب أن يقهر الحوادث ليشق لنفسه الطريق  
إلى المجد . وتغلب على المكائد في بغداد والمحنة في القيروان فوجد  
تحت سماء الأندلس الحياة الآمنة المطمئنة ، فاخترع للموسيقى  
ولآلاتها ولألحانها . وأنجب ذرية لروحه من تلاميذه ، وذرية لبيته  
من أبنائه وبناته . وجدد في أطوار المدنية وجمال الذوق . وخلف  
من الألحان عدداً إن لم يكن قد بلغ فيه ما ذكره عنه المؤرخون  
فهو على أي حال ، دليل على غزارة مادته ، واتساع أفقه ، وأنه  
حقق لنفسه من علو الشأن في الغرب مكانة لا يقل فيها عن مكانة  
إسحق في الشرق .



## ولادة بنت المستكفي

كان القرن الخامس الهجري بالنسبة للأندلس عصر شباب وقوة وازدهار ، فالأندلس جنة المغرب ، وبلادها الخضراء تتقلب في أعطاف النعيم ، والأسر الكبيرة تنبارى في ابتناء القصور وابتكار أساليب الجمال فيها . وكانت المدينة العربية الإسلامية يومئذ مدرسة الدنيا كلها وملتقى حضارات الشرق والغرب ومزدهم الفنون من كل نوع ولون بل من كل سحر وإبداع . وكانت تلك القصور حلقات تجمع مختلف الأطياف والطرائف ، ففيها الطرب إلى جانب الأدب والعلم الباحث إلى جوار الفن الرفيع ...

في تلك البيئة المريحة الضاحكة ، وفي ذلك الجو الطلق الساحر الجميل شبت ولادة آية في الروعة والجمال والثراء . ولم لا وهي بنت الخليفة المستكفي بالله ، قد أوتيت جمال الصورة وجمال الأدب وجمال التريفة وجمال الغناء الفاتن والصوت العبقري وجمال جميع الحياة من حولها . وأعجب شيء في ذلك أنها شاعرة ومغنية معاً ، وهي فيهما على قمة التفوق والامتياز . فكان طبيعياً أن يعد مجلسها سوقاً تتصارع فيه الأرواح وتتنافس فيه المواهب . ولكن في أي

شيء يطاولها المطاول؟! فليس عند أحد موهبة لم تتمتع بها ولادة ،  
فن غنى سبقته إلى الأداء ، ومن نظم سحرته بما ليس في قدرته .  
وكان ابن زيدون واحد عصره ، والمدل بروعة بيانه .  
وقد سار شعره في أفواه القيان والمغنين لسمو معانيه وموسيقية  
ألفاظه فكان الأدب صلة محكمة ، بين ابن زيدون وبين ولادة .  
فيها سعد ، وبها أو بحسادهما معاً كان شقاؤه .

وإننا حين نستعرض شعر ولادة نحكم لأول وهلة بأن هذا  
الشعر لم يخلق إلا للغناء والتغريد . إصغ إليها وهي تقول :

ودع الصبر محب ودعك      ذائع من سره ما استودعك  
يقرع السر على أن لم يكن      زاد في تلك الخطا إذ شيعك  
يا أخا البدر سناءً وسنا      حفظ الله زمانا أطلعك  
إن يطل بعدك ليلي فلکم      بت أشكو قصر الليل معك

ثم استمع إلى قولها في ابن زيدون :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق  
سبيل فيشكو كل حب بما لقي  
وقد كنت أوقات التزور في الشتا  
أبيت على جمر من الشوق محرق  
فكيف وقد أمسيت في حال قطعه  
لقد عجل المقدور ما كنت أتقى

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى

ولا الصبر من رق التشوف معتقى

سقى الله أرضاً. قد غدت لك منزلاً

بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

وقد أجاها ابن زيدون بقوله :

لحى الله يوماً لست فيه بملتقى      محياك من أجل النوى والتفرق

وكيف يطيب العيش دون مسرة      وأى سرور للكئيب المؤرق

كانت ولادة بنت المستكفي في مكاتها من الأندلس وفي قصر الخلافة بقرطبة أشبه بعليّة بنت المهدي في بغداد. فكلتاها أميرة ، شاعرة ، أدبية ، مترسلة ، مغنية ، عازفة ، مشرقة الجمال . وكلتاها أيضاً عفيفة القلب متمردة الشعر . ومن عجب أن تلتقى كلتاها في معنى التعفف والصون من حيث الحياة والمثل العليا، بينما شعرهما يبدو أقرب إلى الأدب المكشوف ، وأدنى إلى عدم المبالاة أحياناً . ولكن العجب العاجب فيما التقيا فيه من الانقطاع للفن مدى الحياة ، وترك الحياة الزوجية وتكاليها والاكتفاء بهذا الجو المليء طرباً وأدباً وموسيقى .

كانت ولادة تساجل أهل الأدب وتناضل الشعراء ، فانسحر ألبابهم وتتركهم تائهين في بيداء ليس لها حدود ولا نهاية .

مرت يوماً بقصر الوزير عامر بن عبدوس فألفت أمام القصر  
بحيرة تجمعت فيها المياه فقالت للوزير على البديهة :  
أنت الخصب وهذه مصر فندفقا فكلاكما بحر  
وفي هذا البيت نرى إمامها بالتاريخ وتقويم البلدان وسحر  
البيان في كلام موجز وبديهة حاضرة .  
ولما نكب ابن زيدون وتغيرت عليه الأيام قال في ولادة  
قصيدته المشهورة :

أضحى التناثي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا  
حالت ببعدم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا  
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسي لولا تأسينا  
وابن زيدون وإن كان قد عرف برقة حاشيته وبعد مرماه  
إلا أن روح ولادة هي التي أوحى بهذه القصيدة فجاءت صورة  
من عمق روحها ورقة طبعها وانسجام شمائها . وهي أيضاً روحها  
التي جالت في موهبة ابن زيدون ، فلحقته إلى الزهراء وعزفت  
في أعماق نفسه قصيدة كتبها إليها ، فلو قال قائل إنها من تأليف  
روحها في روحه ما تعدى الحقيقة . ومنها :

إني ذكرك بالزهراء مشتاقا  
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا  
وللنسيم اعتلال في أصائله  
كأنما رق لي فاعتل إشفاقا

والروض عن مائه الفضى مبتم  
كما حلت عن اللبات أطواقا  
يوم كأيام لذات لنا انصرفت  
بنا لها حين نام الدهر سراقا  
نلهو بما يستميل العين من زهر  
جال الندى فيه حتى مال أعناقا  
كان أعينه إذ عاينت أرقى  
بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ولئن كان أهل التاريخ والنقل لم يتوسعوا في مكانها الغنائية  
فذلك لأنها غير معدودة من الموسيقيين المحترفين الذين ينتقلون  
من قصر إلى قصر ومن ندوة إلى ندوة فتنتقل أخبارهم وأخبار  
جوائزهم . أضف إلى ذلك أنها بنت خليفة ولها من الصون ما يمنع  
الألسنة عن تناقل أخبار أغانيها .

وقد تمتعت ولادة بعمر طويل في ظلال الفن وبين جناته  
وسلسيله ، تنظم وتغنى وتضع الشعر والألحان لنفسها ولجلسها  
حتى وافتها نهايتها عام أربع وثمانين وأربعمائة هجرية ( ١٠٩١ م ) .

## عبد الوهاب بن الحاجب

كادت الموسيقى الشاعرة والشعر الموسيقى في الأندلس يعتبر  
كل منهما لغة الذوق الشعبي وشعار الثقافة العامة . وأى شيء كان  
يصور تلك الحضارة العظيمة والمدنية الرائعة والترف الشامل  
أفضل من الموسيقى والغناء !! إنك لا تكاد تخاطب رجلا ولو كان  
رجل الشارع حتى يجيبك بالبیت الطريف مروياً أو مبتكراً .  
ولا تكاد تغشى ندوة أو تطرق باب منزل حتى تسمع نغمة العود  
والمزمار قبل أن تسمع أصوات من فى الدار . وذلك لأن القوم  
قد أفسحت لهم الطبيعة صدرها وأخصبت لهم أرضها وحملت لهم  
وجه مدينتها ، فلم يبق ذو صناعة إلا والموسيقى إلى جانب صناعته ،  
ولا ذو علم إلا والشعر جزء من علمه .

وإننا لا نبالغ إذا قلنا إننا نوشك أن نسمع الموسيقى فى كل  
شعر أندلسى لمجرد قراءته ، فشمّت رنين وتصوير وجمال فى المعنى ،  
وتمت حدائق وغابات وأشجار وأنهار بين ثنايا الكلمات .  
وهل الموسيقى والغناء إلا رنين وأنين وألحان تتناجى بها الأرواح  
الشاعرة الحساسة !!

ولعل عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ممن تسفر  
شخصيتهم عن أوضوح صورة لهذه الحقيقة .

كان كما يصفه المؤرخون « واحد عصره في الغناء الرائق  
والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورقة الطبع وإصابة  
النادر والتشبيه المصيب والبديهة التي لا يلحق فيها ، مع شرف  
النفس وعلو الهمة » .

وهذه الصفات مجتمعة تعنون لنا شخصية هذا الموسيقار .  
وتضع يدنا على الخلال الرفيعة التي ينبغى ألا يخلو منها فنان مثقف ،  
وإن لم يكن شاعراً كابن الحاجب جمع الله له المواهب والمناقب  
والمال وعلو المحتد وشرف البيت والإمارة أو ما يقرب منها .  
فهو ناعم البال ، مطمئن النفس ، رحيب العيش ، يرفل في رخاء  
وبهجة ، ويقصد إليه الفنانون من المشرق فيجود عليهم بالمال  
ويجودون عليه بما هو أعلى من المال . وهذه الحال أغنته عن  
مشاق الارتحال ومتاعب التجوال . وكان له من ثروته شرك  
صيد وروض ظليل تأوى إليه البلابل طائفة منساقة إلى الحب  
فيتلقاها ويصطاد أنغامها في شرك نفسه وفي شبكة حفظه . فكل  
مغن يقصد الأندلس لا بد له من أن يعرج على ابن الحاجب ليلقى  
بين يديه بهدايا المشرق من سحر وغناء وشعر . فما يزال المغني  
أو العازف أو الشاعر أو الأديب في صبوح وغبوق بين الغداة

والعشى حتى يستنفده ابن الحاجب كل ما لديه . وهكذا كان يستقبل  
هؤلاء فيزيد بهم علمه ويقوى فنه حتى أصبحت ذاكرته مكتبة  
غنائية تحتوي على كنز من التسجيلات الموسيقية من المشرق  
والمغرب . وقد كلفه هذا أن ينفق جميع دخله السنوي الكثير  
ويستدين فوقه ما هو أكثر ، وهي تضحية تدل على تقدير هؤلاء  
لقيمة الموسيقى وجمال الغناء ، وقد أرخصوا في سبيل ذلك المال  
واحتملوا عبء الديون ليزدادوا فنا وحتى لا ينقطعوا عن القافلة  
أو تفوتهم شاردة مبتكرة أو طريقة جديدة .

ولقد تعلم ابن الحاجب من تجاربه وأفاد من زواره وابتكر  
اللحن الجميل للشعر الجميل وكلاهما من صنعته حيث كان أعلم أهل  
عصره بصناعة اللحن وأقدرهم على العزف بالعود . وكان بشارة  
الزامر يزمر عليه وهو من حذاق زمرة المشرق .

ومن العجيب في مثل تلك العصور البعيدة أن نرى ابن الحاجب  
هذا حريصاً على أن يجعل فنه مصدر سعادته الشخصية والعائلية ،  
فإذا لم يزره أحد من أصدقائه أو لم يزر هو أحداً منهم جعل بيته  
ندوة واستدعى العشرات من أهله وأقربائه وعلمانه وكلهم مغن  
أو عازف فما يزال الجميع حول مائدته وهو يبادلهم العزف والغناء  
فيستمع إليهم ويستمعون إليه حتى إذا طرب تفرد فتغنى وغرد



واستخرج ودائع حفظه وروائع ابتكاره فنقل مستمعيه  
من الأرض إلى ما يشبه الجنة .

هذا هو الفنان الهاوى الذى ترك من سيرته مثلاً تحتذيه  
الهواة فى مختلف العصور . فما أسعد تلك الأسرة التى كلها مغنون  
وفنانون وموسيقيون . وهل تنتظر من هؤلاء إلا ذوقاً رفيعاً ،  
وخلقاً جميلاً ، وعشرة سعيدة وحياة يمضى ليلها ونهارها  
كأيام الأعياد !!

إن كانت هذه أسرة واحدة فلقد كانت الأندلس كلها  
تلك الأسرة ...

فلم يفتقدوا شيئا مما كانوا يفتقدون في الدنيا وكانوا يفتقدون الدنيا  
فولاهم قلوبهم يوم عدت ربوبهم فلهذا أخذوا حبيبتهم في الدنيا فكانوا  
يفتقدونها في الآخرة فكانوا يفتقدونها في الآخرة فكانوا يفتقدونها في الآخرة  
فلم يفتقدوا شيئا مما كانوا يفتقدون في الدنيا وكانوا يفتقدون الدنيا  
فولاهم قلوبهم يوم عدت ربوبهم فلهذا أخذوا حبيبتهم في الدنيا فكانوا  
يفتقدونها في الآخرة فكانوا يفتقدونها في الآخرة فكانوا يفتقدونها في الآخرة  
فلم يفتقدوا شيئا مما كانوا يفتقدون في الدنيا وكانوا يفتقدون الدنيا  
فولاهم قلوبهم يوم عدت ربوبهم فلهذا أخذوا حبيبتهم في الدنيا فكانوا  
يفتقدونها في الآخرة فكانوا يفتقدونها في الآخرة فكانوا يفتقدونها في الآخرة

وقد علم ابن الحاجب من تجاربه وأخباره من زواره وأخباره  
الذين هم أهل الشام والجزيرة وكلاهما من صنعه حيث كان أهل  
عسرة وصحة العسرة وأهلهم على العسرة بالعدد وكان بشارة  
الزائر زمر عليه وهو من حياض زمره القري

ومن العسرة في مثل ذلك العسرة والبيدة أن يرى ابن الحاجب  
على بحر أيضا على أن جعل فيه منسوخ معاداة الشخصية والمالية  
إذا لم يرد أحد من أممته أن يرى من أحد منهم حول منه  
عسرة وإنما هي العسرة من أممته وأقربائه وعشائره وكلهم من  
أهل عسرة في حال الجمع حول منسوخه وهو منسوخ العسرة والبيدة  
عسرة منهم ويستعملون إليه حتى إذا طرب عسرة منهم وعسرة

## عُهُود الخلفاء

تمكيناً لطلاب البحث من الوقوف على المراحل التاريخية الدقيقة في حياة الموسيقى العربية وأعلامها عبر العصور التي تناولها هذا المصنف ، رأينا أن نسجل فيما يلي قائمة بأسماء خلفاء تلك العصور ومدة حكمهم بالتاريخين الهجري والميلادي إشاراً للفائدة وتعميماً لجدواها . وهي بلا شك عظيمة الفائدة حتى لغير المشتغلين بالموسيقى ، لاسيما إذا لوحظ أن العثور عليها مبسطة على هذا النحو غير ميسور للجميع :

الخلفاء الراشدون ( ١١ هجرية / ٦٣٢ ميلادية — ٤١ هـ / ٦٦١ م )

( ١١ هـ / ٦٣٢ م — ١٣ هـ / ٦٣٤ م )	أبو بكر
( ١٣ هـ / ٦٣٤ م — ٢٣ هـ / ٦٤٤ م )	عمر
( ٢٣ هـ / ٦٤٤ م — ٣٥ هـ / ٦٥٥ م )	عثمان
( ٣٥ هـ / ٦٥٦ م — ٤١ هـ / ٦٦١ م )	علي

خلفاء بني أمية ( ٤١ هـ / ٦٦١ م — ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م )

( ٤١ هـ / ٦٦١ م — ٦٠ هـ / ٦٨٠ م )	معاوية بن أبي سفيان
( ٦٠ هـ / ٦٨٠ م — ٦٤ هـ / ٦٨٣ م )	يزيد بن معاوية
( ٦٤ هـ / ٦٨٣ م — ٦٤ هـ / ٦٨٤ م )	معاوية بن يزيد
( ٦٤ هـ / ٦٨٤ م — ٦٥ هـ / ٦٨٥ م )	مروان بن الحكم
( ٦٥ هـ / ٦٨٥ م — ٨٦ هـ / ٧٠٥ م )	عبد الله بن مروان

- ( ٧١٥ م / ٩٦ هـ — ٧٠٥ م / ٨٦ هـ ) الوليد بن عبد الملك  
 ( ٧١٧ م / ٩٩ هـ — ٧١٥ م / ٩٦ هـ ) سليمان بن عبد الملك  
 ( ٧٢٠ م / ١٠١ هـ — ٧١٧ م / ٩٩ هـ ) عمر بن عبد العزيز  
 ( ٧٢٤ م / ١٠٥ هـ — ٧٢٠ م / ١٠١ هـ ) يزيد بن عبد الملك  
 ( ٧٤٣ م / ١٢٥ هـ — ٧٢٤ م / ١٠٥ هـ ) هشام بن عبد الملك  
 ( ٧٤٤ م / ١٢٦ هـ — ٧٤٣ م / ١٢٥ هـ ) الوليد بن يزيد بن عبد الملك  
 ( ٧٤٤ م / ١٢٦ هـ — ٧٤٤ م / ١٢٦ هـ ) يزيد بن الوليد بن عبد الملك  
 ( ٧٤٤ م / ١٢٧ هـ — ٧٤٤ م / ١٢٦ هـ ) ابراهيم بن الوليد  
 ( ٧٥٠ م / ١٣٢ هـ — ٧٤٤ م / ١٢٧ هـ ) مروان بن محمد بن مروان

خلفاء بني العباس ( ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م — ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م )

- ( ٨٤٧ م / ٢٣٢ هـ — ٧٥٠ م / ١٣٢ هـ ) ( ١ ) العصر العباسي الأول - الذهبي  
 ( ٧٥٤ م / ١٣٦ هـ — ٧٥٠ م / ١٣٢ هـ ) أبو العباس عبد الله السفاح  
 ( ٧٧٥ م / ١٥٨ هـ — ٧٥٤ م / ١٣٦ هـ ) أبو جعفر المنصور  
 ( ٧٨٥ م / ١٦٩ هـ — ٧٧٥ م / ١٥٨ هـ ) محمد المهدي بن المنصور  
 ( ٧٨٦ م / ١٧٠ هـ — ٧٨٥ م / ١٦٩ هـ ) الهادي بن المهدي  
 ( ٨٠٩ م / ١٩٣ هـ — ٧٨٦ م / ١٧٠ هـ ) هارون الرشيد  
 ( ٨١٣ م / ١٩٨ هـ — ٨٠٩ م / ١٩٣ هـ ) محمد الأمين  
 ( ٨٣٣ م / ٢١٨ هـ — ٨١٣ م / ١٩٨ هـ ) عبد الله المأمون  
 ( ٨٤٢ م / ٢٢٧ هـ — ٨٣٣ م / ٢١٨ هـ ) أبو اسحاق محمد المعتصم  
 ( ٨٤٧ م / ٢٣٢ هـ — ٨٤٢ م / ٢٢٧ هـ ) الواثق بالله بن المعتصم

- (ب) العصر العباسي الثاني - الاضحلال (م ٨٤٧/هـ ٢٣٢ - م ٩٤٥/هـ ٣٣٤)
- (م ٨٦١/هـ ٢٤٧ - م ٨٤٧/هـ ٢٣٢) المتوكل على الله بن المعتصم
- (م ٨٦٢/هـ ٢٤٨ - م ٨٦١/هـ ٢٤٧) المنتصر بن المتوكل
- (م ٨٦٦/هـ ٢٥٢ - م ٨٦٢/هـ ٢٤٨) المستعين بالله بن المعتصم
- (م ٨٦٩/هـ ٢٥٥ - م ٨٦٦/هـ ٢٥٢) المعتز بن المتوكل
- (م ٨٧٠/هـ ٢٥٦ - م ٨٦٩/هـ ٢٥٥) المهتدي بالله بن الواثق
- (م ٨٩٢/هـ ٢٧٩ - م ٨٧٠/هـ ٢٥٦) المعتمد على الله بن المتوكل
- (م ٩٠٢/هـ ٢٨٩ - م ٨٩٢/هـ ٢٧٩) محمد المعتضد بالله
- (م ٩٠٨/هـ ٢٩٥ - م ٩٠٢/هـ ٢٨٩) المكتفي بالله بن المعتضد
- (م ٩٣٢/هـ ٣٢٠ - م ٩٠٨/هـ ٢٩٥) المقتدر بالله بن المعتضد
- (م ٩٣٤/هـ ٣٢٢ - م ٩٣٢/هـ ٣٢٠) القاهر بن المعتضد
- (م ٩٤٠/هـ ٣٢٩ - م ٩٣٤/هـ ٣٢٢) الراضي بالله بن المقتدر
- (م ٩٤٤/هـ ٣٣٣ - م ٩٤٠/هـ ٣٢٩) المتقي لله بن المقتدر
- (م ٩٤٥/هـ ٣٣٤ - م ٩٤٤/هـ ٣٣٣) المستكفي بالله بن المكتفي

- (ج) العصر العباسي الثالث - السقوط (م ٩٤٥/هـ ٣٣٤ - م ١٢٥٨/هـ ٦٥٦)
- (م ٩٧٣/هـ ٣٦٣ - م ٩٤٥/هـ ٣٣٤) المطيع لله بن المقتدر
- (م ٩٩١/هـ ٣٨١ - م ٩٧٣/هـ ٣٦٣) الطابع لله بن المطيع
- (م ١٠٣١/هـ ٤٢٢ - م ٩٩١/هـ ٣٨١) القادر بالله بن اسحاق
- (م ١٠٧٤/هـ ٤٦٧ - م ١٠٣١/هـ ٤٢٢) القائم بأمر الله بن القادر
- (م ١٠٩٤/هـ ٤٨٧ - م ١٠٧٤/هـ ٤٦٧) المقتدي بأمر الله
- (م ١١١٨/هـ ٥١٢ - م ١٠٩٤/هـ ٤٨٧) المستظهر بالله بن المقتدر

(١١٣٤/٥٥٢٩ — ١١١٨/٥٥١٢)	المسترشد بالله
(١١٣٥/٥٥٢٠ — ١١٣٤/٥٥٢٩)	الراشد بالله بن المسترشد
(١١٦٠/٥٥٥٥ — ١١٣٥/٥٥٣٠)	المقتفي لأمر الله
(١١٧٠/٥٥٦٦ — ١١٦٠/٥٥٥٥)	المستنجد بالله بن المقتفي
(١١٧٩/٥٥٧٥ — ١١٧٠/٥٥٦٦)	المستضيء بأمر الله
(١٢٢٥/٥٦٢٢ — ١١٧٩/٥٥٧٥)	الناصر لدين الله

دولة بني أمية بالأندلس (١٠٣١/٥٤٢٢ — ٧٥٦/٥١٣٨ م)

(٧٨٨/٥١٧٢ — ٧٥٦/٥١٣٨ م)	عبد الرحمن بن معاوية
(٧٩٦/٥١٨٠ — ٧٨٨/٥١٧٢ م)	هشام بن عبد الرحمن
(٨٢٢/٥٢٠٦ — ٧٩٦/٥١٨٠ م)	الحكم بن هشام
(٨٥٢/٥٢٣٨ — ٨٢٢/٥٢٠٦ م)	عبد الرحمن بن الحكم
(٨٨٦/٥٢٧٣ — ٨٥٢/٥٢٣٨ م)	محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
(٨٨٨/٥٢٧٥ — ٨٨٦/٥٢٧٣ م)	المنذر بن محمد بن عبد الرحمن
(٩١٢/٥٣٠٠ — ٨٨٨/٥٢٧٥ م)	عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
(٩٦١/٥٣٥٠ — ٩١٢/٥٣٠٠ م)	عبد الرحمن الناصر بن محمد
(٩٧٦/٥٣٦٦ — ٩٦١/٥٣٥٠ م)	المستنصر الحكم بن عبد الرحمن
(١٠٠٨/٥٣٩٩ — ٩٧٦/٥٣٦٦ م)	هشام المؤيد بن الحكم
(١٠٠٩/٥٤٠٠ — ١٠٠٨/٥٣٩٩ م)	المهدي محمد بن هشام
(١٠٠٩/٥٤٠٠ — ١٠٠٩/٥٤٠٠ م)	سليمان المستعين بالله
(١٠٠٩/٥٤٠٠ — ١٠٠٩/٥٤٠٠ م)	المهدي محمد بن هشام (ثانية)



## للمؤلف

- ١ — الكوميدي الحديث  
المجموعة الأولى من أزجاله المسرحية  
طبع القاهرة سنة ١٩١٧
- ٢ — أشهر مشاهير الموسيقى الغربية  
طبع برلين سنة ١٩٢٣
- ٣ — رسالة الكندي في خبر تأليف الألحان  
طبع ليزرغ سنة ١٩٣١
- ٤ — ابن سينا وتصانيفه الموسيقية  
طبع برلين سنة ١٩٣١
- ٥ — دراسة القانون  
طبع القاهرة سنة ١٩٣٤
- ٦ — مجلة «الموسيقى» (١٤ عدداً)  
طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦
- ٧ — موسيقى قدماء المصريين  
طبع القاهرة سنة ١٩٣٦
- ٨ — صور التاريخ الموسيقي  
طبع مصلحة المساحة بالقاهرة سنة ١٩٣٧
- ٩ — الموسيقى النظرية  
الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧  
القاهرة } « الثانية سنة ١٩٣٩  
          » « الثالثة سنة ١٩٤٦
- ١٠ — موتسارت  
قصة الطفل المعجز }  
والموسيقى العبقري }
- ١١ — المجلة الموسيقية (١٣٧ عدداً)  
طبع القاهرة سنة ١٩٣٦ — ١٩٤١
- ١٢ — الموسيقى في كلمات  
» » » ١٩٤٣



- ١٣ — يتهوفن طبع القاهرة سنة ١٩٤٤
- ١٤ — تبسيط دراسة الموسيقى » » » ١٩٤٥
- ١٥ — تنظيم أوقات الفراغ القاهرة { الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥  
» الثانية سنة ١٩٤٦
- ١٦ — مجلة الموسيقى والمسرح (٤٨ عددا) طبع القاهرة سنة ١٩٤٧ — ١٩٥١
- ١٧ — فردريك شوبان طبع القاهرة سنة ١٩٤٩
- ١٨ — أعلام الغرب (من سلسلة التاريخ الموسيقى) { الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩  
» الثانية سنة ١٩٥١
- ١٩ — الموسيقى العربية وأعلامها (من سلسلة التاريخ الموسيقى)  
طبع القاهرة سنة ١٩٥١

I 14860570

B 13095377

- ١٠١ - ...
- ١٠٢ - ...
- ١٠٣ - ...
- ١٠٤ - ...
- ١٠٥ - ...
- ١٠٦ - ...
- ١٠٧ - ...
- ١٠٨ - ...
- ١٠٩ - ...
- ١١٠ - ...
- ١١١ - ...
- ١١٢ - ...
- ١١٣ - ...
- ١١٤ - ...
- ١١٥ - ...
- ١١٦ - ...
- ١١٧ - ...
- ١١٨ - ...
- ١١٩ - ...
- ١٢٠ - ...

مجلة

# الموسيقى والمسرح

صدرها : دكتور محمود أحمد الحفني

\* هي المجلة الوحيدة في الشرق التي تحمل الرسالة الفنية وتنتشر البحوث الموسيقية وتدون الأغاني والأناشيد تدويناً على أساس صحيح من العلم والفن يجمع بين الشعر والتلحين والشرح وتسجيل النوتة الموسيقية .

\* هي كتاب دوري وسجل فني يضع بين يديك كل ما وصلت إليه نهضة هذا الفن ويطلعك بكل ما يهيمك الوقوف عليه من تجديد وإنتاج .

\* هي مرشد صادق ومشير أمين ورائد يكشف للفنان طريقه إلى استكمال ثقافته والمزيد منها . لا يستغنى عنها من يشتغل بهذا النوع من التعليم . كما لا غنى عنها للمحترفين والهواة .

\* مجلة « الموسيقى والمسرح » ستبقى دائماً أحدث كتاب في يدك .  
بادر بالاشتراك فيها بعنوان ٥ ميدان الشيخ يوسف قصر الدوبارة  
وقيمة اشترائها السنوي ٦٠ قرشا صاغاً





